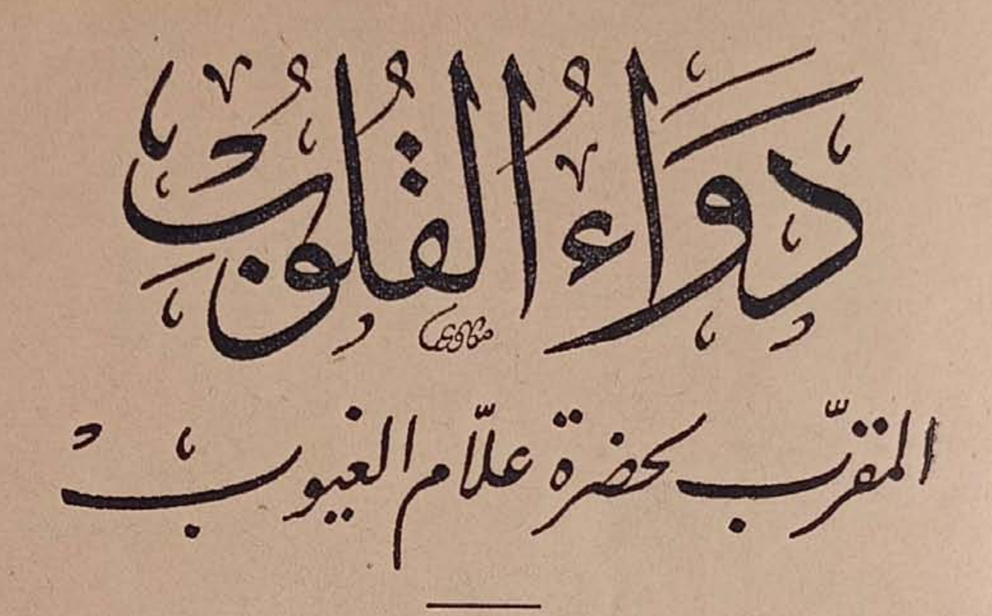
دواء القلوب

التقرب بحضرة علام الغيوب



المقرّب لحضرة علّام الغيوب

جمع الفقير الى ربه تعالى

محمد بن عبد الرحمن بن عباد الحنبلي مذهبا والنجدي وطنا

المتوفى لرحمة الله عام ١٣٨٠

الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة

الناشرون

مكتبة التوفيق ومكتبة التقدم الثقافي

والمكتبة الأهلية بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مقلب القلوب والأبصار وموقظ القلوب الغافلة بالوعظ والتذكار وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فى ملكه وما يقضيه من الأمور والأقدار ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المجتبى المختار صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه البررة الأطهار . أما بعد فهذه نبذة يسيرة اقتطفتها ، وموعظة بليغة اختصرتها من كتب شتى وجعلتها تذكرة لمن أصغى إليها بلا امتراء ولم أجعلها على نسق واحد ، بل قد تكون العبارات والفقر كل فقرة ليست على نسق الأخرى وذلك لضيق الوقت وعدم تيسر جمعها فى وقت واحد ، لأنها من كتب متنوعة وأوقاتها متفرقة أعنى حال جمعها وإنما المقصود بها تذكير الغافل وتنبيه وتعليم الجاهل

وَأَرْجُو أَنْ يَنْفَعَ اللهُ بِهَا مَنْ سَمِعَهَا أَوْ قَرَأَهَا أَوْ كَتَبَهَا ، وَقَدْ جَمَعْتُ فِيهَا مِنَ الْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ مَا يَبْهَرُ الْعُقُولَ عَلَى اخْتِصَارِهَا وَوَجَازَتِهَا وَأَرْجُو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ لَا يَحْرِمَنِي أَجْرَهَا ، وَأَنْ يَجْعَلَ الْعَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

(فَصْلٌ) قَالَ تَعَالَى «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» قَالَ الْعِمَادُ ابْنُ كَثِيرٍ : أَىْ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا الْقُلُوبُ الْمُوقِنَةُ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْمُؤْمِنَةُ الْوَجِلَةُ الْخَاضِعَةُ لِرَبِّهَا، وَقَالَ تَعَالَى «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» وَقَالَ تَعَالَى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : نَسُوا اللهَ تَرَكُوا طَاعَتَهُ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُقَدِّمُوا لَهَا خَيْرًا أَوْ يَعْمَلُوا لَهَا خَيْرًا .

(فصل) وَلَمَّا كَانَتِ الْمَوَاعِظُ لِلْقُلُوبِ كَالسِّيَاطِ لِلْأَبْدَانِ، كَانَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مَوَاعِظَ وَقَصَصًا وَأَخْبَارًا وَإِنْذَارًا وَعِبَرًا وَتَخْوِيفًا وَتَفْصِيلًا قَالَ تَعَالَى «هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ»

وقال تعالى «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» وقال تعالى «لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» وقال تعالى «ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات» وقال تعالى «وذكرهم بأيام الله» فسننه سبحانه فى الماضين عبرة للغابرين وقد جرى للأمم السالفة من العبر ما هو موعظة لمن اعتبر لاسيما ما جرى على هذه الأمة من الوقائع العظام. ما هو عظة لمن بعدهم من الجهد والجوع والأمراض والأسقام والزلازل فان ذلك تذكرة لمن له قلب كما قال تعالى فى سياق آخر سورة ق «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» وقد

حَكَى الْعِمَادُ بْنُ كَثِيرٍ فِي التَّارِيخِ أَنَّهُ حَصَلَ فِي مِصْرَ وَمَا قَارَبَهَا مِنَ
الْبِلَادِ غَلَاءٌ وَجَهْدٌ قَالَ وَهَلَكَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ
ثُمَّ أَعْقَبَهُ فَنَاءٌ عَظِيمٌ حَتَّى حَكَى الشَّيْخُ أَبُو شَامَةَ فِي الذَّيْلِ
أَنَّ الْمَلِكَ الْعَادِلَ كَفَّنَ مِنْ مَالِهِ فِي مُدَّةِ شَهْرٍ مِنْ هٰذِهِ السَّنَةِ
السَّابِعَةِ وَالتِّسْعِينَ وَالْخَمْسِمِائَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ نَحْوًا مِنْ مِائَتَيْ أَلْفٍ
وَعِشْرِينَ أَلْفَ مَيِّتٍ وَأُكِلَتِ الْكِلَابُ وَالْمَيْتَاتُ بِمِصْرَ وَأُكِلَ مِنَ
الْأَطْفَالِ خَلْقٌ كَثِيرٌ. وَذَكَرَ أُمُورًا كَثِيرَةً جِدًّا تَرَكْتُهَا قَصْدًا لِطُولِهَا
وَمَا فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ الْهَائِلَةِ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ
ثُمَّ قَالَ فِي هٰذِهِ الْقِصَّةِ وَوَقَعَ فِي هٰذِهِ السَّنَةِ وَبَاءٌ شَدِيدٌ بِبِلَادِ عُنَيْزَةَ
بَيْنَ الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَكَانَتْ عِشْرِينَ قَرْيَةً فَبَادَتْ مِنْهَا ثَمَانِيَةَ عَشْرَةَ
قَرْيَةً لَمْ يَبْقَ مِنْهَا دَيَّارٌ وَلَا نَافِخُ نَارٍ وَبَقِيَتْ أَنْعَامُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ لَا قَانِيَ
لَهَا وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَسْكُنَ تِلْكَ الْقُرَى وَلَا يَدْخُلَهَا بَلْ كَانَ مَنْ

اقْتَرَبَ إِلَيهَا هَلَكَ مِنْ سَاعَتِهِ نعوذُ بِاللهِ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَعَذَابِهِ وَغضبهِ وَعِقَابِهِ أَمَّا الْقَرْيَتَانِ الْبَاقِيَتَانِ فَإِنَّهُ لَمْ يمتْ مِنهُمَا أَحَدٌ ، وَلاَ عِنْدَهُمْ شُعُورٌ بِمَا جَرَى عَلَى مَنْ حَوْلَهُمْ بَلْ هُمْ عَلَى حَالِهِمْ لَمْ يفقدْ مِنهُمْ أَحَدٌ وَلَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ خَبَرٌ فَسُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ وفِي الْقَرْنِ السَّادِسِ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَتَاهُمْ عَارِضٌ فِيهِ ظُلُمَاتٌ مُتَكَاثِفَةٌ وَبُرُوقٌ خَاطِفَةٌ وَرِيَاحٌ عَاصِفَةٌ فَقَوِيَ الْجَوُّ بِهَا وَاشْتَدَّ هُبُوبُهَا حَتَّى انْبَثَّ لَهَا أَعِنَّةٌ مُطْلَقَاتٌ وَارْتَفَعَتْ لَهَا صَفَقَاتٌ فَرَجَفَتْ لَهَا الْجُدْرَانُ وَاصْطَفَقَتْ وَتَلَاقَتْ عَلَى بُعْدٍ . وَاعْتَنَقَتْ وَثَارَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَجَاجًا حَتَّى قِيلَ إِنَّ هَـٰذِهِ عَلَى هَـٰذِهِ انْطَبَقَتْ وَلَا يُحْسَبُ إِلَّا أَنَّ جَهَنَّمَ قَدْ سَالَ مِنْهَا وَادٍ وَعَدَا مِنْهَا عَادٍ وَزَادَ عَصْفُ الرِّيحِ إِلَى أَنْ أَطْفَأَ سِرَاجَ النُّجُومِ وَمَزَّقَتْ أَدِيمَ السَّمَاءِ وَمَحَتْ مَا فَوْقَهُ مِنَ الرُّقُومِ فَكُنَّا كَمَا قَالَ تَعَالَى «يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ» وَيَرُدُّونَ

أيديهم على أعينهم من البوارق لا عاصم لخطف الأبصار ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار وفر الناس نساءا ورجالا وأطفالا ونفروا من دورهم خفافا وثقالا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فاعتصموا بالمساجد الجامعة وأذعنوا للنازلة بأعناق خاضعة ووجوه عانية ونفوس عن الأهل والمال سالية ينظرون من طرف خفي ويتوقعون أي خطب جلي قد انقطعت من الحياة علقهم وعميت عن النجاة طرقهم ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون وقاموا على صلاتهم ووددوا لو كانوا من الذين عليها دائمون إلى أن أذن الله بالركود وأسعف لها المتهجدون بالهجود فأصبح كل مسلم على رفيقه يهنئه ويرى أنه قد بعث بعد النفخة وأفاق بعد الصيحة والصرخة وأن الله قد رد له الكرة وأحياه بعد أن كاد يأخذه على غرة . ووردت

الْأَخْبَارُ بِأَنَّهَا قَدْ كَسَرَتِ الْمَرَاكِبَ فِى الْبِحَارِ وَالْأَشْجَارَ فِى الْقِفَارِ وَأَتْلَفَتْ خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ السُّفَّارِ وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّ فَلَا يَنْفَعُهُ الْفِرَارُ إِلَى أَنْ قَالَ وَلَا تَحْسَبُ أَنِّى أَرْسَلْتُ الْقَلَمَ مُحَرِّفًا وَالْعِلْمَ مُجَوَّفًا فَالْأَمْرُ أَعْظَمُ وَلَـٰكِنَّ اللهَ سَلَّمَ وَنَرْجُو أَنَّ اللهَ قَدْ أَيْقَظَنَا بِمَا بِهِ وَعَظَنَا وَنَبَّهَنَا بِمَا فِيهِ وَلَهَّنَا فَمَا مِنْ عِبَادِهِ إِلَّا مَنْ رَأَى الْقِيَامَةَ عِيَانًا وَلَمْ يَلْتَمِسْ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَٰلِكَ بُرْهَانًا فَمَا قَصَا الْأَوَّلُونَ مِثْلَهَا فِى الْمُثُلَاتِ وَلَا سَبَقَتْ لَهَا سَابِقَةٌ فِى الْمُعْضِلَاتِ وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى مِنْ فَضْلِهِ جَعَلَنَا نُخْبِرُ عَنْهَا وَلَا يُخْبَرُ عَنَّا وَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَصْرِفَ عَنَّا عَارِضَ الْحِرْصِ وَالْغُرُورِ وَلَا يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ الْهَلَاكِ وَالثُّبُورِ.

(فَصْلٌ) وَقَدْ كَانَ فِى وَصَايَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْحَوَارِيِّينَ أَنْ قَالَ: يَامَعْشَرَ الْحَوَارِيِّينَ تَحَبَّبُوا إِلَى اللهِ بِبُغْضِ أَهْلِ الْمَعَاصِى

وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْمَقْتِ لَهُمْ وَالْتَمِسُوا رِضَاهُ بِسُخْطِهِمْ وَجَالِسُوا مَنْ تَزِيدُكُمْ مُجَالَسَتُهُ حِكْمَةً . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : أَحَبُّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ أَكْثَرُهُمْ لَهُ ذِكْرًا وَأَتْقَاهُمْ قَلْبًا . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » قَالَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ . وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : الَّذِينَ لَا تَزَالُ أَلْسِنَتُهُمْ رَطْبَةً مِنْ ذِكْرِ اللهِ يَدْخُلُ أَحَدُهُمُ الْجَنَّةَ وَهُوَ يَضْحَكُ وَقِيلَ لَهُ إِنَّ رَجُلًا أَعْتَقَ مِائَةَ نَسَمَةٍ مِنْ مَالِهِ فَقَالَ إِنَّ مِائَةَ نَسَمَةٍ مِنْ مَالِ رَجُلٍ كَثِيرٌ وَأَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ إِيمَانٌ مَلْزُومٌ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنْ لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ الذِّكْرِ ذِكْرُ اللِّسَانِ فَقَطْ بَلِ الذِّكْرُ الْقَلْبِيُّ وَاللِّسَانِيُّ وَذِكْرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَذِكْرُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَرُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِرَجُلٍ

مُغَيَّبٌ فِي نُورِ الْعَرْشِ فَقُلْتُ مَنْ هٰذَا يَا جِبْرِيلُ أَمَلَكٌ هُوَ . قَالَ لَا)
وَفِي رِوَايَةٍ قُلْتُ (أَنَبِيٌّ قِيلَ لَا قُلْتُ مَنْ هُوَ قِيلَ هٰذَا رَجُلٌ كَانَ لِسَانُهُ
رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ وَلَمْ يَسُبَّ وَالِدَيْهِ قَطُّ)
وَقَالَ كَعْبٌ : مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ وَيَشْهَدُ لِهٰذَا
الْمَعْنَى أَنَّ اللهَ وَصَفَ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا
فَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ فَقَدْ بَرِئَ مِنْهُمْ وَبَايَنَهُمْ فِي أَوْصَافِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ .
وَكَانَ الْمُغِيرَةُ بْنُ الْحَكَمِ إِذَا هَدَأَتِ الْعُيُونُ نَزَلَ بِالْجِسْرِ وَقَامَ فِي
الْمَاءِ يَذْكُرُ اللهَ مَعَ دَوَابِّ الْبَحْرِ . وَقَالَ فِي حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ : إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ كَلَامِهِ إِلَّا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَمَا أَنَّهُ
لَا يُنْفِقُ مِنْ كِيسِهِ إِلَّا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَقَالَ لَوِ اشْتَرَيْتُمُ الْقِرْطَاسَ
لِلْحَفَظَةِ لَسَكَتُّمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ . وَرُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ قِلَّةُ كَلَامِهِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ) وَرُوِيَ أَيْضًا

عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ الصَّدَقَةَ وَصِلَةَ الرَّحِمِ تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ) وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ (إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَقْتَتِلَانِ وَيَدْفَعُ الدُّعَاءُ الْبَلَاءَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ وَبَعْدَهُ) وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي ذَرٍّ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ كَانَتْ أَمْثَالًا كُلُّهَا كَانَ فِيهَا عَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِي صُنْعِ اللهِ وَسَاعَةٌ يُحَدِّثُ فِيهَا نَفْسَهُ وَسَاعَةٌ يَخْلُو بِذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَإِنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ لَهُ عَوْنٌ عَلَى تِلْكَ السَّاعَاتِ وَالسَّعَادَةُ قَبْلَ الْوِلَادَةِ وَلَكِنْ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ التَّفَكُّرُ فِي مَآلِهِ وَسُرْعَةِ نُزُولِهِ وَارْتِحَالِهِ وَيَنْبَغِي لَهُ الصَّبْرُ فِي ذَلِكَ وَهُوَ نَوْعَانِ صَبْرُ اخْتِيَارٍ وَصَبْرُ اضْطِرَارٍ فَصَبْرُ الْاخْتِيَارِ غَيْرُ صَبْرِ الْاضْطِرَارِ فَصَبْرُ الْاخْتِيَارِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى مَا يَقْضِيهِ رَبُّهُ وَيَخْتَارُهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ وَلَا شَكْوَى لِمَخْلُوقٍ

وَصَبْرُ الاضْطِرَارِ هُوَ الْمَذْمُومُ وَهُوَ الَّذِى لاَ يَرْضَى بِقَضَاءِ اللهِ وَاخْتِيَارِهِ لَهُ بَلْ يَحْصُلُ مِنْهُ ضَجَرٌ وَتَشَكِّى وَجَزَعٌ وَهَلَعٌ فَهَذَا يَسْلُو كَمَا تَسْلُو الْبَهَائِمُ بَلْ هِىَ أَحْسَنُ حَالاً مِنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى « إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً » .

(فَصْلٌ) وَهُنَا مَحَبَّتَانِ مَحَبَّةٌ دِينِيَّةٌ وَمَحَبَّةٌ بَشَرِيَّةٌ فَالْمَحَبَّةُ الْبَشَرِيَّةُ قَدْ تَكْرَهُ حُصُولَ الْخَيْرِ وَتَمْيِيزَ غَيْرِهَا عَلَيْهَا فَيَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يُخَالِفَ الطِّبَاعَ الْبَشَرِيَّةَ وَيَدْعُو لأَخِيهِ وَيَتَمَنَّى لَهُ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَالإِنْسَانُ مَتَى لَمْ يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ كَانَ حَسُودًا وَالْحَسَدُ أَنْوَاعٌ مِنْهَا أَنْ يَتَمَنَّى زَوَالَ نِعْمَةِ الْغَيْرِ وَحُصُولَهَا لَهُ الثَّانِى أَنْ يَتَمَنَّى زَوَالَهَا وَإِنْ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ وَهَذَا اعْتِرَاضٌ عَلَى اللهِ فِى حُكْمِهِ وَقَسْمِهِ فِى خَلْقِهِ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَلاَ يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا الثَّالِثُ أَنْ يَتَمَنَّى زَوَالَهَا وَلَكِنْ يَكْرَهُ ارْتِفَاعَهُ عَلَيْهِ وَهَذَا لاَ يَبْعُدُ مِنَ الَّذِى قَبْلَهُ .

(فصل) وقال الحسن البصرى المؤمن : من جمع إحسانا وإشفاقا والمنافق من جمع إساءة ونفاقا . فينبغى للعبد الخوف من ذلك وأن يجعله نصب عينيه فى كل عمل يعمله . وقد قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس (تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) الحديث وفى لفظ (وخالق الناس بخلق حسن) قال النووى : إعلم أن الخلق الحسن كلمة جامعة للاحسان إلى الناس وإلى كف الأذى عنهم . وقد قال عليه السلام (لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن بحسن الخلق) ولابد مع ذلك من سلامة القلب فيكون باطنا وظاهرا وقال الغزالى على قوله صلى الله عليه وسلم (الطهور شطر الايمان) فسره بطهارة القلب من الغل والحسد والحقد وسائر أمراض القلب وذلك أن الايمان الكامل لا يتم إلا بذلك

فَمَنْ أَتَى بِالشَّهَادَتَيْنِ حَصَلَ لَهُ الشَّطْرُ وَمَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَمْرَاضِ كَمُلَ إِيمَانُهُ وَمَنْ لَمْ يُطَهِّرْ قَلْبَهُ فَقَدْ نَقَصَ إِيمَانُهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ وَتَوَضَّأَ وَاغْتَسَلَ فَقَدْ دَخَلَ الصَّلَاةَ بِالطَّهَارَتَيْنِ جَمِيعًا وَمَنْ دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ بِطَهَارَةِ الْأَعْضَاءِ خَاصَّةً فَقَدْ دَخَلَ بِأَحَدِ الطَّهَارَتَيْنِ وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا) قَالَ بَعْضُهُمْ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ كُلُّ إِنْسَانٍ يَسْعَى لِنَفْسِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَبِيعُهَا لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ فَيُعْتِقُهَا مِنَ الْعَذَابِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبِيعُهَا لِلشَّيْطَانِ وَالْهَوَى بِاتِّبَاعِهِمَا فَيُوبِقُهَا اي يُهْلِكُهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ عَلَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ (الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ) وَفِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يُرَاجِعُ قَلْبَهُ إِذَا أَرَادَ الْإِقْدَامَ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ يُرْوَى أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْصَى بَنِيهِ بِوَصَايَا مِنْهَا أَنَّهُ قَالَ: إِذَا

أَرَدْتُمْ فِعْلَ شَيْءٍ فَإِنِ اضْطَرَبَتْ قُلُوبُكُمْ فَلَا تَفْعَلُوهُ وَإِذَا أَرَدْتُمْ فِعْلَ شَيْءٍ فَانْظُرُوا فِي عَاقِبَتِهِ فَإِنِّي لَوْ نَظَرْتُ فِي عَاقِبَةِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ مَا أَكَلْتُ مِنْهَا، وَمِنْهَا أَنَّهُ قَالَ إِذَا أَرَدْتُمْ فِعْلَ شَيْءٍ فَاسْتَشِيرُوا الْأَخْيَارَ فَإِنِّي لَوِ اسْتَشَرْتُ الْمَلَائِكَةَ لَأَشَارُوا عَلَيَّ بِتَرْكِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ. وَقَالَ الْغَزَالِيُّ: ابْنُ آدَمَ بَدَنُهُ مَعَهُ كَالشَّبَكَةِ يَكْتَسِبُ بِهَا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ فَإِذَا اكْتَسَبَ خَيْرًا ثُمَّ مَاتَ كَفَاهُ وَلَمْ يَحْتَجْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الشَّبَكَةِ وَهِيَ الْبَدَنُ الَّذِي فَارَقَهُ بِالْمَوْتِ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَتْ شَهْوَتُهُ مِنَ الدُّنْيَا وَاشْتَهَتْ نَفْسُهُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لِأَنَّهُ زَادُ الْقَبْرِ، فَإِنْ كَانَ مَعَهُ اسْتَغْنَى بِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ طَلَبَ الرُّجُوعَ مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا لِيَتَّخِذَ مِنْهَا الزَّادَ وَذَلِكَ بَعْدَ أَخْذِ الشَّبَكَةِ فَيُقَالُ هَيْهَاتَ قَدْ فَاتَ، فَيَبْقَى دَائِمًا نَادِمًا عَلَى تَفْرِيطِهِ. وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِابْنِ عُمَرَ (وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِكَ وَمِنْ

حياتك لموتك) وعن ابن عمر رضى الله عنه قال (أخذ رسول الله
صلى الله عليه وسلم بمنكبى فقال كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر
سبيل وكان ابن عمر يقول إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا
أصبحت فلا تنتظر المساء الحديث وفى الحديث الذى رواه
الترمذى وغيره (من أصبح والدنيا أكبر همه شتت الله عليه شمله
وفرق ضيعته ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح
والآخرة أكبر همه جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا
وهى راغمة) وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول (اللهم إنى أسألك العفو
والعافية فى الدنيا والآخرة ومن حفظ الله فى صباه وقوته حفظه
الله فى حال كبره وضعفه ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوته)
وكان بعض العلماء قد جاوزوا المائة سنة وهو متمتع بقوته
وعقله فوثب يوما وثبة شديدة فعوتب فى ذلك فقال هذه جوارح

حَفِظْنَاهَا عَنِ الْمَعَاصِى فِى الصِّغَرِ فَحَفِظَهَا اللهُ عَلَيْنَا فِى الْكِبَرِ وَعَكْسُ هٰذَا أَنَّ بَعْضَ السَّلَفِ رَأَى شَيْخًا يَسْأَلُ النَّاسَ فَقَالَ إِنَّ هٰذَا ضَعِيفٌ ضَيَّعَ اللهَ فِى صِغَرِهِ فَضَيَّعَهُ اللهُ فِى كِبَرِهِ وَقَدْ يَحْفَظُ اللهُ الْعَبْدَ الصَّالِحَ بِصَلَاحِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ فِى ذُرِّيَّتِهِ كَمَا قِيلَ فِى قَوْلِهِ تَعَالَى (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) أَنَّهُمَا حُفِظَا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا . قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ لِابْنِهِ لَأَزِيدَنَّ فِى صَلَاتِى لِأَجْلِكَ رَجَاءَ أَنْ أُحْفَظَ فِيكَ ثُمَّ تَلَا هٰذِهِ الْآيَةَ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمُوتُ إِلَّا حَفِظَهُ اللهُ فِى عَقِبِهِ وَعَقِبِ عَقِبِهِ وَقَالَ بْنُ الْمُنْكَدِرِ إِنَّ اللهَ يَحْفَظُ بِالرَّجُلِ الصَّالِحِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَالدُّوَيْرَاتِ الَّتِى حَوْلَهُ فَمَا يَزَالُونَ فِى حِفْظٍ مِنَ اللهِ وَسَتْرٍ وَمَتَى كَانَ الْعَبْدُ مُشْتَغِلًا بِطَاعَةِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ يَحْفَظُهُ فِى تِلْكَ الْحَالِ وَفِى مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (كَانَتِ امْرَأَةٌ

فى بيت فخرجت فى سرية من المسلمين وتركت اثنتى عشرة عنزة وصيصتها كانت تنسج بها قال ففقدت عنزة لها وصيصتها فقالت يا ربى إنك قد ضمنت لمن خرج فى سبيلك أن تحفظ عليه وإنى قد فقدت عنزا من غنمى وصيصتى وإنى أنشدك عنزة لى وصيصتى وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يذكر شدة مناشدتها ربها تبارك وتعالى قال صلى الله عليه وسلم : فأصبحت عنزها ومثلها، وصيصتها هى السنارة التى يغزل بها فمن حفظ الله حفظه من كل أذى . وفى حديث حارثة المشهور إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له (يا حارثة كيف أصبحت قال أصبحت مؤمنا حقا قال انظر ما تقول فان لكل قول حقيقة . قال يا رسول الله عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهاري وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار كيف

يَتَعَارَفُونَ فِيهَا قَالَ أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ . عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ بِالْإِيمَانِ قَلْبَهُ) .

(فَصْلٌ) وَأَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ وَالْمُوَالَاتُ فِي اللهِ وَالْمُعَادَاتُ فِي اللهِ وَقَالَ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ وَأَبْغَضَ فِي اللهِ وَعَادَى فِي اللهِ وَوَالَى فِي اللهِ فَإِنَّمَا يَنَالُ وِلَايَةَ اللهِ بِذَلِكَ ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا . وَأَهْلُ الْغَفْلَةِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا خُلِقُوا لَهُ . وَمَحَبَّتُهُمْ لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ لَا لِمَحَبَّةِ مَوْلَاهُمْ وَرِضَاهُ ، فَتَخُونُهُمْ مَحَبَّتُهُمْ لِهَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا ، وَقَدْ صَارَ هَوَاهُمْ وَإِقْبَالُهُمْ عَلَى مَا تَكَفَّلَ لَهُ بِهِ وَصَارَ الْحَقُّ عِنْدَهُمْ بَاطِلًا وَالْبَاطِلُ حَقًّا وَالْفَاجِرُ تَقِيًّا وَالتَّقِيُّ فَاجِرًا فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

(فَصْلٌ) وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَطَايَا لِهٰذَا الْعَالَمِ يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ لَمْ يَزَلِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ سَرِيعَيْنِ فِي نَقْصِ الْأَعْمَارِ وَتَقْرِيبِ الآجَالِ. هَيْهَاتَ. قَدْ صَحِبَا نُوحًا وَعَادًا وَثَمُودَ وَقُرُونًا بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيرًا فَأَصْبَحُوا وَقَدْ قَدِمُوا عَلَى رَبِّهِمْ وَوَرَدُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَأَصْبَحَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ غَضَّيْنِ جَدِيدَيْنِ لَمْ يُبْلِهِمَا مَا مَرَّا بِهِ مُسْتَعِدَّيْنِ لِمَنْ بَقِيَ بِمِثْلِ مَا مَضَى وَكَتَبَ الْأَوْزَاعِيُّ إِلَى أَخٍ لَهُ أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أُحِيطَ بِكَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَاعْلَمْ أَنَّهُ يُسَارُ بِكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَاحْذَرِ اللهَ وَالْمَقَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِكَ. وَالسَّلَامُ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ. كَيْفَ يَفْرَحُ بِالدُّنْيَا مَنْ يَوْمُهُ يَهْدِمُ شَهْرَهُ وَشَهْرُهُ يَهْدِمُ سَنَتَهُ وَسَنَتُهُ تَهْدِمُ عُمْرَهُ. كَيْفَ يَفْرَحُ بِالدُّنْيَا مَنْ يَقُودُهُ عُمْرُهُ إِلَى أَجَلِهِ وَتَقُودُهُ حَيَاتُهُ لِمَوْتِهِ وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ مَنْ كَانَتِ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي مَطَايَاهُ سَارَتْ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ

وَكَتَبَ بَعْضُ السَّلَفِ إِلَى أَخٍ لَهُ يَا أَخِي يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّكَ مُقِيمٌ بَلْ أَنْتَ دَائِبُ السَّيْرِ تُسَاقُ مَعَ ذٰلِكَ سَوْقًا حَثِيثًا. الْمَوْتُ مُتَوَجِّهٌ إِلَيْكَ وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ وَرَاءِكَ وَمَا مَضَى مِنْ عُمْرِكَ فَلَيْسَ بِكَارٍّ عَلَيْكَ إِلَى يَوْمِ التَّغَابُنِ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ قَالَ لِأَهْلِهِ أَسْتَوْدِعُكُمُ اللهَ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي الَّتِي لَا أَقُومُ مِنْهَا وَكَانَ هٰذَا دَأْبَهُ إِذَا أَرَادَ النَّوْمَ وَقَالَ بَكْرٌ الْمُزَنِيُّ إِنِ اسْتَطَاعَ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَبِيتَ إِلَّا وَعَهْدُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ مَكْتُوبٌ فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَبِيتُ فِي أَهْلِ الدُّنْيَا وَيُصْبِحُ فِي أَهْلِ الْآخِرَةِ وَكَانَ أُوَيْسٌ الْقَرَنِيُّ إِذَا قِيلَ لَهُ كَيْفَ الزَّمَانُ عَلَيْكَ: قَالَ كَيْفَ الزَّمَانُ عَلَى رَجُلٍ إِنْ أَمْسَى ظَنَّ أَنَّهُ لَا يُصْبِحُ وَإِنْ أَصْبَحَ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يُمْسِي فَمُبَشَّرٌ بِالْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ.

(فَصْلٌ) وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ الْهَوَى يُعْمِي عَنِ الْحَقِّ

وينسى الآخرة وما مثل الهوى إلا كسبع فى عنقه سلسلة فان استوثق منه ضابطه كفه وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه فلم تقاومها السلسلة فانفلت . على أن من الناس من يكف هواه بسلسلة ومنهم من يكفه بخيط فينبغى للعاقل أن يحذر شيطانه وهواه وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الجراح بن عبد الله الحكمى إن استطعت أن تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام فافعل فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه إلى الحرام وحكى عن المعتمر أنه قال الناس ثلاثة أصناف أغنياء وفقراء وأوساط . فالفقراء موتى إلا من أغناه الله بعز القناعة . والأغنياء سكارى إلا من عصمه الله بتوقع الغير . يعنى والله أعلم أن من وفقه الله لآخرته جعل أجله أمامه وتوقع نزول الموت فعلم أنه للوارث وأن ماله ما قدمه أمامه قال وأكثر الخير مع أكثر الأوساط وأكثر

الشر مع أكثر الفقراء والأغنياء لسخف الفقير وبطر الغني.

وروى أبو الدرداء قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وعلى جنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى) وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة ومن رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل) وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: من نبل الفقر أنك لا تجد أحدا يعصى الله ليفتقر. وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (من أراد الله به خيرا حال بينه وبين شهواته وحال بينه وبين قلبه وإذا أراد الله به شرا وكله إلى نفسه) وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (يظهر شرار أمتى على خيارها حتى يستخفى المؤمن كما يستخفى

الْمُنَافِقُ فِينَا الْيَوْمَ)

(فَصْلٌ) قَالَ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ تَعَالَى غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هٰؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هٰذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ وَلَقَدْ كَانَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ، الْمُرَادُ وَاللهُ أَعْلَمُ مِنَ الْمَرَضِ وَهٰذَا لِشِدَّةِ الِاعْتِنَاءِ بِهَا وَالِاهْتِمَامِ بِأَمْرِهَا. وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ وَلَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْغَنَمِ) رَوَاهُ أَبُو

دَاوُدَ وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ مَا صَدَّقَتْكُمْ أَنْفُسُكُمْ تُؤَمِّلُونَ مَا لَا تَبْلُغُونَ وَتَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ وَتَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ. وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ مَالِي أَرَى عُلَمَاءَكُمْ يَذْهَبُونَ وَأَرَى جُهَّالَكُمْ لَا يَتَعَلَّمُونَ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ فَإِنَّ رَفْعَ الْعِلْمِ ذَهَابُ الْعُلَمَاءِ مَالِي أَرَاكُمْ تَحْرِصُونَ عَلَى مَا قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِهِ. وَتُضَيِّعُونَ مَا وُكِّلْتُمْ بِهِ لَأَنَا أَعْلَمُ بِشِرَارِكُمْ مِنَ الْبَيْطَارِ بِالْخَيْلِ هُمُ الَّذِينَ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبَارًا وَلَا يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ إِلَّا هَجْرًا وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ عَالَجْتُ نَفْسِي عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ سَنَةً وَالْتَذَذْتُ بِهِ عِشْرِينَ سَنَةً وَمَنْ لَمْ يُصَبِّرْ نَفْسَهُ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ وَيُوَطِّنْهَا عَلَى مَحَبَّتِهِ ابْتُلِيَ بِتَصْبِيرِهَا عَلَى الْمَعَاصِي وَذُلِّهَا وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: وَأَمَّا اللَّئِيمُ فَإِنَّهُ يَصْبِرُ اضْطِرَارًا وَأَنَّهُ يَحُومُ حَوْلَ الْحِمَى وَيَحُومُ حَوْلَ سَاحَةِ الْجَزَعِ فَلَا يَرَاهَا تُجْدِي عَلَيْهِ شَيْئًا فَيَصْبِرُ صَبْرَ الْمُوثَقِ لِلضَّرْبِ وَأَيْضًا فَالْكَرِيمُ يَصْبِرُ فِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ

وَاللَّئِيمُ يَصْبِرُ فِى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ أَتَمَّ صَبْرٍ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى الْبَذْلِ فِى طَاعَةِ الرَّحْمٰنِ . وَاللَّئِيمُ يَصْبِرُ فِى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَلِهٰذَا تَجِدُ اللِّئَامَ أَصْبَرَ النَّاسِ فِى طَاعَةِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَأَقَلَّ النَّاسِ صَبْرًا فِى طَاعَةِ رَبِّهِمْ فَيَصْبِرُ أَحَدُهُمْ عَلَى الْبَذْلِ فِى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ أَتَمَّ صَبْرٍ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى الْبَذْلِ فِى طَاعَةِ اللهِ فِى أَيْسَرِ شَىْءٍ وَيَصْبِرُ عَلَى تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ لِهَوَى نَفْسِهِ فِى مَرْضَاةِ عَدُوِّهِ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَدْنَى الْمَشَاقِّ فِى مَرْضَاةِ رَبِّهِ وَيَصْبِرُ عَلَى مَا يُقَالُ فِى عِرْضِهِ فِى الْمَعْصِيَةِ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى مَا يُقَالُ فِى عِرْضِهِ إِذَا أُوذِىَ فِى اللهِ بَلْ يَفِرُّ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىِ عَنِ الْمُنْكَرِ خَشْيَةَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِى عِرْضِهِ فِى ذَاتِ اللهِ وَيَبْذُلُ عِرْضَهُ فِى هَوَى نَفْسِهِ وَمَرْضَاتِهِ صَابِرًا عَلَى مَا يُقَالُ فِيهِ فَهُوَ أَصْبَرُ شَىْءٍ عَلَى الْبَذْلِ فِى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَمُرَادِ النَّفْسِ . وَأَعْجَزُ شَىْءٍ عَنِ الصَّبْرِ عَلَى ذٰلِكَ فِى اللهِ وَهٰذَا أَعْظَمُ اللُّؤْمِ وَمَنْ لَمْ يُجَاهِدْ فِى سَبِيلِ اللهِ ابْتُلِىَ فِى

الْجِهَادَ فى سَبِيلِ الشَّيْطَانِ . وَمَنْ بَخَلَ بِانْفَاقِ الْمَالِ فِى طَاعَةِ اللهِ ابْتُلِىَ بِالْانْفَاقِ فِى الْمَعَاصِى وَفِيمَا لَا يَنْفَعهُ وَمَنْ لَمْ يَمْشِ فِى طَاعَةِ اللهِ خُطُوَاتٍ مَشَى فِى مَعَاصِى اللهِ أَمْيَالًا .

(فَصْلٌ) وَمِنْهَا أَىِّ الْمَعَاصِى الْعِشْقُ لِلصُّوَرِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَعْشُوقَاتِ فَإِنَّ أَوَّلَهُ اخْتِيَارٌ وَآخِرَهُ اضْطِرَارٌ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ فَأَلْجِمْهَا بِالصَّبْرِ عَنِ الْمَعَاصِى جَمِيعِهَا ثُمَّ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِى رَأْىٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ وَإِيَّاكَ وَأَمْرَ الْعَوَامِّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى

الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ الْحَدِيثُ وَمِنْهَا أَنْ يَعْلَمَ الْمُؤْمِنُ أَنَّ الذُّنُوبَ كَثِيرَةٌ وَلَا نَجَاةَ لَهُ مِنْهَا إِلَّا بِمَعُونَةِ اللهِ وَعَفْوِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهَا قَدْ لَا يَعْلَمُهُ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْكَبَائِرِ الْقَلْبِيَّةِ مِثْلَ الرِّيَاءِ وَالْكِبْرِ وَالْحَسَدِ وَنَحْوِهِ وَقَدْ يَتَلَطَّخُ بِهَا الرَّجُلُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ وَلَعَلَّهُ يَتَوَرَّعُ عَنْ بَعْضِ الصَّغَائِرِ الظَّاهِرَةِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَتَلَطَّخُ بِالْكَبَائِرِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ كَمَا قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَلَا رُبَّ مُبَيِّضٍ لِثِيَابِهِ مُدَنِّسٌ لِدِينِهِ أَلَا رُبَّ مُكْرِمٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مُهِينٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ رُبَّ مَغْبُوطٍ بِمَسَرَّةٍ هِيَ دَاؤُهُ وَمَرْحُومٍ مِنْ سَقَمٍ وَهُوَ شِفَاؤُهُ. وَرُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (الدُّنْيَا يَوْمَانِ يَوْمُ فَرَحٍ وَيَوْمُ هَمٍّ، وَكِلَاهُمَا زَائِلٌ عَنْكَ فَدَعُوا مَا يَزُولُ وَأَتْعِبُوا أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَمَلِ لِمَا لَا يَزُولُ) وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا تُنَازِعُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ فَيُنَازِعُوكُمْ فِي دِينِكُمْ فَلَا دُنْيَاهُمْ أَصَبْتُمْ

وَلَا دِينكُمْ أَبْقَيتُمْ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ فَإِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ إِلَى أَنْ قَالَ يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ بِعَمَلِهِمْ وَيُبْغِضُ الظَّالِحِينَ وَهُوَ مِنْهُمْ وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: مَثَلُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَثَلُ ضَرَّتَيْنِ إِنْ أَرْضَيْتَ إِحْدَاهُمَا أَسْخَطْتَ الْأُخْرَى. وَقَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ: الدُّنْيَا مَنَازِلُ فَرَاحِلٌ وَنَازِلٌ. وَلَمَّا قَالَ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ يَا أَبَتِ اكْسُنِي إِزَارًا. قَالَ يَا بُنَيَّ نَكِّسْ إِزَارَكَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ فِي بُطُونِهِمْ وَعَلَى ظُهُورِهِمْ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ تَرْكُ الْحَرَامِ وَهُوَ زُهْدُ الْعَوَامِ وَالثَّانِي تَرْكُ الْفُضُولِ مِنَ الْحَلَالِ وَهُوَ زُهْدُ الْخَوَاصِّ وَالثَّالِثُ تَرْكُ مَا يَشْغَلُ عَنِ اللهِ وَهُوَ

زُهْدُ الْعَارِفِينَ . وَقِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ دَعَوْتَ اللهَ أَنْ يَهَبَ لَكَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ قَالَ أَنَا أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ أَنْ يَجْعَلَنِي خَادِماً لِحِمَارٍ وَيُقَالُ الْفَقْرُ مِلْكٌ لَا مُحَاسَبَةَ فِيهِ لِمَنْ صَبَرَ . وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِنَّمَا زُهْدُ النَّاسِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ قِلَّةِ الْانْتِفَاعِ مِنَ الَّذِينَ عَلِمُوا وَلَمْ يَعْمَلُوا : وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ رُبَّمَا تَتْبَعُ نَفْسُ الْانْسَانِ مَنْ بَعُدَ عَنْهُ اسْتِهَانَةً بِمَنْ قَرُبَ مِنْهُ وَتَطْلُبُ مَا صَعُبَ احْتِقَارًا لِمَا سَهُلَ عَلَيْهِ وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى رَجُلٍ أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ الَّتِي لَا يَقْبَلُ اللهُ غَيْرَهَا وَلَا يَرْحَمُ إِلَّا أَهْلَهَا وَلَا يُثِيبُ إِلَّا عَلَيْهَا فَانَّ الْوَاعِظِينَ لَهَا كَثِيرٌ وَالْعَامِلِينَ بِهَا قَلِيلٌ جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ مِنَ الْمُتَّقِينَ . وَمَنْ ضَيَّعَ تَقْوَى اللهِ فَقَدْ ضَيَّعَ نَفْسَهُ وَاللهُ غَنِيٌّ عَنْهُ وَلَنْ يَضُرَّ إِلَّا نَفْسَهُ وَاللهُ بِالْمِرْصَادِ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ . وَمِنْ عَجِيبِ حِفْظِ اللهِ لِمَنْ حَفِظَهُ أَنْ يَجْعَلَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُؤْذِيَةَ بِالطَّبْعِ

حافظة له من الأذى كما جرى لسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كسر به المركب وخرج إلى جزيرة فرأى الأسد فجعل يمشى معه حتى دله على الطريق فلما أوقفه عليها جعل يهمهم كأنه يودعه ثم رجع وروى إبراهيم بن أدهم أنه كان نائما فى بستان وعنده حية فى فمها طاقة ريحان فما زالت تذب عنه حتى استيقظ.

ومن باشر المعاصى وأصر على ذلك وصانع فى الظاهر تبين عند الاحتضار ما جناه من الخسار وعلم من بكى ممن تباكى فكم من حسرة تحت التراب وكم من فضحات يوم الحساب. وقد قال تعالى (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد) الآية. قال بعض السلف ليس الذم راجع إلى مكان الدنيا الذى هو الأرض التى جعلها الله لبنى آدم مهادا ومسكنا ولا إلى ما أودع فيها من الجبال والبحار والأنهار والمعادن ولا إلى

مَا نَبَتَ فِيهَا مِنَ الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَإِنَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ لِمَا لَهُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالاعْتِبَارِ وَالاسْتِدْلَالِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ صَانِعِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَإِنَّمَا الذَّمُّ رَاجِعٌ إِلَى أَفْعَالِ بَنِي آدَمَ الْوَاقِعَةِ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّ غَالِبَهَا وَقَعَ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي يُحْمَدُ .

(فَصْلٌ) وَانْقَسَمَ بَنُو آدَمَ فِي الدُّنْيَا إِلَى قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ لِلْعِبَادِ دَارٌ بَعْدَ الدُّنْيَا لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَهٰؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وَهٰؤُلَاءِ هِمَّتُهُمُ التَّمَتُّعُ فِي الدُّنْيَا وَاغْتِنَامُ لَذَّاتِهَا قَبْلَ الْمَوْتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ

قَالَ (خَيْرُ أُمَّتِى الَّذِينَ لَمْ يعطَوْا حَتَّى يبطَرُوا وَلَمْ يقترُوا حَتَّى يَسْأَلُوا)

وَرُوِىَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ فِى قَوْلِهِ تَعَالَى (مَالِهٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)، قَالَ الصَّغِيرَةُ الضَّحِكُ.

وَقَالَ عُمَرُ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ: مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ. وَقِيلَ فِى مَنْثُورِ الْحِكَمِ ضَحِكَةُ الْمُؤْمِنِ غَفْلَةٌ مِنْ قَلْبِهِ: إِنْ تَغَافَلَ عَنْهُ نَفَرَ عَنْهُ وَإِلَّا غَلَبَ عَلَيْهِ، وَلِهٰذَا تَفَاوَتَ النَّاسُ فِى الْعُقُولِ وَالْجُسُومِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ مَا وَهَبَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُمْ مِنَ الْعُقُولِ، وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ يَدُلَّانِ عَلَى مَا خُلِقَا لَهُ وَلٰكِنْ لَا بُدَّ لَهُمَا مِنْ آفَاتٍ تَعُوقُهُمَا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعُوقُهُ جَهْلُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُوقُهُ وِزَارَتُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُوقُهُ عِلْمُهُ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ لِغَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ أَوْ مَرَضٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْقَلْبِيَّةِ أَوْ طَلَبِ جَاهٍ أَوْ رِيَاسَةٍ أَوْ هَوًى يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَمِنْهُمْ مَنْ يَصُدُّهُ طَلَبُ الْمَالِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَصُدُّهُ مُدَارَاتُ الْخَلْقِ

(فَصْلٌ) وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : إِنَّ عَلَيْكَ فِى عِلْمِكَ حَقًّا كَمَا أَنَّ عَلَيْكَ فِى مَالِكَ حَقًّا وَعَلَيْكَ فِى جَاهِكَ حَقًّا لِمَنْ لَا جَاهَ لَهُ وَفِى بَصَرِكَ حَقًّا لِمَنْ لَا بَصَرَ لَهُ وَفِى قُوَّتِكَ حَقًّا لِمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ . وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ سُئِلَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ فَقَالَ (تَقْوَى اللّٰهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ) وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ (الْفَمُ وَالْفَرْجُ) رَوَاهُ التِّرْمِذِىُّ وَقِيلَ لِبَعْضِ الزُّهَّادِ مَا أَبْلَغُ الْعِظَاتِ قَالَ : النَّظَرُ إِلَى الْأَمْوَاتِ . وَكَانَ بَعْضُهُمْ إِذَا وَجَدَ فِى قَلْبِهِ قَسَاوَةً يَذْهَبُ إِلَى الْمَقَابِرِ فَيَرَى الْمَوْتَى وَقَدْ هَجَعُوا فَيَرْجِعُ وَقَدْ رَقَّ قَلْبُهُ . وَرُوِىَ عَنْهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (ثَلَاثٌ لَيْسَ عَلَى ابْنِ آدَمَ فِيهَا حِسَابٌ ثَوْبٌ يُوَارِى عَوْرَتَهُ وَطَعَامٌ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَبَيْتٌ يَسْكُنُهُ فَمَا فَوْقَ ذٰلِكَ فَعَلَيْهِ حِسَابُهُ)

(فَصْلٌ) وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ : يَا أَبَتِ مَا يَمْنَعُكَ

أَنْ تَمْضِيَ فِيمَا تَأْمُرُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ قَالَ: يَا بُنَيَّ مَا كُنْتُ أُبَالِي وَلَوْ غَلَتْ بِي وَبِكَ الْقُدُورُ وَقَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرُوضُ النَّاسَ رِيَاضَةَ الصَّعْبِ إِنِّي أُرِيدُ لأُحْيِيَ الأَمْرَ مِنَ الْعَدْلِ فَأُؤَخِّرُهُ حَتَّى أُخْرِجَ طَمَعًا مِنْ طَمَعِ الدُّنْيَا فَيَنْفِرُوا مِنْ هَذَا وَيَسْكُنُوا لِهَذَا وَقَدْ غَلَبَ الْهَوَى عَلَى الْخَلْقِ فَصَارَ صَادًّا لَهُمْ عَنِ الْحَقِّ فَآثَرُوا الْعَاجِلَ عَلَى الآجِلِ وَبَاعُوا النَّفِيسَ بِالْعَرَضِ الْخَسِيسِ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. وَقَالَ الْفُضَيْلُ ابْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ: كَيْفَ يَفْرَحُ بِالدُّنْيَا مَنْ يَوْمُهُ يَهْدِمُ شَهْرَهُ وَشَهْرُهُ يَهْدِمُ سَنَتَهُ وَسَنَتُهُ تَهْدِمُ عُمْرَهُ كَيْفَ يَفْرَحُ بِالدُّنْيَا مَنْ عُمْرُهُ يَقُودُهُ إِلَى أَجَلِهِ وَحَيَاتُهُ تَقُودُهُ إِلَى مَوْتِهِ. وَرُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (ثَلَاثٌ مَنْ أُعْطِيَهَا فَقَدْ تَمَّتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ بَيْتٌ يُؤْوِيهِ وَزَوْجَةٌ تُرْضِيهِ وَخَادِمٌ يَكْفِيهِ) وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ رَحِمَهُ اللهُ لأَصْحَابِهِ: أَتَدْرُونَ مَا الدَّاءُ وَمَا الدَّوَاءُ وَمَا الشِّفَاءُ قَالُوا لَا قَالَ الدَّاءُ الذُّنُوبُ

وَالدَّوَاءُ الاسْتغفارُ وَالشِّفاءُ أَنْ تتوبَ فَلَا تعودَ. وَقَالَ أَيضًا: النَّاسُ رَجُلَانِ إِمَّا مؤمنٌ وَإِمَّا جاهلٌ فَأَمَّا المؤمنُ فَلَا تؤذِيهِ وَأَمَّا الجَاهِلُ فَلَا تُجاهلهُ. وَقِيلَ له أَيضًا وَقَدْ أَصابه فَالِجٌ لَوْ تداويتَ قَالَ قَدْ أَرَدْتُ ثُمَّ ذَكَرْتُ عَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا قَدْ كَانَ لَهُمْ أَطِبَّاءُ وَمُدَاوُونَ فَلَمْ يَبقَ مُدَاوٍ وَلَا مُتَدَاوٍ. وَقَالَتْ له ابْنَتُهُ يَا أَبَتِ أَذْهَبُ أَلْعَبُ فَقَالَ لَا فَقَالَ القَوْمُ يَا أَبَا يَزِيدَ ائْذَنْ لَهَا تَلْعَبُ قَالَ: لَا يُوجَدُ فِي صَحِيفَتِي أَنِّي قُلْتُ اذْهَبِي الْعَبِي وَلَكِنِ اذْهَبِي فَقُولِي خَيْرًا أَوِ افْعَلِي خَيْرًا. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ نَقْلًا عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: مَنْ لَمْ يَتَعَزَّ بِعَزَاءِ اللهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ حَسَرَاتٍ وَمَنْ يَتْبَعْ بَصَرَهُ فِي مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يَطُلْ حُزْنُهُ وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَلْبَسِهِ فَقَدْ قَلَّ عَمَلُهُ وَحَضَرَ عَذَابُهُ.

(فَصْلٌ) وَمَهْمَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْأَسْقَامِ

وَالأَحْزَانِ وَالآلامِ وَالهُمُومِ فَإِنَّهُ يُكَفِّرُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ . وَفَرَضَهُ فِيهَا الصَّبْرُ وَالاسْتِعَانَةُ بِالطَّاعَةِ قَالَ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلوةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) وَالوُضُوءُ مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ وَقَدْ يُطْفَأُ بِهِ حَرَارَةُ القَلْبِ النَّاشِئَةُ عَنْ أَلَمِ المَصَائِبِ كَمَا يُؤْمَرُ مَنْ غَضِبَ بِإِطْفَاءِ غَضَبِهِ بِالوُضُوءِ وَفُسِّرَتِ الكَرِيهَاتُ بِالبَرْدِ الشَّدِيدِ وَيَشْهَدُ لَهُ مَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ مِنْ حَدِيثِ مُعَاذٍ : إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى السَّبَرَاتِ وَالسَّبْرَةُ شِدَّةُ البَرْدِ وَكُلُّهَا تُصِيبُ المُؤْمِنَ وَهِيَ كَفَّارَةٌ لَهُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَلَمَّا انْكَسَرَ ظُفْرُ بَعْضِ الصَّالِحَاتِ مِنَ السَّلَفِ مِنْ عَثْرَةٍ عَثَرَتْهَا ضَحِكَتْ فَقِيلَ لَهَا فِي ذٰلِكَ فَقَالَتْ أَنْسَانِي حَلَاوَةُ ثَوَابِهِ مَرَارَةَ وَجَعِهِ . وَرُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُرْفَعُ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ الأَمَانَةُ وَالخُشُوعُ حَتَّى لَا تَكَادُ تَرَى خَاشِعًا وَذٰلِكَ لِغَفْلَتِهِمْ وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا وَمَلْذُونَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمُ الفَانِيَةِ ضِدُّ مَا كَانَ

عَلَيه سَلَفُ هـذه الأُمَّة من الزُّهد فى الدُّنيا والرَّغْبَة فى الآخرة قيلَ لبَعْضِهِمْ ألا تجلس معنا فقال إنَّ ذكر المَوْت إذا فارق قلبي ساعة فسد على قلبي وعن بكر بن سوادة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال (سيكون أناسٌ من أُمَّتي يولدون فى النَّعيم ويغذون به همتهم ألوانُ الطَّعام وألوانُ الشَّراب وألوانُ الثِّياب يتشدَّقون بالقول أُولئك شرار أُمَّتى) وقال ابن يزيد سمعت بلال بن مسعد يقول يا أهل الخلود ويا أهل البقاء إنَّكم لم تخلقوا للفنى وإنَّما تنقلون من دار إلى دار كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ومن الأرحام إلى الدُّنيا ومن الدُّنيا إلى القبور ومن القبور إلى الموقف ومن الموقف إلى الخلود وقد قال عبدالله بن قسيط أُوتى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم بسويق من سويق اللَّوز فلمَّا خيض قال ما هذا قالوا سويق اللَّوز قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم (أخروه عنِّى هذا شرابُ المترفين)

وَلَمَّا بعث مُعَاذًا إلى اليَمَن قَالَ لَهُ (وَإِيَّاكَ وَالتَنَعُّمُ فَإِنَّ عِبَادَ الله لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ) وَقَالَ بَعْضُهُمْ سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: إِنَّ الْمَوْتَ فَضَحَ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتْرُكْ لِذِى لُبٍّ بِهَا فَرَحًا وَقَالَ أَيْضًا : إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُصْبِحُ حَزِينًا وَيُمْسِى حَزِينًا وَيَنْقَلِبُ بِالْيَقِينِ فِى الْحُزْنِ يَكْفِيهِ مَا يَكْفِى الْعُنَيْزَةَ.الْكَفُّ مِنَ التَّمْرِ وَالشَّرْبَةُ مِنَ الْمَاءِ وَدَعَى قَوْمٌ مِنَ السَّلَفِ رَجُلًا كَانَ يُجَالِسُهُمْ وَيُضَاحِكُهُمْ فَقَالَ إِنِّى دَخَلْتُ اللَّيْلَةَ الْأَرْبَعِينَ فَأَنَا أَسْتَحِى مِنَ اللهِ أَنْ أَكُونَ عَلَى حَالِى الْأُولَى مِنَ الْجَفَاءِ وَعَدَمِ الْقِيَامِ بِمَا خُلِقْتُ لَهُ وَفِى الْحَدِيثِ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (إِنَّ مِنْ أُمَّتِى مَنْ لَوْ أَتَى بَابَ أَحَدِكُمْ فَسَأَلَهُ دِينَارًا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ دِرْهَمًا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ فَلْسًا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَ اللهَ الْجَنَّةَ لَأَعْطَاهَا إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ الدُّنْيَا لَمْ يُعْطِهَا إِيَّاهُ وَمَا يَمْنَعُهُ إِيَّاهَا لِهَوَانِهِ عَلَيْهِ: ذُو طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ يُقْسِمُ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ)

(فَصْلٌ) وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيّ تَأَمَّلْتُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ فَوَجَدْتُ حَوَادِثَ الدُّنْيَا حِسِّيَّةً طَبِيعِيَّةً وَحَوَادِثَ الآخِرَةِ إِيمَانِيَّةً يَقِينِيَّةً وَالْحِسِّيَّاتُ أَقْوَى جَذْبًا لِمَنْ لَمْ يَقْوَ عِلْمُهُ وَيَقِينُهُ فَمُخَالَطَةُ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا تُقَوِّي حَوَادِثَ الدُّنْيَا وَتُنْسِي حَوَادِثَ الآخِرَةِ وَالْعُزْلَةُ وَالتَّفَكُّرُ وَالنَّظَرُ فِي الْعِلْمِ يُقَوِّي حَوَادِثَ الآخِرَةِ وَعَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) قَالَ كَانَ يُونُسُ طَوِيلَ الصَّلَاةِ فِي الرَّخَاءِ وَإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ إِذَا عَثَرَ وَإِذَا صُرِعَ وَجَدَ مُتَّكَئًا وَقَالَ كَعْبٌ: قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَنَّ مَنْ مَاتَ تَائِبًا مِنَ الْغِيبَةِ كَانَ آخِرَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ. وَمَنْ مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا كَانَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَنِ الْجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ إِبْلِيسَ فِي الْمَنَامِ وَكَأَنَّهُ عُرْيَانٌ فَقُلْتُ أَلَا تَسْتَحِي مِنَ النَّاسِ فَقَالَ وَهُوَ لَا يَظُنُّهُمْ نَاسٌ لَوْ كَانُوا نَاسًا مَا كُنْتُ أَلْعَبُ بِهِمْ كَمَا يَلْعَبُ

الصِّبْيَانُ بِالْكُرَةِ . إِنَّمَا النَّاسُ جَمَاعَةٌ غَيْرَ هَؤُلَاءِ. فَقُلْتُ أَيْنَ هُمْ فَقَالَ فِى مَسْجِدِ الشُّونِيزِى قَدْ أَضْنَوْا قَلْبِى وَأَتْعَبُوا جَسَدِى كُلَّمَا هَمَمْتُ بِهِمْ أَشَارُوا إِلَى اللهِ فَأَكَادُ أَحْتَرِقُ قَالَ فَلَمَّا انْتَبَهْتُ لَبِسْتُ ثِيَابِى وَرُحْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ الَّذِى ذَكَرَهُ فَاذَا فِيهِ ثَلَاثَةٌ جُلُوسٌ وَرُؤُسُهُمْ فِى مُرَقَّعَاتِهِمْ فَرَفَعَ أَحَدُهُمْ رَأْسَهُ إِلَىَّ وَقَالَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ لَا تَغْتَرَّ بِحَدِيثِ الْخَبِيثِ وَأَنْتَ كُلَّمَا قِيلَ لَكَ شَىْءٌ تَقْبَلُ فَاذَا هُمْ أَبُو بَكْرٍ الدَّقَّاقُ وَأَبُو الْحَسَنِ الثَّوْرِىُّ وَأَبُو حَمْزَةَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِىٍّ الْجُرْجَانِىُّ وَهَذَا مِمَّا يُطْلِعُ اللهُ عَلَيْهِ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا يَشْعُرُ هَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِى تَجْرِى عَلَى يَدِ أَوْلِيَاءِهِ وَأَهْلِ مَحَبَّتِهِ فَاشْتَرِ نَفْسَكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ فَانَّ السُّوقَ قَائِمَةٌ وَالثَّمَنَ مَوْجُودٌ وَالْبَضَائِعَ رَخِيصَةٌ وَسَيَأْتِى عَلَى تِلْكَ السُّوقِ وَالْبَضَائِعِ يَوْمٌ لَا تَصِلُ فِيهَا إِلَى قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ : يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا تَاللهِ مَا كَانَتِ الْأَيَّامُ إِلَّا

مَنَامًا وَمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا أَحْلَامٌ وَمَا بَقِيَ مِنْهَا أَمَانِي وَالْوَقْتُ ضَائِعٌ بَيْنَهُمَا فَكَيْفَ يَسْلَمُ مَنْ لَهُ زَوْجَةٌ لَا تَرْحَمُهُ وَوَلَدٌ لَا يَعْذُرُهُ وَجَارٌ لَا يَأْمَنُهُ وَصَاحِبٌ لَا يَنْصَحُهُ وَشَرِيكٌ لَا يُنْصِفُهُ وَعَدُوٌّ لَا يَنَامُ عَنْ مُعَادَاتِهِ وَنَفْسٌ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ وَدُنْيَا مُتَزَيِّنَةٌ وَهَوًى أَمْرَدُ وَشَهْوَةٌ غَالِبَةٌ وَغَضَبٌ قَاهِرٌ وَشَيْطَانٌ مُزَيِّنٌ فَانْ تَوَلَّاهُ اللهُ وَجَذَبَهُ إِلَيْهِ انْقَهَرَتْ لَهُ هَذِهِ كُلُّهَا وَإِنْ تَخَلَّى عَنْهُ وَوَكَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ فَكَانَتِ الْهَلَكَةُ فَاسْتَيْقِظْ مِنْ سِنَتِكَ فَانَّ الْمَوْتَ فِي طَلَبِكَ فَقَدِ اسْتَعَدَّ لَكَ وَجَدَّ وَلَا تَغْفَلْ فَانَّ الْعَاقِلَ مَنِ اسْتَعَدَّ وَجَدَّ وَخَفْ مِنَ الْفَوَاتِ فَانَّ الْمَوْتَ مُلْحِقُكَ بِالْأَبِ وَالْجَدِّ وَتَأَهَّبْ لِلْجَوَابِ قَبْلَ الْحِسَابِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَلْبَ يَمْرَضُ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يَمْرَضُ الْبَدَنُ مِنَ التَّخْلِيطِ فَالْمُتَّقُونَ يَسْتَعْمِلُونَ الْحِمْيَةَ بِالتَّقْوَى قَبْلَ الْوُقُوعِ فِي الْمَرَضِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَزِلُّ قَدَمُهُ بِزَلَّةٍ فَيَنْتَبِهُ لَهَا فَيَرْفَعُ الْخَلَلَ بِالْاسْتِغْفَارِ وَمِنْهُمْ مَنْ

يَتَوَانَى فِى الْاِصْلَاحِ فَيَعْظُمُ فَسَادُ الْقَلْبِ فَيَقْسُو وَيَظْلِمُ وَيَصْدَأُ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَشُدُّ الْقَلْبَ حَتَّى يَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ وَإِنَّهُ لَيُلَيِّنُ الْقَلْبَ حَتَّى يَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللِّينِ) ابْنَ آدَمَ يَا مَنْ شَابَ وَمَا تَابَ اعْتَبِرْ بِأَهْلِكَ وَذَوِيكَ أَمَا وَالنُّذُرُ تُرَاوِحُكَ وَتُغَادِيكَ سَتَفْعَلُ الدُّنْيَا بِكَ كَمَا فَعَلَتْ بِوَالِدَتِكَ وَأَبِيكَ وَازْهَدْ فِيهَا قَبْلَ أَنْ تَزْهَدَ فِيكَ .

(فَصْلٌ) وَاعْلَمْ أَنَّ الزُّهْدَ فِى الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ وَيُرَغِّبُ فِى الآخِرَةِ وَرَوَى الدَّارَقُطْنِىُّ فِى الْافْرَادِ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ عَاهَةً نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْمَسَاجِدِ فَصَرَفَهَا عَنْهُمْ وَفِى حَدِيثٍ آخَرَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يَقُولُ اللهُ وَعِزَّتِى وَجَلَالِى إِنِّى لَأَهُمُّ بِأَهْلِ الْأَرْضِ عَذَابًا فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى عُمَّارِ بُيُوتِى وَإِلَى الْمُتَحَابِّينَ فِىَّ وَإِلَى الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ صَرَفْتُ ذَلِكَ عَنْهُمْ) وَرَوَى الْاِمَامُ أَحْمَدُ

عَنْ مَعَاذ بنِ جَبَل أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ (إِنَّ الشَّيْطَانَ ذئبُ الإنْسَانِ كَذئبِ الغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ القَاصيَةَ وَالنَّاحيَةَ فَإيَّاكُمْ وَالشّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ وَالعَامَّةِ وَالمَسَاجِدِ) وَقَالَ بن مَيْمُون الَّذِى أَدْرَكْتُ عَلَيْه أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ المَسَاجِدَ بيوتُ اللهِ فى الأَرْضِ وإنّه حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يُكْرِمَ مَنْ زَارَهُ فَالمُتَقَدّمُ إلى طَاعَةِ اللهِ رَاغِبٌ فى مَرْضَاته هُوَ الزَّاهِدُ فى ضدّه مِنَ الدُّنْيَا وَلَهْوِهَا الزَّائلَةِ عَنْ قَرِيبٍ فَانَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً كَرِهَ ضدّهُ وَقَالَ ابنُ عَبَّاس عِنْدَ قَوْله تَعَالَى (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا) أَىْ تَحَرَّكَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا وَأَخْرَجَتْ مَا فى جَوْفِهَا مِنَ الأَمْوَاتِ وَالدَّفَائِنِ وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يَوْمَئذٍ تُحَدّثُ أَخْبَارَهَا) قَالَ أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ

تشهد على كل عبد وأمة بكل عمل على ظهرها) وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (تحفظوا من الأرض فإنها أمكم وإنه ليس من أحد عمل عليها خيرا أو شرا إلا وهي مخبرة به) أخرجه الطبراني وأتى عبد الله بن عمر على عبد الله بن مسعود فقال يا أبا عبد الرحمن ما الصراط المستقيم قال تركنا محمد صلى الله عليه وسلم في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد وعليها رجال يدعون من مر بهم هلم لك هلم لك فمن أخذ بهم في تلك الطرق انتهت به إلى النار ومن استقام على الطريق الأعظم انتهى به إلى الجنة ثم تلى بن مسعود (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال أيضا عبد الله بن مسعود ليس عام إلا والذي بعده شر منه لا أقول عام أمطر من عام ولا عام أخصب من عام ولا أمير أخير من أمير لكن ذهاب علمائكم وخياركم ثم يحدث قوم

يقيسون الأمور بآرائهم فيهدم الاسلام ويثلم . وقال أبو إدريس الخولانى قلت يا رسول الله هل بعد هذا الخير شر قال (نعم قوم يستنون بغير سنتى ويهتدون بغير هديى فقلت فهل بعد ذلك الخير من شر قال نعم دعاة على ابواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت يا رسول الله صفهم لنا قال هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا قلت فما تأمرنى إن أدركت ذلك قال تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت فان لم يكن لهم إمام ولا جماعة قال تعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت كذلك) وعن أبى مسعود قال كيف أنتم إذ لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير وينشأ فيها الصغير تجرى على الناس يتخذونها سنة إذا غيرت قيل هذا منكر وفى بعض الروايات إذا غيرت قيل غير سنة وقال حذيفة رضى الله عنه أخوف ما أخاف على الناس اثنتان أن يؤثروا ما يرون

عَلَى مَا يَعْلَمُونَ وَأَنْ يَضِلُّوا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ قَالَ سُفْيَانُ هُوَ صَاحِبُ الْبِدْعَةِ قُلْتُ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذٰلِكَ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ: الْخَيْرُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ يَنْقُصُ وَالشَّرُّ يَزْدَادُ وَقَالَ أَيْضًا إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدَىْ قُرَّائِهِمْ وَفُقَهَائِهِمْ وَسَتَهْلِكُ هٰذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى يَدَىْ قُرَّائِهِمْ وَفُقَهَائِهِمْ وَعَنْ أَنَسٍ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ الْفُقَهَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ مَا لَمْ يَدْخُلُوا فِى الدُّنْيَا وَيَتَّبِعُوا السُّلْطَانَ فَإِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ فَاحْذَرُوهُمْ وَعَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللّٰهُ قَالَ: أَدْرَكْتُ عَشَرَةَ آلَافٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِىِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ رَأَوْكُمْ لَقَالُوا مَا هٰؤُلَاءِ إِلَّا مَجَانِينَ وَلَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ لَقُلْتُمْ هٰؤُلَاءِ مَجَانِينَ وَلَوْ رَأَوْا خِيَارَكُمْ لَقَالُوا مَا يُؤْمِنُ هٰؤُلَاءِ بِيَوْمِ الْحِسَابِ وَلَوْ رَأَوْا شِرَارَكُمْ لَقَالُوا مَا لِهٰؤُلَاءِ عِنْدَ اللّٰهِ مِنْ خَلَاقٍ.

وَقَالَ يُقَالُ تَخْرُجُ الْفِتَنُ مِنْ عِنْدِ أَصْحَابِ الْكُتُبِ وَإِلَيْهِمْ تَعُودُ. قَالَ ابْنُ وَضَّاحٍ وَيُقَالُ وَيَبْعَثُ اللّٰهُ رِيحًا حَمْرَاءَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَفِرُّ

النَّاسُ إِلَى مَسَاجِدِهِمْ وَإِلَى عُلَمَائِهِمْ فَيَجِدُونَهُمْ قَدْ مُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ.

(فَصْلٌ) وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: تَكُونُ فِتْنَةٌ يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ وَيُفْتَحُ الْقُرْآنُ حَتَّى يَقْرَأَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ وَالرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ فَيَقْرَأُهُ الرَّجُلُ فَلَا يُتَّبَعُ فَيَقُولُ مَا أُتَّبَعُ فَوَاللهِ لَأَقْرَأَنَّهُ عَلَانِيَةً فَيَقْرَأُهُ عَلَانِيَةً فَلَا يُتَّبَعُ فَيَتَّخِذُ مَسْجِدًا وَيَبْتَدِعُ كَلَامًا لَيْسَ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَلَا مِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُ فَإِنَّهَا بِدْعَةُ ضَلَالَةٍ يَقُولُهَا ثَلَاثًا وَعَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَقَ شُبَّانُكُمْ وَطَغَتْ نِسَائُكُمْ وَكَثُرَ جُهَّالُكُمْ قَالُوا وَإِنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ: كَيْفَ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قَالُوا وَإِنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ: كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَرَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا) عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ مُحَمَّدٍ

ابْن عَلِيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ (وَيْحٌ لِهٰذه الأُمَّةِ، مَاذَا يَلْقَى فِيهَا مَنْ أَطَاعَ اللهَ كَيْفَ يُكَذّبُونَه وَيَضْرِبُونَه إِنْ هُوَ أَطَاعَ اللهَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ أَطَاعُوا اللهَ حَيْثُ حَسَّنُوا الظَّنَّ بِأَنْفُسِهِمْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَا رَسُولَ اللهِ النَّاسُ يَوْمَئذ عَلَى الاسْلَامِ قَالَ نَعَمْ يَا عُمَرُ قَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللهِ وَلِمَ يُبْغِضُونَ مَنْ أَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ اللهِ فَقَالَ يَا عُمَرُ تَرَكَ الْقَوْمُ الطَّرِيقَ فَرَكِبُوا الدَّوَابَّ وَلَبِسُوا لَيِّنَ الثِّيَابِ وَخَدَمَهُمْ أَبْنَاءُ فَارِس وَتَزَيَّنَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ بِزِينَةِ الْمَرْأَةِ لِزَوْجِهَا وَتَبَرَّجَ النِّسَاءُ، زِيُّهُمْ زِيُّ الْمُلُوكِ الْجَبَابِرَةِ يَتَسَمَّنُونَ كَالنِّسَاءِ، فَاذَا تَكَلَّمَ أَوْلِيَاءُ اللهِ وَأَمَرُوهُمْ بِطَاعَةِ اللهِ قِيلَ لَهُ أَنْتَ قَرِينُ الشَّيْطَانِ وَرَأْسُ الضَّلَالَةِ تُكَذِّبُ بِالْكُتُبِ. تُحَرِّمُ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ تَأَوَّلُوا كِتَابَ اللهِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِه وَاسْتَذَلُّوا بِه أَوْلِيَائَه) وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَوْ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ إِلَيْكُمْ الْيَوْمَ

مَا عَرَفَ شَيْئًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ إِلَّا الصَّلَاةَ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: فَكَيْفَ لَوْ كَانَ الْيَوْمَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ كَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ الْأَوْزَاعِيُّ هٰذَا الزَّمَانَ وَقَالَ الْحَسَنُ لَوْ أَنَّ بَعْضَ مَنْ مَضَى انْتَشَرَ حَتَّى يُعَايِنَ خِيَارَكُمْ الْيَوْمَ لَقَالَ مَا لِهٰؤُلَاءِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ حَاجَةٍ وَلَوْ رَأَى شِرَارَكُمْ لَقَالَ مَا يُؤْمِنُ هٰؤُلَاءِ بِيَوْمِ الْحِسَابِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا مِنْ عَامٍ إِلَّا وَالنَّاسُ يُحْيُونَ فِيهِ بِدْعَةً وَيُمِيتُونَ فِيهِ سُنَّةً حَتَّى تَحْيَى الْبِدَعُ وَتَمُوتَ السُّنَنُ. وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ أَعْلَمُ أَنِّي أَرَى الْمَوْتَ الْيَوْمَ كَرَامَةً لِكُلِّ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللّٰهَ عَلَى السُّنَّةِ فَإِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فَإِلَى اللّٰهِ نَشْكُو وَحْشَتَنَا وَذَهَابَ الْإِخْوَانِ وَقِلَّةَ الْأَعْوَانِ وَظُهُورَ الْبِدَعِ. وَعَنْ عَبْدِ اللّٰهِ قَالَ إِذَا الْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ ظَهَرَتِ الْبِدَعُ.

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ تُعْرَفُوا بِهِ وَاعْمَلُوا بِهِ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ فَإِنَّهُ سَيَأْتِي مِنْ بَعْدِكُمْ زَمَانٌ يُنْكَرُ الْحَقُّ تِسْعَةَ

أَعْشَارِهِمْ لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ . قَالَ وَكِيعٌ يَعْنِي مُغَفَّلًا

أُولَئِكَ أَئِمَّةُ الْهُدَى وَمَصَابِيحُ الْعِلْمِ لَيْسُوا بِالْعُجُلِ الْمَذَايِيعِ الْبُذَاةِ .

قِيلَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا النُّوَمَةُ قَالَ الرَّجُلُ يَسْكُتُ فِي الْفِتْنَةِ فَلَا

يَبْدُو مِنْهُ شَيْءٌ وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّهُ قَالَ إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ مَعْرُوفُهُ

مُنْكَرٌ . زَمَانٌ قَدْ مَضَى وَمُنْكَرُهُ مَعْرُوفٌ زَمَانٌ لَمْ يَأْتِ . وَقَالَ بْنُ

وَضَّاحٍ قَالَ أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ قُدَامَةَ عَنْ أَبِي حَمْضَةَ قَالَ . قَالَ لِي أَبُو هُرَيْرَةَ

كَيْفَ بِكَ إِذَا كُنْتَ فِي زَمَانٍ لَا يُنْكِرُ خِيَارُهُمُ الْمُنْكَرَ قُلْتُ سُبْحَانَ

اللهِ مَا أُولَئِكَ بِخِيَارٍ قَالَ بَلَى وَلَكِنَّ أَحَدَهُمْ يَخَافُ أَنْ يُشْتَمَ عِرْضُهُ

وَأَنْ يُضْرَبَ بَشَرُهُ . وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ثَلَاثًا.قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنِ

الْغُرَبَاءُ قَالَ : نَاسٌ قَلِيلٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ مَنْ يُبْغِضُهُمْ

أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ ثُمَّ تَطْلُعُ الشَّمْسُ .فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَأْتِي

أُنَاسٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وُجُوهُهُمْ مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ فَسَأَلَ أَبُو بَكْرٍ نَحْنُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ لَا وَلَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ وَلَكِنَّهُمْ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَتَّقِي بِهِمُ الْمَكَارِهَ يَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ قِيلَ وَمَنِ الْغُرَبَاءُ قَالَ النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ) وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ فَقِيلَ وَمَنِ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ) وَعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيَّ يَقُولُ سَمِعْتُ أَنَّ لِلْإِسْلَامِ عُرًى يَتَعَلَّقُ النَّاسُ بِهَا وَإِنَّمَا يَمْتَلِخُ عُرْوَةً عُرْوَةً فَأَوَّلُ مَا يَمْتَلِخُ مِنْهَا الْحِلْمُ وَآخِرُ مَا يَمْتَلِخُ مِنْهُ الصَّلَاةُ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ تَذْهَبُ السُّنَّةُ سُنَّةً سُنَّةً كَمَا يَذْهَبُ الْحَبْلُ قُوَّةً قُوَّةً وَآخِرُ

الدِّينِ الصَّلَاةُ وَلَيُصَلِّيَنَّ أَقْوَامٌ وَلَا خَلَاقَ لَهُمْ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ عَنْ
أَبِي سُهَيْلِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ مَا أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا أَدْرَكْتُ عَلَيْهِ
النَّاسَ إِلَّا النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَدْرَكَ السَّلَفَ
الْأَوَّلَ ثُمَّ بُعِثَ الْيَوْمَ مَا عَرَفَ مِنَ الْإِسْلَامِ شَيْئًا قَالَ وَوَضَعَ يَدَهُ
عَلَى خَدِّهِ ثُمَّ قَالَ إِلَّا هٰذِهِ الصَّلَاةَ ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللّٰهِ لَئِنْ عَاشَ فِي هٰذَا
الْمُنْكَرِ وَلَمْ يُدْرِكْ هٰذَا السَّلَفَ الصَّالِحَ فَرَأَى مُبْتَدِعًا يَدْعُو إِلَى بِدْعَتِهِ
وَرَأَى صَاحِبَ دُنْيَا يَدْعُو إِلَى دُنْيَاهُ فَعَصَمَهُ اللّٰهُ عَنْ ذٰلِكَ وَجَعَلَ قَلْبَهُ
يَحِنُّ إِلَى ذٰلِكَ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَسْأَلُ عَنْ سَبِيلِهِمْ وَيَقْتَصُّ آثَارَهُمْ وَيَتَّبِعُ
سَبِيلَهُمْ لِيُعَوَّضَ أَجْرًا عَظِيمًا فَكُونُوا كَذٰلِكَ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ وَعَنْ مَيْمُونِ
بْنِ مِهْرَانَ قَالَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا نُشِرَ فِيكُمْ مِنَ السَّلَفِ مَا عَرَفَ فِيكُمْ
غَيْرَ هٰذِهِ الْقِبْلَةِ. وَقَالَتْ أُمُّ الدَّرْدَاءِ دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَهُوَ
غَضْبَانُ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَغْضَبَكَ فَقَالَ وَاللّٰهِ مَا أَعْرِفُ فِيهِمْ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ

شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُمْ يُصَلُّونَ جَمِيعًا قَالَ وَبَلَغَنِى أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا) ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّ النَّاسَ لَيَخْرُجُونَ الْيَوْمَ مِنْ دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا كَمَا دَخَلُوا فِيهِ أَفْوَاجًا وَعَنْ الْحَسَنِ يَرْفَعُهُ قَالَ إِنَّكُمُ الْيَوْمَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُجَاهِدُونَ فِى اللهِ وَلَمْ تَظْهَرْ فِيكُمُ السَّكْرَتَانِ سَكْرَةُ الْجَهْلِ وَسَكْرَةُ حُبِّ الْعَيْشِ وَسَتَحَوَّلُونَ عَنْ ذَٰلِكَ فَلَا تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَا تُجَاهِدُونَ فِى اللهِ وَتَظْهَرُ فِيكُمُ السَّكْرَتَانِ فَالْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ قِيلَ مِنْهُمْ قَالَ بَلْ مِنْكُمْ وَعَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (سَيَنْقَضُ الْإِسْلَامُ فَالْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِدِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ أَوْ خَبَطَ الشَّوْكِ) وَعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ لَتَنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً حَتَّى لَا يَقُولُ عَبْدٌ مَهْ مَهْ وَلَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ الْأُمَمِ

قَبْلَكُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ لَا تُخْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ وَلَا يُخْطِئُكُمْ طَرِيقُهُمْ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ أُمَّةٌ يَأْكُلُونَ الْعَذِيرَةَ رَطْبَةً أَوْ يَابِسَةً لَأَكَلْتُمُوهَا وَسَتَفْضُلُونَهُمْ بِثَلَاثِ خِصَالٍ لَمْ تَكُنْ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ نَبْشِ الْقُبُورِ وَسَمْنَةِ النِّسَاءِ تُسْمَنُ الْجَارِيَةُ حَتَّى تَمُوتَ شَحْمًا وَحَتَّى يَكْتَفِيَ الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ دُونَ الرِّجَالِ وَايْمُ اللهِ إِنَّهَا لَكَائِنَةٌ وَلَوْ قَدْ كَانَتْ خُسِفَ بِهِمْ وَرُجِمُوا كَمَا فُعِلَ بِقَوْمِ لُوطٍ وَاللهِ مَا هُوَ بِالرَّأْيِ وَلٰكِنَّهُ الْحَقُّ الْيَقِينُ .

(فَصْلٌ) وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ أَدْرَكْتُ النَّاسَ وَهُمْ يَعْمَلُونَ وَلَا يَقُولُونَ فَهُمُ الْيَوْمَ يَقُولُونَ وَلَا يَعْمَلُونَ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى يُتْرَكُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ (إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قِيلَ وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ إِذَا ظَهَرَ الِادِّهَانُ فِي خِيَارِكُمْ وَالْفَاحِشَةُ فِي شِرَارِكُمْ وَتَحَوَّلَ الْمُلْكُ

فِي صِغَارِكُمْ وَالْفِقْهُ فِي أَرَاذِلِكُمْ) وَعَنْ عَطَاءِ ابْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ مَرَّ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجُلٌ لَهُ سَمْتٌ فَقَالَ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ أَنْتَ قَالَ لَا قَالَ مِنْ أَهْلِ فَارِسٍ أَنْتَ قَالَ لَا قَالَ فَمَنْ أَنْتَ قَالَ أَنَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَالَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (لَا يَزَالُ هٰذَا الدِّينُ مُعْتَدِلًا صَالِحًا مَالَمْ يُسْلِمْ نَبْطُ الْعِرَاقِ فَإِذَا أَسْلَمَتْ نَبْطُ الْعِرَاقِ أُدْغِلُوا فِي الدِّينِ وَقَالُوا فِيهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَعِنْدَ ذٰلِكَ يُهْدَمُ الْإِسْلَامُ وَيَنْثَلِمُ) وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ مَابَعُدَ عَهْدُ قَوْمٍ مِنْ نَبِيِّهِمْ إِلَّا كَانَ أَحْسَنَ لِقَوْلِهِمْ وَأَسْوَأَ لِفِعْلِهِمْ وَقَالَ ابْنُ وَضَّاحٍ يَكُونُ فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَشْيَاءُ لَمْ تَكُنْ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ مِنْهَا تَسْمِينُ الْحَاشَاتِ «يَعْنِي الدَّقِيقَةَ مِنَ النِّسَاءِ» وَنَبْشُ الْقُبُورِ وَالتَّحَلُّقُ . وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تُؤْتَى بِالصِّبْيَانِ فَتَدْعُو لَهُمْ فَأُتِيَتْ بِجَارِيَةٍ مُسَمَّنَةٍ فَقَالَتْ لَقَدْ حَشَوْتُمُوهَا سَوِيقًا فَلَمْ تَدْعُ لَهَا . وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ إِنِّي لَأَمْقُتُ

الْقَارِىءِ أَنْ أَرَاهُ سَمِيناً نَسِيًّا لِلْقُرْآنِ . وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ أَتَى عُمَرُ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ شَيْخٌ قَدْ رَكِبَهُ اللَّحْمُ وَهُوَ يَقُولُ آه آه فَقَالَ مَا هٰذَا فَقَالَ بَرَكَةُ اللّٰهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ كَذَبْتَ بَلْ هُوَ عَذَابُ اللّٰهِ وَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً سَمِيناً فَأَهْوَى النَّبِيُّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَطْنِهِ فَقَالَ (لَوْ كَانَ فِي غَيْرِ هٰذَا الْمَكَانِ لَكَانَ خَيْراً لَكَ) وَعَنْهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (إِذَا رَأَيْتَ عِشْرِينَ رَجُلاً وَلَمْ تَتَوَهَّمِ الْخَيْرَ فِي رَجُلٍ مِنْهُمْ فَقَدْ فَسَدَ الْأَمْرُ) وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ قَالَ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ دَوْلَةً حَتَّى إِنَّ لِلْحُمْقِ عَلَى الْحِلْمِ دَوْلَةً وَعَنْ عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ لِكُلِّ شَيْءٍ دَوْلَةٌ تُصِيبُهُ فَلِلْأَشْرَافِ عَلَى الصَّعَالِيكِ دَوْلَةٌ ثُمَّ لِلصَّعَالِيكِ وَسَفَلَةِ النَّاسِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَوْلَةٌ حَتَّى يُدَالَ لَهُمْ عَلَى أَشْرَافِ النَّاسِ فَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَرُوَيْدَكَ وَالدَّجَّالُ ثُمَّ السَّاعَةُ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ . وَقَالَ بْنُ وَضَّاحٍ أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ كَانَ يُقَالُ

إنَّ الْبِقَاعَ لَيُدَالُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ حَتَّى إنَّ الْمَسْجِدَ لَيُتَّخَذُ كَنِيفًا وَإنَّ الْكَنِيفَ لَيُتَّخَذُ مَسْجِدًا . وَرُوِىَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُوضَعَ الْأَخْيَارُ وَتُرْفَعَ الْأَشْرَارُ وَيَسُودُ كُلَّ قَوْمٍ مُنَافِقُوهُمْ . وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ إنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى يَسُودَ كُلَّ قَبِيلَةٍ مُنَافِقُوهَا . وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ إذَا رَأَيْتَ الْوَاعِظَ يَعِظُ وَلَا يَتَّعِظُ وَالْمَوْعُوظَ تَزُولُ عَنْهُ الْمَوْعِظَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ . وَعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَفْعِ الْأَمَانَةِ حَتَّى يُقَالَ إنَّ فِى بَنِى فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا وَحَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ مَا أَجْلَدَهُ وَمَا أَحْذَقَهُ وَمَا فِى قَلْبِهِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ مِنْ إيمَانٍ . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ إصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَإيَّاكُمْ وَالْبِغْضَةَ فَإنَّهَا هِيَ الْحَالِقَةُ) وَعَنْ

الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (قَالَ دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تَحَابُّوا وَلَا تَحَابُّوا حَتَّى تُؤْمِنُوا أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثْبِتُ ذَلِكَ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الْأُمَمِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا دَاءُ الْأُمَمِ قَالَ الْأَشَرُ وَالْبَطَرُ وَالتَّكَاثُرُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ ثُمَّ يَكُونَ الْهَرَجُ) وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا كَانَ قَوْمٌ فِي رَغَدِ الْعَيْشِ فَزَالَ عَنْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بِخَطِيئَةٍ اجْتَرَمُوهَا. وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ يُوشِكُ أَنْ تَظْهَرَ شَيَاطِينُ يُجَالِسُونَكُمْ فِي مَجَالِسِكُمْ وَيُفَقِّهُونَكُمْ فِي دِينِكُمْ وَيُحَدِّثُونَكُمْ وَإِنَّهُمْ لَشَيَاطِينُ وَقَالَ طَاوُوسٌ تَعَلَّمِ الْعِلْمَ لِنَفْسِكَ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ ذَهَبَتْ مِنْهُمُ الْأَمَانَةُ وَعَنْ

خَيْثَمَةَ قَالَ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ إِنَّهَا سَتَكُونُ أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ فَعَلَيْكُمْ بِالتُّؤَدَةِ فَإِنْ يَكُنِ الرَّجُلُ تَابِعًا فِي الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَأْسًا فِي الشَّرِّ. وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَتَتْكُمْ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ فِيهَا أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا)

(فَصْلٌ) وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَكُونُ السُّنَّةُ فِيهَا بِدْعَةً وَالْبِدْعَةُ سُنَّةً وَالْمَعْرُوفُ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا وَذَلِكَ إِذَا اتَّبَعُوا وَاقْتَدَوْا بِالْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ فِي دُنْيَاهُمْ وَعَنْ زِيَادِ بْنِ زِيَادٍ قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ الْأَحْبَارِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَصْحَابُ الْأَلْوَاحِ يَزِنُونَ الْحَدِيثَ بِالْكَذِبِ تَفْصِيلَ الذَّهَبِ بِالْجَوْهَرِ) وَعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ

قَالَ : يَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ خَيْرُ دِينِهِمْ دِينُ الْأَعْرَابِ قَالَ مِمَّ ذَلِكَ
قَالَ تَحْدُثُ أَهْوَاءٌ وَبِدَعٌ يَحُضُّونَ عَلَيْهَا . وَعَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ : قَالَ لِى
شَقِيقُ أَبُو وَائِلٍ أَنْبَأَنَا أَبُو سُلَيْمَانَ قَالَ مَا شَبَّهْتُ قُرَّاءَ زَمَانِكَ إِلَّا بِغَنَمٍ
رَعَتْ حَمْضًا فَمَنْ رَآهَا ظَنَّ أَنَّهَا سِمَانٌ فَإِذَا ذَبَحَهَا لَمْ يَجِدْ فِيهَا شَاتًا سَمِينَةً.
وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ مَا أُشَبِّهُ عُلَمَاءَ زَمَانِكُمْ إِلَّا كَرَجُلٍ أَرْعَى
غَنَمَهُ الْحَمْضَ حَتَّى إِذَا رَبَّحَتْ بُطُونُهَا وَانْتَفَخَتْ أَحْقَاؤُهَا اعْتَامَ أَفْضَلَهَا
فِى نَفْسِهِ فَإِذَا هِىَ لَا تَنْقَى وَمَا بَقِىَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا كَالشَّىْءِ شَرِبَ صَفْوَهُ
وَبَقِىَ كَدَرُهُ وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدٍ الثَّوْرِىِّ قَالَ : بَلَغَنَا عَنْ عَبْدِ اللهِ
بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ سَيَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْلِسُ فِى مَسَاجِدِهِمْ شَيَاطِينُ
كَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ قَدْ أَوْثَقَهُمْ فِى الْبَحْرِ يَخْرُجُونَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
أَمْرَ دِينِهِمْ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ قَالَ زُهَيْرُ بْنُ عَبَّادٍ يَعْنِى عَنْ سُفْيَانَ
يُعَلِّمُونَ النَّاسَ فَيُدْخِلُونَ فِى خِلَالِ ذَلِكَ الْأَهْوَاءَ الْمُحْدَثَةَ فَيُحِلُّونَ لَهُمْ

الْحَرَامَ وَيشككونهم في دينهم. وعن سفيان الثوري أيضا قال بلغني أنه يأتي على الناس زمان تكثر علماؤهم فلا ينتفعون بعلمهم ولا ينفعهم الله بعلمهم فخيرهم من كان متمسكا بالقرآن وقراءته وعن سفيان أيضا قال بلغني والله أعلم أنه سيأتي على الناس زمان من طلب العلم فيه صار غريبا في زمانه وعن خلاد بن سليمان قال سمعت دراجا أبا السمح يقول يأتي على الناس زمان يسمن الرجل راحلته حتى تعقد شحما ثم يسير عليها في الأمصار حتى تعود نقضا يلتمس من يفتيه بسنة قد عمل بها فلا يجد من يفتيه إلا بالظن. وعن الحسن بن سمرة بن جندب قال لا تقوم الساعة حتى تعبد الأصنام في المحاريب وقال حذيفة رضى الله عنه لا تقوم الساعة حتى تنصب فيها الأوثان وتعبد يعني المحاريب. وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال: لا تقوم الساعة حتى تكون هذه الأمة على بضع

وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهَا فِى الْهَاوِيَةِ وَوَاحِدَةٌ فِى النَّاجِيَةِ وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُنْصَبَ الْأَوْثَانُ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْصِبُهَا حَضَرُ مِنْ تِهَامَةَ) وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (اقْرَؤُا الْقُرْآنَ بِلُحُونِ الْعَرَبِ وَأَصْوَاتِهَا وَإِيَّاكُمْ وَلُحُونَ أَهْلِ الْفِسْقِ فَإِنَّهُ سَيَجِىءُ مِنْ بَعْدِى قَوْمٌ يُرَجِّعُونَ الْقُرْآنَ تَرْجِيعَ الْغِنَاءِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ وَالنَّوْحِ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ مَفْتُونَةٌ قُلُوبُهُمْ وَقُلُوبُ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ شَأْنُهُمْ) وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ رِجَالٌ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ. وَعَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ صَفْوَانَ قَالَ سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ يَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ. وَعَنْ عُمَرَ بْنِ يَحْيَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ كُنَّا جُلُوسًا عَلَى بَابِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ نَنْتَظِرُهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْنَا فَخَرَجَ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَنَا

(إنَّ أَقْوَامًا يَقْرؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ) وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلِحْيَيَّ وَأَنَا أَعْرِفُ الْحُزْنَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ قُلْتُ أَجَلْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ مُفْتَتَنَةٌ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الدَّهْرِ غَيْرِ كَثِيرٍ قُلْتُ فِتْنَةُ غَرَامٍ أَمْ فِتْنَةُ ضَلَالَةٍ قَالَ: كُلٌّ يَكُونُ قُلْتُ مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِمْ ذَلِكَ وَأَنَا تَارِكٌ فِيهِمْ كِتَابَ اللهِ قَالَ بِكِتَابِ اللهِ يَضِلُّونَ وَزَادَ مِنْ قِبَلِ قُرَّائِهِمْ وَأُمَرَائِهِمْ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ أَلَا إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ أَقْوَامًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَعْمَلُونَ بِسُنَّتِهِ. وَعَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَتُتَّخَذُ سُنَّةً يَجْرِي

عَلَيْهَا فَاذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ غُيِّرَتِ السُّنَّةُ قِيلَ مَتَىٰ ذٰلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ فَقَالَ إِذَا كَثُرَتْ قُرَّائُكُمْ وَقَلَّ فُقَهَائُكُمْ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ وَقَلَّ أُمَنَاؤُكُمْ وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ لِغَيْرِ الدِّينِ .

(فَصْلٌ) قَالَ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ مَسْيَرَه عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ لَمَّا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ جَعَلَ فُقَهَاؤُهُمْ وَقُرَّاؤُهُمْ يُؤَاكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُونَهُمْ لَا يَأْمُرُونَهُمْ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ مُنْكَرٍ فَضَرَبَ اللّٰهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . وَعَنْ عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا رَأَى أَخَاهُ عَلَى الذَّنْبِ نَهَاهُ عَنْهُ تَعْزِيرًا فَاذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَخَلِيطَهُ فَلَمَّا رَأَى اللّٰهُ ذٰلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ

وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ إِطْرًا أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ) وَعَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِى عِمْرَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَجَبَ عَلَيْكُمُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ مَا لَمْ تَخَافُوا أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكُمْ فَوْقَ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَإِذَا خِفْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ حَلَّ لَكُمُ الصَّمْتُ وَعَنْ عُمَرَ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (يُوشِكُ أَنْ تَهْلِكَ هَذِهِ الْأُمَّةُ إِلَّا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ رَجُلًا أَنْكَرَ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ فَإِنْ جَبُنَ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ جَبُنَ فَبِقَلْبِهِ وَعَنْ عَلِىٍّ قَالَ الْجِهَادُ ثَلَاثَةٌ فَجِهَادٌ بِيَدٍ وَجِهَادٌ بِلِسَانٍ وَجِهَادٌ بِقَلْبٍ فَأَوَّلُ مَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ يَدُكَ ثُمَّ لِسَانُكَ ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى الْقَلْبِ فَإِنْ كَانَ الْقَلْبُ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا نُكِّسَ فَجُعِلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ إِذَا عُمِلَ فِى الأَرْضِ خَطِيئَةٌ فَمَنْ حَضَرَهَا فَكَرِهَهَا كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا . وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا .

وَعَنْ عَطَاءٍ الْخُرَسَانِى أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (سَيَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَذُوبُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ فِى جَوْفِهِ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِى الْمَاءِ . قِيلَ يَا نَبِىَّ اللهِ وَمِمَّ ذَلِكَ قَالَ يَرَى الْمُنْكَرَ يُعْمَلُ بِهِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ) وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (تَكُونُ أُمُورٌ تَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ بَرِئَ وَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِىَ وَتَابَعَ هُمُ الْهَالِكُونَ يَقُولُهَا ثَلَاثًا)

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ . فَبِحَسْبِ امْرِئٍ إِذَا رَأَى مُنْكَرًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ أَنْ يَعْلَمَ اللهُ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ لَهُ كَارِهٌ وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ فِى الْقَوْمِ يَعْمَلُ

بالمعاصي هم أكثر منه وأعز لو شاؤا لأخذوا على يديه فيداهنون ويسكتون فيعاقبون به) وعن عبد الله بن جرير عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون أن يغيروا عليه فلم يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا وعن ابن مسعود قال: إن الخطيئة لتعمل في الأرض فيعملون بها ومعهم الرجل فلا تصيبه وتصيب الرجل الخارج من الأرض بأن هذا مكرها ولا يهواها وتبلغ هذا الآخر فلا يكرهها ولا ينكرها ويهواها وروى عن بعض السلف أنه قال بينما غلمان قد أخذوا ديكا ينتفون ريشه وشيخ قائم ينظر إليهم إلى جانبهم لا يأمرهم ولا ينهاهم فخسف الله بهم الأرض وعن أبي عمران الجوفي أن سلمان مر بفتية يعذبون حمارا فنهاهم فلم ينتهوا فقال يا سماء اشهدي ويا جبال اشهدي قال ابن وضاح ما أحسنه

وَعَنْ مِسْعَرِ بْنِ وَبَرَةَ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ إِيَّاكَ وَالْكَلَامَ فِيمَا يَعْنِيكَ فِى غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَرُبَّ مُسْلِمٍ تَقِيٍّ قَدْ تَكَلَّمَ بِمَا يَعْنِيهِ فِى غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَتَعِبَ وَقَالَ عَبْدُ اللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا تُغَيَّرُ عَلَيْهِ وَلَا تُنْكِرُهَا قُلُوبُهُمْ فَتَنْزِلُ عَلَيْهِمُ السَّخْطَةُ وَعَنْ أَبِى عُمَرَ الْأَوْزَاعِىِّ قَالَ سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ إِذَا خَفِيَتِ الْمَعْصِيَةُ لَا تَضُرُّ إِلَّا عَامِلَهَا فَإِذَا ظَهَرَتْ فَلَمْ تُغَيَّرْ ضَرَّتِ الْعَامَّةَ وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ نُعَيْمٍ : حَدَّثَنِى أَبُو هَوَانَ قَالَ بَعَثَ اللهُ مَلَكَيْنِ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ أَنْ دَمِّرَاهَا بِمَنْ فِيهَا . قَالَ فَوَجَدَا فِيهَا رَجُلًا قَائِمًا يُصَلِّى فِى مَسْجِدِهِ فَعَرَجَ أَحَدُهُمَا إِلَى اللهِ فَقَالَ : رَبَّنَا وَجَدْنَا فِيهَا عَبْدَكَ فُلَانًا قَائِمًا يُصَلِّى فِى مَسْجِدِهِ فَقَالَ اللهُ دَمِّرَاهَا وَدَمِّرُوهُ مَعَهُمْ فَإِنَّهُ مَا تَمَعَّرَ وَجْهُهُ فِىَّ قَطُّ وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ قَوْمًا لَا يُؤْخَذُ مِنْ شَدِيدِهِمْ لِضَعِيفِهِمْ) وَعَنْ عَمْرِو بْنِ مَسَرَّةَ عَنْ رَجُلٍ

مِنْ بَنِى هَاشِمٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (بِئْسَ الْقَوْمُ قَوْمٌ لَا يَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ وَبِئْسَ الْقَوْمُ قَوْمٌ يَجْفُونَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِئْسَ الْقَوْمُ قَوْمٌ لَا يَقُومُونَ لِلّٰهِ بِالْقِسْطِ وَبِئْسَ الْقَوْمُ قَوْمٌ يَسِيرُ فِيهِمُ الْمُؤْمِنُ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ) وَمِنْ حَدِيثِ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلِّهِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَنْتَهُوا عَنْهُ كُلِّهِ.

(فَصْلٌ) إِذَا عَرَفَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَمَا يَحْصُلُ لِأَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ مِنَ الزَّلَازِلِ وَالْفِتَنِ وَالتَّبَاغُضِ وَالتَّحَاسُدِ وَظُهُورِ الْحَوَادِثِ وَالْبِدَعِ وَانْحِلَالِهِمْ مِنْ أَدْيَانِهِمْ وَإِحْدَاثِ الْبِدَعِ وَإِمَاتَةِ السُّنَنِ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ هٰذَا هُوَ آخِرُ الزَّمَانِ الَّذِى أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْإِسْلَامَ يَعُودُ فِيهِ غَرِيبًا كَمَا بَدَا لِأَنَّ هٰذِهِ الْأُمُورَ

وَالعَلَامَات قَدْ عَمَّتْ وَطَمَّتْ وَتَكَاثَرَتْ وَاسْتَمَرَّتْ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ . وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لِكُلِّ أُمَّة فِتْنَة وَفِتْنَةُ أُمَّتِي هَذَا الْمَالُ) وَاللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ قَسَمَ بَرِيَّتَهُ أَقْسَامًا فَجَعَلَ كُلَّ مَحْبُوبٍ لِمُحِبِّهِ نَصِيبًا مُخْطِئًا كَانَ فِي مَحَبَّتِهِ أَوْ مُصِيبًا وَجَعَلَهُ بِحُبِّهِ مُنَعَّمًا أَوْ قَتِيلًا فَقَسَمَهَا بَيْنَ مُحِبِّ الرَّحْمَنِ وَمُحِبِّ الْأَوْثَانِ وَمُحِبِّ النِّيرَانِ وَمُحِبِّ الصُّلْبَانِ وَمُحِبِّ الْأَوْطَانِ وَمُحِبِّ الْإِخْوَانِ وَمُحِبِّ النِّسْوَانِ وَمُحِبِّ الصِّبْيَانِ وَمُحِبِّ الطُّغْيَانِ وَمُحِبِّ الْإِيمَانِ وَمُحِبِّ الْأَلْحَانِ وَمُحِبِّ الْقُرْآنِ فَفَضَّلَ أَهْلَ مَحَبَّتِهِ وَرَسُولِهِ عَلَى أَهْلِ مَحَبَّةِ الطُّغْيَانِ وَالْفُجُورِ وَالْعِصْيَانِ وَجَعَلَ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةً فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا لِلْخَيْرِ وَالرَّشَادِ وَشَرُّهَا أَوْعَاهَا لِلْغَيِّ وَالْفَسَادِ . وَاقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ أَنَّهُ لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْمَكَارِهِ وَالنَّصَبِ وَلَا تُعْبَرُ إِلَيْهِ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ الْمَشَقَّةِ وَالتَّعَبِ فَحَجَبَهُ بِالْمَكْرُوهَاتِ صِيَانَةً لَهُ عَلَى

الأَنْفُسُ الدَّنِيَّاتُ الْمُؤْثِرَةُ لِلرَّذَائِلِ السُّفْلِيَاتِ وَشَمَّرَتْ إِلَيْهِ النُّفُوسُ الْعُلْوِيَّاتُ وَالْهِمَمُ الْعُلْيَاتُ فَامْتَطَتْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِ ظُهُورَ الْعَزَمَاتِ فَسَارَتْ فِى ظُهُورِهَا إِلَى أَشْرَفِ الْغَايَاتِ .

(فَصْلٌ) ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مَثَلَ أَهْلِ الدُّنْيَا فِى غَفْلَتِهِمْ كَمَثَلِ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً فَانْتَهَوْا إِلَى جَزِيرَةٍ مُعْشِبَةٍ فَخَرَجُوا لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ فَحَذَّرَهُمُ الْمَلَّاحُ مِنَ التَّأَخُّرِ فِيهَا وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقِيمُوا بِقَدْرِ حَاجَتِهِمْ وَحَذَّرَهُمْ مِنْ أَنْ يُقْلِعَ بِالسَّفِينَةِ وَيَتْرُكَهُمْ فَبَادَرَ بَعْضُهُمْ فَرَجَعَ سَرِيعًا فَصَادَفَ خَيْرَ الْأَمْكِنَةِ وَأَحْسَنَهَا فَاسْتَقَرَّ فِيهِ وَانْقَسَمَ الْبَاقُونَ أَقْسَامًا فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَاسْتَغْرَقَ فِى النَّظَرِ إِلَى أَزْهَارِهَا الْمُونِقَةِ وَأَنْهَارِهَا وَأَثْمَارِهَا الطَّيِّبَةِ وَجَوَاهِرِهَا وَمَعَادِنِهَا ثُمَّ اسْتَيْقَظَ فَبَادَرَ إِلَى السَّفِينَةِ فَلَقِىَ مَكَانًا دُونَ الْأَوَّلِ فَنَجَا فِى الْجُمْلَةِ . الْقِسْمُ الثَّانِى كَالْأَوَّلِ لَكِنَّهُ أَكَبَّ عَلَى تِلْكَ الْجَوَاهِرِ وَالثِّمَارِ وَالْأَزْهَارِ وَلَمْ تَسْمَحْ نَفْسُهُ بِتَرْكِهَا فَحَمَلَ مِنْهَا

مَا قَدَرَ عَلَيْه فَتَشَاغَلَ بِجَمْعِه وَحَمْلِه فَوَصَلَ إِلَى السَّفِينَة فَوَجَدَ مَكَانًا أَضْيَقَ مِنَ الأَوَّلِ وَلَمْ تَسْمَحْ نَفْسُه بِتَرْكِ مَا اسْتَصْحَبَه فَصَارَ مُثْقَلاً ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ ذَبُلَتِ الأَزْهَارُ وَيَبِسَتْ تِلْكَ الثِّمَارُ وَهَاجَتِ الرِّيَاحُ فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ إِلْقَاءِ مَا حَمَلَهُ حَتَّى نَجَا بِنَفْسِه. الْقِسْمُ الثَّالِثُ غَفَلَ عَنْ وَصِيَّةِ الْمَلَّاحِ ثُمَّ سَمِعَ نِدَاءً بِالرَّحِيلِ فَمَرَّ فَوَجَدَ السَّفِينَةَ قَدْ سَارَتْ فَبَقِيَ بِمَا اسْتَصْحَبَهُ فِي الْبَرِّ حَتَّى هَلَكَ. الْقِسْمُ الرَّابِعُ اشْتَدَّتْ بِه الْغَفْلَةُ عَنْ سَمَاعِ النِّدَاءِ وَسَارَتِ السَّفِينَةُ فَانْقَسَمُوا فِرَقًا فَمِنْهُمْ مَنِ افْتَرَسَتْهُ السِّبَاعُ وَمِنْهُمْ مَنْ تَاهَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى هَلَكَ وَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ جُوعًا وَمِنْهُمْ مَنْ نَهَشَتْهُ الْحَيَّاتُ. فَهَذَا مِثَالُ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي اشْتِغَالِهِمْ بِحُظُوظِهِمُ الْعَاجِلَةِ وَمَا أَقْبَحَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ عَاقِلٌ ثُمَّ يَغْتَرُّ بِالأَحْجَارِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالأَزْهَارِ وَالثِّمَارِ وَهُوَ لَا يَصْحَبُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَمِنْهَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ النِّعَمَ زَائِرَةٌ وَأَنَّهَا لَا مَحَالَةَ زَائِلَةٌ وَأَنَّ السُّرُورَ بِهَا

إِذَا أَقْبَلَتْ مَشُوبٌ بِالْحَذَرِ مِنْ فِرَاقِهَا إِذْ أَدْبَرَتْ وَأَنَّهَا لَا تُفَرِّحُ بِإِقْبَالِهَا فَرَحًا حَتَّى تُعْقِبُهُ بِفِرَاقِهَا تَرَحًا وَعَلَى قَدْرِ السُّرُورِ يَكُونُ الْحُزْنُ. وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ الْمَفْرُوحُ بِهِ هُوَ الْمَحْزُونُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ مَنْ بَلَغَ غَايَةَ مَا يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ نَائِبَةٍ إِلَى انْقِضَاءٍ حَسُنَ عَزَاؤُهُ عِنْدَ نُزُولِ الْبَلَاءِ وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَيْفَ تَرَى الدُّنْيَا قَالَ: شَغَلَنِي تَوَقُّعُ بَلَائِهَا عَنِ الْفَرَحِ بِرَخَائِهَا وَمِنْهَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ سُرُورَهُ مَقْرُونٌ بِمَسَاءَةِ غَيْرِهِ وَكَذَٰلِكَ حُزْنُهُ مَقْرُونٌ بِسُرُورِ غَيْرِهِ وَإِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا تَنْتَقِلُ مِنْ صَاحِبٍ إِلَى صَاحِبٍ وَتَصِلُ صَاحِبًا بِفِرَاقِ صَاحِبٍ فَتَكُونُ سُرُورًا لِمَنْ وَصَلَتْهُ وَحُزْنًا لِمَنْ فَارَقَتْهُ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَا قُرِعَتْ عَصًا عَلَى عَصًا إِلَّا فَرِحَ لَهَا قَوْمٌ وَحَزِنَ لَهَا آخَرُونَ) وَقَالَ حَاتِمٌ الْأَصَمُّ أَرْبَعَةٌ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا أَرْبَعَةٌ لَا يَعْرِفُ قَدْرَ الشَّبَابِ

إلَّا مَنْ قَدْ شَابَ وَلَا قَدْرَ الْعَافِيَةِ إلَّا أَهْلُ الْبَلَاءِ وَلَا قَدْرَ الصِّحَّةِ إلَّا الْمَرْضَى وَلَا قَدْرَ الْحَيَاةِ إلَّا الْمَوْتَى وَعَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (لَوْ عَلِمَتِ الْبَهَائِمُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْمَوْتِ مَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا سَمِينًا) وَيُرْوَى عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ يَبْكِي فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فَلَا تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هٰذَا فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلَةٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ) وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى مَقْبَرَةٍ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ اضْطَجَعَ فَرَأَى صَاحِبَ الْقَبْرِ فَقَالَ لَهُ: يَا هٰذَا إِنَّكُمْ تَعْمَلُونَ وَلَا تَعْلَمُونَ وَنَحْنُ نَعْلَمُ وَلَا نَعْمَلُ وَلَأَنْ تَكُونَ رَكْعَتَاكَ فِي صَحِيفَةِ أَحَدِنَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَمَرَّ فَارِسٌ بِغُلَامٍ فَسَأَلَهُ يَا غُلَامُ أَيْنَ الْعُمْرَانُ فَقَالَ لَهُ اصْعَدْ تُشْرِفْ فَصَعِدَ فَأَشْرَفَ عَلَى مَقْبَرَةٍ فَقَالَ هٰذَا الْغُلَامُ: إِمَّا

جَاهِلٌ وَإِمَّا حَكِيمٌ فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ : سَأَلْتُكَ عَنِ الْعُمْرَانِ فَدَلَلْتَنِي عَلَى الْمَقْبَرَةِ فَقَالَ الْغُلَامُ إِنِّي رَأَيْتُ أَهْلَ تِلْكَ الْقَرْيَةِ يَنْتَقِلُونَ إِلَى هٰذَا وَلَمْ أَرَ أَحَدًا يَنْتَقِلُ مِنْ هٰذِهِ إِلَى تِلْكَ الْقَرْيَةِ وَإِنَّمَا يَنْتَقِلُ مِنَ الْخَرَابِ إِلَى الْعِمَارِ وَلَوْ سَأَلْتَنِي عَنْ مَنْ يُوَارِيكَ لَدَلَلْتُكَ. وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَيَهْتِفُ فِي الْمَقَابِرِ فَيُنَادِي بِأَهْلِ الْقُبُورِ مَنْ تَحْسُدُونَ الْيَوْمَ فَيُجِيبُونَ فَيَقُولُونَ نَحْسُدُ أَهْلَ الْمَسَاجِدِ فِي مَسَاجِدِهِمْ يُصَلُّونَ فَلَا نَقْدِرُ أَنْ نُصَلِّيَ وَيَصُومُونَ فَلَا نَقْدِرُ أَنْ نَصُومَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَقْدِرُ أَنْ نَتَصَدَّقَ وَيَذْكُرُونَ وَلَا نَقْدِرُ أَنْ نَذْكُرَ. فَيَنْدَمُونَ عَلَى مَا مَضَى مِنْ زَمَانِهِمْ) وَرُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (لَا يَمُرُّ أَحَدٌ بِالْمَقَابِرِ إِلَّا وَتُنَادِيهِ أَهْلُ الْقُبُورِ يَا غَافِلُ لَوْ عَلِمْتَ مَا نَحْنُ فِيهِ لَذَابَ لَحْمُكَ وَجِسْمُكَ كَمَا يَذُوبُ الثَّلْجُ عَلَى النَّارِ) وَقَالَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَا الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ إِلَّا

كَالْغَرِيقِ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُهُ مِنْ أَبٍ أَوْ أَخٍ أَوْ صَدِيقٍ لَهُ فَإِذَا لَحِقَتْهُ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لِأَبِي حَازِمٍ: يَا أَبَا حَازِمٍ مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ فَقَالَ: لِأَنَّكُمْ عَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ وَخَرَّبْتُمْ آخِرَتَكُمْ فَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ النَّقْلَةَ مِنَ الْعِمَارِ إِلَى الْخَرَابِ فَقَالَ كَيْفَ الْقُدُومُ عَلَى اللهِ. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَّا الْمُحْسِنُ فَكَالْغَائِبِ يَأْتِي أَهْلَهُ فَرِحًا مَسْرُورًا. وَأَمَّا الْمُسِيءُ فَكَالْعَبْدِ الْآبِقِ يَأْتِي مَوْلَاهُ خَائِفًا مَحْزُونًا وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ كَانَ رَجُلٌ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ فَحَسَبَ يَوْمًا سِنِينَهُ فَوَجَدَهَا سِتِّينَ سَنَةً فَحَسَبَ أَيَّامَهَا فَوَجَدَهَا إِحْدَى وَعِشْرِينَ أَلْفَ يَوْمٍ وَخَمْسَمِائَةٍ فَصَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً وَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ وَقَالَ يَا وَيْلَتَاهُ أَنَا آتِي رَبِّي بِإِحْدَى وَعِشْرِينَ أَلْفَ ذَنْبٍ وَخَمْسَمِائَةِ ذَنْبٍ ثُمَّ قَالَ آهِ عَلَى عَمَّرْتُ دُنْيَايَ وَخَرَّبْتُ أُخْرَايَ وَعَصَيْتُ مَوْلَايَ ثُمَّ اشْتَهَى النُّقْلَةَ مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ ثُمَّ شَهِقَ شَهْقَةً عَظِيمَةً وَوَقَعَ عَلَى

الْأَرْضِ فَحَرَّكُوهُ فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ رَحِمَهُ اللهُ. فَإِذَا كَانَ هٰذَا حَالُ مَنْ يَكْسِبُ كُلَّ يَوْمٍ ذَنْبًا وَاحِدًا فَكَيْفَ بِمَنْ لَهُ ذُنُوبٌ لَا تُحْصَىٰ.

(فَصْلٌ) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْدُو وَيَرُوحُ إِلَى الْمَعَاصِي وَيَطْلُبُهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ تَارَةً إِلَى الْمَعَازِفِ وَالْمَلَاهِي وَتَارَةً إِلَى الْغِنَاءِ وَتَارَةً إِلَى الْفُجُورِ وَالزِّنَا وَاللُّوَاطِ وَشُرْبِ الْخُمُورِ وَالتُّنْبَاكِ وَغَيْرِهِ وَتَارَةً فِي طَلَبِ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَتَارَةً فِي الْعَصَبِيَّاتِ مِنْ إِعَانَةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَالدُّخُولِ فِي سِلْكِهِمْ بِأَيِّ وَجْهٍ وَاللهُ يَسْتَعْمِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي سَخَطِهِ كَمَا يَسْتَعْمِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي مَرْضَاتِهِ كَمَا يَسْتَعْمِلُ مَنْ يُحِبُّ فِي مَرْضَاتِهِ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ وَلَا يَنْكَشِفُ سِرُّ هٰذِهِ الطَّوَائِفِ وَطَرِيقَتِهِمْ إِلَّا بِالْعِلْمِ فَعَادَ الْخَيْرُ كُلُّهُ بِحَذَافِيرِهِ إِلَى الْعِلْمِ وَعَادَ الشَّرُّ كُلُّهُ بِحَذَافِيرِهِ إِلَى الْجَهْلِ وَمُوجِبِهِ. وَقَالَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ سَمِعْتُ أَنَّ لِلْإِسْلَامِ عُرًا يَتَعَلَّقُ بِهَا النَّاسُ وَإِنَّمَا يَتَمَلَّخُ عُرْوَةً عُرْوَةً

فَأَوَّلُ مَا يَمْتَلِخُ مِنْهَا الْحِلْمُ وَآخِرُ مَا يَمْتَلِخُ مِنْهَا الصَّلَاةُ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذَا وَجَدْتَ قَسَاوَةً فِي قَلْبِكَ وَضَعْفًا فِي بَدَنِكَ وَحِرْمَانًا فِي رِزْقِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ تَكَلَّمْتَ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ فَكَلَامُ الْمَرْءِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ يُقَسِّي الْقَلْبَ وَيُضْعِفُ الْبَدَنَ وَيُعَسِّرُ أَسْبَابَ الرِّزْقِ. وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ عَلَامَاتِ إِعْرَاضِ اللهِ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَجْعَلَ شُغْلَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ. وَمَرَّ حَسَّانُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بِغُرْفَةٍ فَقَالَ مَتَى بُنِيَتْ هٰذِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ فَقَالَ تَسْأَلِينَ عَنْ مَا لَا يَعْنِيكِ لَأُعَاقِبَنَّكِ بِصِيَامِ سَنَةٍ فَصَامَهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي ضَابِطِ مَا يَعْنِي وَمَا لَا يَعْنِي فَالَّذِي يَعْنِي الْإِنْسَانَ مَا يَتَعَلَّقُ بِضَرُورَةِ حَيَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ مِمَّا يُشْبِعُهُ مِنْ جُوعٍ وَيُرْوِيهِ مِنْ ظَمَأٍ وَيَسْتُرُ عَوْرَتَهُ وَيُعِفُّ فَرْجَهُ وَنَحْوُ ذٰلِكَ مِمَّا يَدْفَعُ الضَّرُورَةَ دُونَ مَا فِيهِ تَلَذُّذٌ وَتَنَعُّمٌ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِمَعَادِهِ مِمَّا فِيهِ ثَوَابٌ وَالَّذِي لَا يَعْنِي لَا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ مِنَ اللَّعِبِ وَالْهَزْلِ وَكُلُّ مَا يُخِلُّ بِالْمُرُوءَةِ

وَالتَّوَسُّعِ فِى الدُّنْيَا وَطَلَبِ الْمَنَاصِبِ وَالرِّيَاسَةِ وَحُبِّ الْمَحْمَدَةِ وَنَحْوِ ذَٰلِكَ مِمَّا لَا يَعُودُ عَلَيْهِ مِنْهُ نَفْعٌ أُخْرَوِىٌّ فَإِنَّهُ ضَيَاعٌ لِلْوَقْتِ النَّفِيسِ الَّذِى لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعُودَ.

«فَائِدَةٌ» فِى الْحَدِيثِ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ وَأَخْبَرَ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْفِتَنِ الَّتِى كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا وَيُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) وَكَانَ حُذَيْفَةُ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ سُؤَالًا لِلنَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْفِتَنِ خَوْفًا مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا وَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ لَا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى سَبَقَتْ بِى الْفِتْنَةَ قَادَاتُهَا وَعُلُوجُهَا وَكَانَ مَوْتُهُ قَبْلَ قَتْلِ عُثْمَانَ بِنَحْوٍ مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَقِيلَ بَلْ بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ وَكَانَ فِى تِلْكَ الْأَيَّامِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ نَائِمًا فَأَتَاهُ آتٍ فِى مَنَامِهِ فَقَالَ

لَهُ قُمْ فَاسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكَ مِنَ الْفِتْنَةِ الَّتِى أَعَاذَ مِنْهَا صَالِحَ عِبَادِهِ فَقَامَ
فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى وَاشْتَكَى وَمَاتَ بَعْدَ قَلِيلٍ . وَرُوِىَ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى
اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ (إِذَا مُتُّ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ
فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَمُوتَ فَمُتْ) وَهٰذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى هٰذِهِ الْفِتَنِ الَّتِى وَقَعَتْ
بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ وَإِنَّ الدُّعَاءَ بِالْمَوْتِ خَشْيَةَ الْفِتْنَةِ فِى الدِّينِ
جَائِزٌ وَقَدْ دَعَا بِهِ الصَّحَابَةُ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَالصَّالِحُونَ بَعْدَهُمْ وَلَمَّا
حَجَّ عُمَرُ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ آخِرَ حَجَّةٍ حَجَّهَا اسْتَلْقَى بِالْأَبْطَحِ ثُمَّ رَفَعَ
يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ قَدْ كَبِرَ سِنِّى وَرَقَّ عَظْمِى وَانْتَشَرَتْ رَعِيَّتِى فَاقْبِضْنِى
إِلَيْكَ غَيْرَ مُضَيِّعٍ وَلَا مَفْتُونٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَمَا انْسَلَخَ الشَّهْرُ
حَتَّى قُتِلَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ وَدَعَا عَلِىٌّ رَبَّهُ أَنْ يُرِيحَهُ مِنْ رَعِيَّتِهِ حَيْثُ
سَئِمَ مِنْهُمْ فَقُتِلَ عَنْ قَرِيبٍ وَدَعَتْ زَيْنَبُ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا عَلَى نَفْسِهَا
لَمَّا أَعْطَاهَا عُمَرُ عَطَاءَهَا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ فَاسْتَكْثَرَتْهُ فَقَالَتِ اللَّهُمَّ

لا تلحقني عطاء عمر وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان قد دعوا بالموت فإنهم خشوا على أنفسهم الفتنة فإن الدنيا ما فتحت على قوم إلا افتتنوا وهذه حال الأبرار الذين لم تلههم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله وعن طاعته كما قال تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) فالذكر ينبت الايمان في القلب كما ينبت الماء الزرع كما أن الغنى ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع وكذلك المواعظ سياط القلوب لأهل الايمان . وقد كان لهارون الرشيد رجل يعظه فقال له يوما عظنا فقال له الواعظ : يا أمير المؤمنين ما اختلف الليل والنهار ولا دارت النجوم في فلك إلا انتقل النعيم عن ملك قد انقضى ملكه إلى ملك بعده فبكى الرشيد حتى أخضل لحيته وقال بعض السلف من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل

وَرَعُهُ وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ قَسَى قَلْبُهُ . وَفِى الْأَثَرِ الْالٰهِىّ ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُكَ لِنَفْسِى وَخَلَقْتُ كُلَّ شَىْءٍ لِأَجْلِكَ فَبِحَقِّى عَلَيْكَ أَنْ لَا تَشْتَغِلَ بِمَا خَلَقْتُ لَكَ عَنْ مَا خَلَقْتُكَ لَهُ وَفِى أَثَرٍ آخَرَ خَلَقْتُكَ لِنَفْسِى فَلَا تَلْعَبْ وَتَكَفَّلْتُ لَكَ بِرِزْقِكَ فَلَا تَتْعَبْ يَا بْنَ آدَمَ اطْلُبْنِى تَجِدْنِى فَإِنْ وَجَدْتَنِى وَجَدْتَ كُلَّ شَىْءٍ وَإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلُّ شَىْءٍ وَأَنَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ وَمَنْ تَرَكَ مَا يَعْنِيهِ وَيَهُمُّهُ مِنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ عُوقِبَ بِالاشْتِغَالِ بِمَا لَا يَعْنِيهِ وَاحْتَوَشَهُ شَيْطَانُهُ وَهَوَاهُ فَأَضَلَّهُ وَأَغْوَاهُ وَفَتَحَ عَلَيْهِ أَبْوَابَ الشَّرِّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ تَارَةً بِالْمَعَازِفِ وَالْمَلَاهِى وَتَارَةً بِالنِّيَاحَةِ عَلَى مَصَائِبِهِ وَدُنْيَاهُ كَمَا قَالَ بْنُ الْقَيِّمِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَلَى قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّمَا نُهِيتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ) وَذَكَرَ قَوْلَ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ لِلنَّائِحَةِ وَضَرْبَهُ إِيَّاهَا قَالَ وَمَعْلُومٌ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ أَنَّ فِتْنَةَ الْغِنَا وَالْمَعَازِفِ أَعْظَمُ مِنْ فِتْنَةِ النَّوْحِ بِكَثِيرٍ وَالَّذِى شَاهَدْنَاهُ نَحْنُ

وغيرنا وعرفناه بالتجارب إنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلط عليهم العدو وابتلوا بالقحط والجدب وولاة السوء والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر والله المستعان.

(فصل) قال بن القيم رحمه الله عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: علم لا يعمل به وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء فيه بكتاب الله وسنة رسوله فإنه لا يوفق لهما إذا لم يخلص العمل ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ولا يقدمه أمامه لآخرته وقلب فارغ من محبة الله والشوق إلى لقائه والأنس به وبدن معطل من طاعته وخدمته ومحبته لا يتيقن برضا المحبوب وامتثال أوامره ووقت معطل من استدراك فارط واغتنام بر وقربة وفكر يجول فيما لا ينفع وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ولا تعود عليك

بِصَلَاحِ دُنْيَاكَ وَخَوْفُكَ وَرَجَاؤُكَ لِمَنْ نَاصِيَتُهُ بِيَدِ اللّٰهِ وَهُوَ أَسِيرٌ فِى قَبْضَتِهِ وَلَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاتًا وَلَا نُشُورًا وَأَعْظَمُ هٰذِهِ الْاِضَاعَاتِ إِضَاعَةُ الْقَلْبِ وَإِضَاعَةُ الْوَقْتِ فَاضَاعَةُ الْقَلْبِ عَنِ اللّٰهِ مِنْ إِيثَارِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَإِضَاعَةُ الْوَقْتِ مِنْ طُولِ الْأَمَلِ فَاجْتَمَعَ الْفَسَادُ كُلُّهُ فِى اتِّبَاعِ الْهَوٰى وَطُولِ الْأَمَلِ وَالصَّلَاحُ كُلُّهُ فِى اتِّبَاعِ الْهُدٰى وَالِاسْتِعْدَادِ لِلِقَاءِ اللّٰهِ إِلٰى أَنْ قَالَ وَلِلّٰهِ عَلَى عَبْدِهِ أَمْرٌ أَمَرَهُ بِهِ وَقَضَاءٌ يَقْضِيهِ عَلَيْهِ وَنِعْمَةٌ يُنْعِمُ بِهَا عَلَيْهِ فَلَا يَنْفَكُّ مِنْ هٰذِهِ الثَّلَاثَةِ وَالْقَضَاءُ نَوْعَانِ: إِمَّا مَصَائِبُ وَإِمَّا مَعَايِبُ وَلَهُ عَلَيْهِ عُبُودِيَّةٌ فِى هٰذِهِ الْمَرَاتِبِ كُلِّهَا فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ مَنْ عَرَفَ عُبُودِيَّتَهُ فِى هٰذِهِ الْمَرَاتِبِ كُلِّهَا وَوَفَّاهَا حَقَّهَا فَهٰذَا أَقْرَبُ الْخَلْقِ إِلَيْهِ وَأَبْعَدُهُمْ مِنْهُ مَنْ جَهِلَ عُبُودِيَّتَهُ فِى هٰذِهِ الْمَرَاتِبِ فَعَطَّلَهَا عِلْمًا وَعَمَلًا فَعُبُودِيَّتُهُ فِى الْأَمْرِ امْتِثَالُهُ إِخْلَاصًا وَاقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِى

النَّهى اجْتِنَابه خوفًا منه وإجلالًا وعبوديته فى قضاء المصائب الصبر عليها ثم الرضاء بها وهو أعلى منه ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضا إلى أنْ قال. وقال بشر الحافى أهل الآخرة ثلاثة عابد وزاهد وصديق فالعابد يعبد الله مع العلائق والزاهد يعبده على ترك العلائق والصديق يعبده على الرضا والموافقة إن أراه أخذ الدنيا أخذها وإن أراه تركها تركها وإذا كان الله ورسوله فى جانب فاحذر أن تكون فى الجانب الآخر فإن ذلك يفضى إلى المشاقة والمحادة لله وأكثر الخلق إنما يكونون من الجانب الآخر ولا سيما إذ قويت الرغبة والرهبة فهناك لا تكاد تجد أحدًا فى الجانب الذى فيه الله ورسوله بل الذى يكون فيه يعده الناس ناقصًا سىء الاختيار لنفسه وربما نسبوه إلى الجنون وذلك من مواريث أعداء الرسل فإنهم نسبوهم إلى الجنون لما كانوا فى شق وجانب والناس فى شق وجانب

اخر ولكن من وطن نفسه على ذلك فانه يحتاج إلى علم راسخ
بما جاء به الرسول يكون يقينا له لا ريب عنده وإلى صبر تام
على معادات من عاداه ولوم من لامه ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية
فى الله والدار الآخرة بحيث تكون الآخرة أحب إليه من الدنيا
وآثر عنده منها ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وليس
شىء أصعب على الانسان من ذلك فى مبادىء الأمر فان نفسه وهواه
وطبعه وشيطانه وإخوانه ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه إلى
العاجل فاذا خالفهم تصدوا لحربه فان صبر وثبت جاء العون من
الله وصار ذلك الصعب سهلا وذلك الألم لذة فان الله غفور شكور
وقال بعض الزهاد ما علمت أن أحدا سمع بالجنة والنار تأتى عليه
ساعة لا يطيع الله فيها بذكر او صلاة او قراءة او إحسان . فقال
له رجل إنى أكثر البكاء فقال إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك

خَيْرٌ من أَنْ تَبْكِي وَأَنْتَ مُدِلٌّ بعملِكَ وَإِنَّ المُدْلِي بعمله لاَ يَصْعَدُ عمله فوق رأسه فَقَالَ أَوْصِنِي فقال: دَعِ الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا كَمَا تَرَكُوهُمُ الآخِرَةَ لِأَهْلِهَا وَكُنْ في الدُّنْيَا كالنَّحْلَةِ إِنْ أَكَلَتْ أَكَلَتْ طَيِّبًا وَإِنْ أَطْعَمَتْ أَطْعَمَتْ طَيِّبًا وَإِنْ سَقَطَتْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ تَخْدِشْهُ وَلَمْ تَكْسِرْهُ وَقَالَ بعضُهُمْ إِذَا استَغْنَى النَّاسُ بالدُّنْيَا فَاسْتَغْنِ أَنْتَ باللهِ وَإِذَا فَرِحُوا بالدُّنْيَا فَافْرَحْ أَنْتَ باللهِ وَإِذَا أَنِسُوا بِأَحْبَابِهِمْ فَاجْعَلْ أُنْسَكَ باللهِ وَإِذَا تَعَرَّفُوا إِلَى مُلُوكِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِمْ لِيَنَالُوا بِهِمُ الْعِزَّةَ وَالرِّفْعَةَ فَفِرَّ أَنْتَ إِلَى اللهِ وَتَوَدَّدْ إِلَيْهِ تَنَلْ بِذَلِكَ غَايَةَ الْعِزِّ وَالرِّفْعَةِ السَّيْرُ فِي الدُّنْيَا سَيْرٌ فِي أَرْضٍ مَسْبَعَةٍ وَالسِّبَاحَةُ فِيهَا سِبَاحَةٌ فِي غَدِيرِ التِّمْسَاحِ وَالْمَفْرُوحُ بِهِ مِنْهَا هُوَ عَيْنُ الْمَحْزُونِ عَلَيْهِ آلاَمُهَا مُتَوَلِّدَةٌ مِنْ لَذَّاتِهَا وَأَحْزَانُهَا مِنْ أَفْرَاحِهَا كَيْفَ (١) يَفْرَحُ بِهَا مَنْ لَهُ زَوْجَةٌ لاَ تَرْحَمُه

(١) هذه الفقرة قد تقدمت ولكن لما كان لها مناسبة وهى مهمة اوردناها .

وَوَلَدٌ لَا يَعْذُرُهُ وَجَارٌ لَا يَأْمَنُهُ وَصَاحِبٌ لَا يَنْصَحُهُ وَشَرِيكٌ لَا يُنْصِفُهُ وَعَدُوٌّ لَا يَنَامُ عَنْ مُعَادَاتِهِ وَنَفْسٌ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ وَدُنْيَا مُتَزَيِّنَةٌ وَهَوًى أَمْرَدُ وَشَهْوَةٌ غَالِبَةٌ لَهُ وَغَضَبٌ قَاهِرٌ وَشَيْطَانٌ مُزَيِّنٌ لَهُ فَإِنْ تَوَلَّاهُ اللهُ وَجَذَبَهُ إِلَيْهِ انْقَهَرَتْ لَهُ هٰذِهِ كُلُّهَا وَإِنْ تَخَلَّى عَنْهُ وَوَكَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ فَكَانَتِ الْهَلَكَةُ .

(فَصْلٌ) لَمَّا أَعْرَضَ النَّاسُ عَنْ تَحْكِيمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْمُحَاكَمَةِ إِلَيْهِمَا وَاعْتَقَدُوا عَدَمَ الاكْتِفَاءِ بِهِمَا وَعَدَلُوا إِلَى الآرَاءِ وَالْقِيَاسِ وَالْاسْتِحْسَانِ وَأَقْوَالِ أَهْلِ الْآرَاءِ عَرَضَ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ فَسَادٌ فِي فِطَرِهِمْ وَظُلْمَةٌ فِي قُلُوبِهِمْ وَكَدَرٌ فِي أَفْهَامِهِمْ وَمَحْقٌ فِي عُقُولِهِمْ فَعَمَّتْهُمْ هٰذِهِ الْأُمُورُ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى رَبَا فِيهَا الصَّغِيرُ وَهَرِمَ عَلَيْهَا الْكَبِيرُ فَلَمْ يَرَوْهَا مُنْكَرًا . فَجَاءَتْهُمْ دَوْلَةٌ أُخْرَى أَقَامَتْ فِيهَا الْبِدَعَ مَقَامَ السُّنَنِ وَالْهَوَى مَقَامَ الرُّشْدِ وَالضَّلَالُ مَقَامَ الْهِدَايَةِ وَالْمُنْكَرُ

مَقَامَ الْمَعْرُوفِ وَالْجَهْلُ مَقَامَ الْعِلْمِ وَالرِّيَاءُ مَقَامَ النَّصِيحَةِ وَالظُّلْمُ مَقَامَ الْعَدْلِ فَصَارَتِ الدَّوْلَةُ وَالْغَلَبَةُ لِهَذِهِ الأُمُورِ وَأَهْلُهَا هُمُ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا رَأَيْتَ دَوْلَةَ هَذِهِ الأُمُورِ قَدْ أَقْبَلَتْ وَرَايَاتِهَا قَدْ نُصِبَتْ وَجُيُوشَهَا قَدْ رَكِبَتْ فَبَطْنُ الأَرْضِ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْ ظَهْرِهَا وَقُلَلُ الْجِبَالِ خَيْرٌ مِنَ السُّهُولِ وَمُخَالَطَةُ الْوَحْشِ أَسْلَمُ مِنْ مُخَالَطَةِ النَّاسِ اقْشَعَرَّتِ الأَرْضُ وَأَظْلَمَتِ السَّمَاءُ وَظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْ ظُلْمِ الْفَجَرَةِ وَذَهَبَتِ الْبَرَكَاتُ وَقَلَّتِ الْخَيْرَاتُ وَهَزُلَتِ الْوَحْشُ وَتَكَدَّرَتِ الْحَيَاةُ مِنْ فِسْقِ الظَّلَمَةِ وَبَكَى ضَوْءُ النَّهَارِ وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ مِنَ الأَعْمَالِ الْخَبِيثَةِ وَالأَفْعَالِ الْفَظِيعَةِ وَشَكَا الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ وَالْمُعَقِّبَاتُ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ كَثْرَةِ الْفَوَاحِشِ وَغَلَبَتِ الْمُنْكَرَاتُ وَالْقَبَائِحِ وَهَذَا وَاللهِ مُنْذِرٌ بِسَبِيلِ عَذَابٍ قَدِ انْعَقَدَ غَمَامُهُ وَمُؤْذِنٌ بِلَيْلٍ قَدِ ادْلَهَمَّ ظَلَامُهُ فَاعْزِلُوا عَنْ طَرِيقِ هَذِهِ السُّبُلِ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ مَا دَامَتِ التَّوْبَةُ

مُمكنة وبابها مفتوحا وكأنكم بالباب وقد أغلق وبالرهن وقد غلق وبالجناح وقد علق وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون.

(فصل) قال صلى الله عليه وسلم (ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم) وفى بعض الروايات فى زريبة غنم بأفسد لهما من حرص المرء على المال والشرف لدينه يعنى والله أعلم أن الانسان يفسد دينه لأجل حرصه على المال فيهدم دينه لأجله أو يهضمه أو يخل منه والعياذ بالله لتحسين الشيطان له طرق الغنى ولو بهضم دينه فيفسد من دينه وعقله وسمته أكثر مما يفسد الذئبان الجائعان من زريبة الغنم حين أتياها وهما جائعان ويفسد المرء الثانى من دينه مثل الأول لأجل الشرف كما أن المرء الأول يهدم دينه لأجل المال فهذا لأجل الشرف وكلاهما خاسر فان فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين أتيا غنما وقد غاب عنها رعاؤها فيأكلان

فى الْغَنَمِ وَيَفْتَرِسَانِ فيهَا ومعلوم أَنَّهُ لا يَنْجُو مِنَ الْغَنَمِ من إِفْسَادِ الذِّئْبَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ وَالْحَالَةُ هٰذه إِلاَّ الْقَلِيلُ .

(فَصْلٌ) وكَتَبَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ إِلىٰ أَخٍ لَهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى الدُّنْيَا أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ أَصْبَحْتَ حَرِيصًا عَلَى الدُّنْيَا تَخْدُمُهَا وَهِىَ تُخْرِجُكَ عَنْ نَفْسِهَا بِالْأَعْرَاضِ وَالْأَمْرَاضِ وَالآفَاتِ وَالْعِلَلِ كَأَنَّكَ لَمْ تَرَ حَرِيصًا مَحْرُومًا وَزَاهِدًا مَرْزُوقًا وَلَا مَيِّتًا عَنِ الْكَثِيرِ وَلَا مُتَبَلِّغًا مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ إِنَّمَا فَضْلُ الْعِلْمِ لِأَنَّهُ يُتَّقَى بِهِ اللهُ وَإِلاَّ كَانَ كَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ فَإِذَا طُلِبَ بِشَىْءٍ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا الْفَانِى فَهُوَ أَيْضًا نَوْعَانِ إِحْدَاهُمَا أَنْ يَطْلُبَ بِهِ الْمَالَ فَهٰذَا مِنْ نَوْعِ الْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَطَلَبُهُ بِالْأَسْبَابِ الْمُحَرَّمَةِ وَفِى الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يَعْنِى رِيحَهَا خَرَّجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ . وَقَالَ بَعْضُ

السَّلَف لَمَّا ذَكَرَ الأَمَانَة واللهُ تعالى قد استودعَ الخَلْق ودائعَ مِنها السَّمعُ والبَصرُ والفَرْجُ والجَوارِحُ كُلُّها ودائعُ فمِنَ الخَلْقِ مَنْ يستعملُها في الطَّاعةِ وتكونُ عندَه كالعاريةِ يُحْسِنُ فيها ولا يستعملُها إلاَّ فيما استُعيرتْ له فإنَّها عاريةٌ من وجهٍ ووديعةٌ من وجهٍ وكذلك المالُ فإنَّه على هذا المنوال فمَنْ صرفه في وجوهِ الخيراتِ وفي التَّقوى على العبادةِ فهذا ممَّن صرفها في مصرفها الشَّرعيِّ ومن تعدَّى فيها ومنعَ حقوقَها وبذلها في غيرِ وجوهِها كانَ له نصيبٌ من قولِه تعالى (والَّذين كفروا يتمتَّعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ والنَّارُ مثوى لهُمْ) وروى الإمامُ أحمدُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال (مَنْ سكنَ البادية جفا ومن اتَّبعَ الصَّيدَ غفلَ ومَنْ أتى السُّلطانَ افتتنَ) وقال بعضُهم الإنسانُ في هذه الحياةِ القليلةِ عرضةٌ للحوادثِ ومتقلَّباتِ الأحوالِ فطورًا صغيرًا ليسَ عليه من التَّكاليفِ شيءٌ وطورًا كبيرًا

ويوماً غنياً ويوماً فقيراً ويوماً مريضاً وحيناً صحيحاً وتارة مقيماً وتارة مسافراً وقدرته على التكاليف وعجزه عنها يختلفان باختلاف حاله فأولاً صغيراً ليس عليه من التكاليف شيء ثم ينتقل من حال إلى حال فطفولة ثم مميز ثم مرهق ثم بلوغ ثم شباب ثم كهولة ثم أشيب ثم بعد ذلك العدم وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول ياليتني كنت مكانه) وعن أبي قتادة بن ربعي أنه كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (مر عليه بجنازة فقال مستريح ومستراح منه قالوا يا رسول الله فما المستريح والمستراح منه قال العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب) وقد قال ابن عباس رضى الله عنه قوله (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة

إلَّا أَحْصَاهَا) قَالَ الصَّغِيرَةُ التَّبَسُّمُ وَالْكَبِيرَةُ الضَّحِكُ وَفِى الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ (إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَانَّ لَهَا مِنَ اللهِ طَالِبًا وَإِنَّهُ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَمَّا رَأَى الْفِتَنَ وَهُوَ عُرْوَةُ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَمَّا قِيلَ لَهُ مَالَكَ قَدْ جَفَوْتَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ بَنَا لَهُ قَصْرَهُ بِالْعَقِيقِ قَالَ : إِنِّى رَأَيْتُ مَسَاجِدَكُمْ لَاهِيَةً وَأَسْوَاقَكُمْ لَاغِيَةً وَالْفَاحِشَةَ فِى فِجَاجِكُمْ بَادِيَةً وَكَانَ فِيمَا هُنَالِكَ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ عَافِيَةٌ . وَقَالَ أَبُو طَاهِرٍ وَعُوتِبَ عُرْوَةُ فِى ذَلِكَ فَقَالَ وَمَا بَقِىَ إِنَّمَا بَقِىَ شَامِتٌ مُتَكَبِّرٌ أَوْ حَاسِدٌ عَلَى نِعْمَةٍ وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ يُعْطَى الْمَرْءُ عَلَى نِيَّتِهِ مَالَا يُعْطَى عَلَى عَمَلِهِ لأَنَّ النِّيَّةَ لَا رِيَاءَ فِيهَا .

وَقَالَ لِلْمُرَائِى ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ يَكْسَلُ إِذَا كَانَ وَحْدَهُ وَيَنْشَطُ إِذَا كَانَ فِى النَّاسِ وَيَزِيدُ فِى الْعَمَلِ إِذَا أُثْنِىَ عَلَيْهِ وَيَنْقُصُ إِذَا ذُمَّ . وَعَنْ رِبْعِىِّ بْنِ خِرَاشٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِى عَلَى عَمَلٍ يُحِبُّنِى اللهُ عَلَيْهِ وَيُحِبُّنِى النَّاسُ عَلَيْهِ . فَقَالَ (أَمَّا الْعَمَلُ الَّذِى يُحِبُّكَ اللهُ عَلَيْهِ فَازْهَدْ فِى الدُّنْيَا . وَأَمَّا الْعَمَلُ الَّذِى يُحِبُّكَ عَلَيْهِ النَّاسُ فَانْظُرْ هٰذَا الْحُطَامَ فَانْبِذْهُ إِلَيْهِمْ) وَخَرَّجَهُ ابْنُ أَبِى الدُّنْيَا فِى كِتَابِ ذَمِّ الدُّنْيَا وَقَدِ اشْتَمَلَ هٰذَا الْحَدِيثُ عَلَى وَصِيَّتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا الزُّهْدُ فِى الدُّنْيَا وَأَنَّهُ مُقْتَضٍ لِمَحَبَّةِ اللهِ لِعَبْدِهِ . وَالثَّانِى الزُّهْدُ فِيمَا فِى أَيْدِى النَّاسِ فَإِنَّهُ مُقْتَضٍ لِمَحَبَّةِ النَّاسِ . وَأَمَّا الزُّهْدُ فِى الدُّنْيَا فَقَدْ كَثُرَ فِى الْقُرْآنِ مَدْحُهُ وَكَذَا ذَمُّ الرَّغْبَةِ فِى الدُّنْيَا قَالَ تَعَالَى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وَقَالَ تَعَالَى (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ) وَالآيَاتُ فِى مَدْحِ الزُّهْدِ فِى الدُّنْيَا وَالتَّقَلُّلِ مِنْهَا كَثِيرَةٌ قَالَ تَعَالَى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ) وَقَالَ تَعَالَى (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) وَقَالَ

تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا
لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا) وَقَالَ تَعَالَى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ
الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ
عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) أَىْ إِسْرَافًا وَقَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ ضِيَاعًا
وَالْآيَاتُ فِى ذَمِّ الدُّنْيَا وَحَقَارَتِهَا كَثِيرَةٌ جِدًّا وَإِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمُ الْأَقَلُّونَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْنِى الْأَكْثَرِينَ فِى الدُّنْيَا مِنَ الْمَعَاصِى هُمُ الْأَقَلُّونَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ تَارَةً بِالْمَالِ فِى كَسْبِهِ وَصَرْفِهِ وَتَارَةً بِكَثْرَةِ الْفُجُورِ وَتَارَةً
بِالتَّعَدِّى عَلَى النَّاسِ فِى أَعْرَاضِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَتَارَةً بِالظُّلْمِ وَفِيهِمْ
مَنْ هُوَ بِالْاحْتِقَارِ وَالتَّكَبُّرِ وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَاتِ وَمِنْهُمْ
مَنْ هُوَ يَفْعَلُ الْفَوَاحِشَ مِنَ الزِّنَا وَاللِّوَاطِ وَالسَّرِقَةِ وَأَقْوَالِ الزُّورِ
وَشَهَادَةِ الزُّورِ فَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ بِأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَبِ جَرَائِمِهِمْ

وَأَفْعَالِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ مُقِلِّينَ مِنَ الْأَعْمَالِ مُثْقَلِينَ مِنَ الْأَوْزَارِ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ فَالدُّنْيَا لَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَوْ كَانَتْ تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ.

(فَصْلٌ) ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِالسُّوقِ وَالنَّاسُ كَنَفِيهِ يَعْنِي مُكْتَنِفِيهِ فَمَرَّ بِجَدْيٍ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ فَقَالَ (أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هٰذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ فَقَالُوا مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ فَقَالَ أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ قَالُوا وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا لَمَا رَغِبْنَا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ فَقَالَ (وَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هٰذَا عَلَيْكُمْ) وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا تَرْجِعُ) وَمَعْنَى الزُّهْدِ فِي الشَّيْءِ الْإِعْرَاضُ عَنْهُ

لاستغلاله واحتقاره وارتفاع الهمة عنه وقال أبو مسلم الخولانى رضى الله عنه : ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال إنما الزهادة فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يديك وإذا أصبت بمصيبة كنت أشد رجاء لأجرها وذخرها من إياها لو بقيت لك وعن على وابن مسعود رضى الله عنهما قالا إن أرجى ما يكون الرزق إذا قالوا اليس فى الدنيا دقيق وقال الامام أحمد أشد أيامى إلى أن أصبح وليس عندى شىء وقيل لأبى حازم الزاهد : مالك قال : مالى مالان لا أخشى معهما الفقر الثقة بالله واليأس مما فى أيدى الناس وكان عطاء الخرسانى رحمه الله لا يقوم من مجلسه حتى يقول اللهم هب لنا يقينا منك حتى تهون علينا مصائب الدنيا وحتى نعلم أنه لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا وقال على رضى الله عنه : من زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ولهذا

يقالُ الزَّاهدُ (١) فى الرِّيَاسة أشدُّ منه فى الذهب والفضة فمن أخرج من قلبه حبّ الرِّياسة فى الدُّنيا والترفع فيها على النّاس فهو الزّاهد حقًّا وهو الذى يستوى عنده حامده وذامه فى الحق وروى ابن أبى الدنيا عن الضحّاك بن مزاحم قال: أتى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم رجل فقال يا رسول الله من أزهد الناس فقال (من لم ينس القبر والبلى وترك زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غدا من أيامه وعد نفسه من الموتى) وهذا نهاية الزهد فيها والاعراض عنها واستدل ابن عيينة لهذا بقوله تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. إلى قوله لتجدنهم أحرص الناس على حياة) الآية. وقال أبو سليمان الدارانى اختلفوا علينا فى الزهد بالعراق فمنهم من قال الزهد فى ترك

(١) يعنى ان الزهد فى الرياسة اكلف على النفوس من الزهد فى الذهب والفضة.

لقاء النَّاس وَمِنْهُم مَنْ قَالَ فِى تَرْكِ الشَّهَوَاتِ وَمِنْهُم مَنْ قَالَ فِى تَرْكِ الشّبعِ وَكُلّ مِنْهُم قَرِيبٌ بَعْضه مِنْ بَعْضٍ قَالَ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الزُّهْد فِى تَرْكِ مَا شَغَلَكَ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِى قَالَهُ أَبُو سُلَيمَانَ حَسَنٌ وَهُوَ يَجْمَعُ جَمِيعَ مَعَانِى الزُّهْدِ وَأَقْسَامِهِ وَأَنْوَاعِهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الذَّمَّ الْوَارِدَ فِى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِلدُّنْيَا لَيْسَ هُوَ رَاجِعًا إِلَى زَمَانِهَا الَّذِى هُوَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ الْمُتَعَاقِبَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَهُمَا خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً وَيُرْوَى عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ إِنَّ هٰذَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِزَانَتَانِ فَانْظُرُوا مَا تَضَعُوهُ فِيهِمَا وَكَانَ يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اعْمَلُوا اللَّيْلَ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَالنَّهَارَ لِمَا خُلِقَ لَهُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا يَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ قَدْ دَخَلْتُ عَلَيْكَ وَلَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَعْمَلُ فِىَّ فَإِذَا انْقَضَى طُوِىَ ثُمَّ يُخْتَمُ فَلَا يُفَكُّ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِى يَفُكُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَلَا لَيْلَة إِلَّا تَقُولُ كَذٰلِكَ وَلَيْسَ الذَّمُّ رَاجِعًا إِلَىٰ مَكَانِ الدُّنْيَا الَّذِى هُوَ الْأَرْضُ الَّتِى جَعَلَهَا اللهُ لِبَنِى آدَمَ مِهَادًا وَمَسْكَنًا وَلَا إِلَىٰ مَا أُودِعَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَعَادِنِ وَلَا إِلَىٰ مَا أَنْبَتَهُ فِيهَا مِنَ الزَّرْعِ وَلَا إِلَى مَا بُثَّ فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَإِنَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَلَهُمْ فِيهِ مِنَ الْاعْتِبَارِ وَالْاسْتِدْلَالِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ صَانِعِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَإِنَّمَا الذَّمُّ رَاجِعٌ إِلَىٰ أَفْعَالِ بَنِى آدَمَ الْوَاقِعَةِ فِى الدُّنْيَا لِأَنَّ غَالِبَهَا وَاقِعٌ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِى تُحْمَدُ عَاقِبَتُهُ بَلْ يَقَعُ عَلَى مَا تَضُرُّ عَاقِبَتُهُ وَلَا تَنْفَعُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ، إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا)

(فَصْلٌ) وَانْقَسَمَ بَنُو آدَمَ فِى الدُّنْيَا إِلَىٰ قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا مَنْ أَنْكَرَ

أَنْ يَكُونَ لِلعِبَادِ دَارٌ بَعْدَ الدُّنْيَا لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَهٰؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَهُمْ أَيْضًا أَهْلُ التَّمَتُّعِ فِي الدُّنْيَا بِاغْتِنَامِ لَذَّاتِهَا قَبْلَ الْمَوْتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ كَانَ يَأْمُرُ بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّهُ يَرَى الْاسْتِكْثَارَ مِنْهَا يُوجِبُ الْهَمَّ وَالْغَمَّ وَيَقُولُ كُلَّمَا كَثُرَ التَّعَلُّقُ بِهَا تَأَلَّمَتِ النَّفْسُ بِمُفَارَقَتِهَا لَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ فَكَانَ هٰذَا غَايَةَ زُهْدِهِمْ فِي الدُّنْيَا فَحُرِمُوا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَوْ كَانَ هٰذَا التَّقَلُّلُ وَالتَّزَهُّدُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ لَحَصَلَتْ لَهُ رَاحَةُ قَلْبِهِ وَبَدَنِهِ وَحَصَلَ لَهُ السُّرُورُ الْأَبَدِيُّ وَالنَّعِيمُ السَّرْمَدِيُّ وَلٰكِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ تَعَالَى (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) فَلَا يَأْتُونَ إِلَيْهَا

مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ .

(فَصْلٌ) قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الآخِرَةِ وَكُلَّمَا قَوِيَتِ الْمَعْرِفَةُ بِاللهِ وَالْأُنْسُ بِهِ كَانَتِ النَّفْسُ مُطْمَئِنَّةً فَاسْتَرَاحَتْ مِنْ عَنَاءِ الدُّنْيَا وَهُمُومِهَا وَغُمُومِهَا وَأَقْبَلَتْ عَلَى مَرَاضِي رَبِّهَا وَفَاطِرِهَا فَهِيَ فِي وَادِي الْمَحَبَّةِ وَالسُّرُورِ وَالنَّاسُ فِي وَادِي الْعَنَاءِ وَالْغُرُورِ . وَالْقِسْمُ الثَّانِي مَنْ يُقِرُّ بِدَارٍ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَهُمُ الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى شَرَائِعِ الْمُرْسَلِينَ وَهُمْ مُنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمُقْتَصِدٌ وَسَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ هُمُ الْأَكْثَرُونَ مِنْهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ وَاقِفٌ مَعَ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا فَأَخَذَهَا مِنْ غَيْرِ حَقِّهَا وَاسْتَعْمَلَهَا فِي غَيْرِ وَجْهِهَا وَصَارَتِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّهِ بِهَا يَرْضَى وَلَهَا يَغْضَبُ وَلَهَا يُوَالِي وَعَلَيْهَا يُعَادِي وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالزِّينَةِ

وَالتَّفَاخُرِ وَالتَّكَاثُرِ وَكُلُّهم لَمْ يَعْرِفُوا المَقْصُودَ مِنَ الدنيا وَلا أَنَّهَا مَنْزِلَةُ سَفَرٍ يَتَزَوَّدُ مِنْهَا لِمَا بَعْدَهَا وَأَنَّهَا أَحَدُ الدُّورِ الثَّلاثِ الَّتِي هِيَ مَنَازِلُ الْعِبَادِ فَدَارُ الدُّنْيَا مَزْرَعَةٌ لِدَارِ الْبَرْزَخِ وَلِلدَّارِ الَّتِي بَعْدَهَا وَهِيَ دَارُ الآخِرَةِ فَمَنْ زَرَعَ فِي هٰذِهِ الدَّارِ وَجَدَهُ فِي الدَّارَيْنِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ أَحْوَجَ مِنَ الظَّمْآنِ فِي الْيَوْمِ الصَّائِفِ إِلَى الْمَاءِ الْبَارِدِ. فَمَنْ زَرَعَ الْحُبُوبَ وَمَا سَقَاهَا تَأَوَّهَ نَادِمًا يَوْمَ الْحَصَادِ. وَمَنْ فَرَّطَ نَدِمَ وَلَا يَنْفَعُهُ يَوْمَئِذٍ النَّدَمُ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

(فَصْلٌ) وَالْمَعَاصِي وَالذُّنُوبُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا صَغَائِرُ وَهِيَ لَا يَسْلَمُ مِنْهَا أَحَدٌ وَمِنْهَا كَبَائِرُ تُوبِقُ صَاحِبَهَا فِي الْإِثْمِ وَلَا تُكَفَّرُ عَنْهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا وَالنَّدَمِ عَلَى مَا فَاتَ وَالْعَزِيمَةِ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ وَمِنْ أَشَدِّهَا وَهِيَ الْفَاشِيَةُ بَيْنَ النَّاسِ الْغِيبَةُ وَالنَّمِيمَةُ وَالْبُهْتُ وَالسُّخْرِيَةُ مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وَالْاحْتِقَارُ وَالْازْدِرَاءُ لِمَنْ دُونَهُ وَقَدْ تَكُونُ كَبِيرَةً وَقَدْ

تكون صغيرة بحسب ما يقوم بالقلب والفعل ولكن الادمان على الصغيرة يصيرها كبيرة فقد يرى الشخص الزيادة على أخيه فيعجب بنفسه فتجده يأنف من أن يجلس إلى جنبه ضعيف أو رث الهيئة ولم يعلم المسكين أنه رب مبيض لثيابه مدنس لدينه وعرضه فأى شيء يجدى جمال الظاهر مع خراب الباطن قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم (يا أيها الناس إنما الناس رجلان مؤمن تقى كريم على الله أو فاجر شقى هين على الله فلا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى) فما هذا التفاخر وما هذ التطاول وما هذه الخصال المذمومة هذا يفتخر بجاهه وهذا بماله وهذا برياسته وهذا بمشاتمته وهذا يقذف هذا وهذا بالغيبة وهذا بالنميمة وهذا يجمع بين الخصال المذمومة مرة

وَبَعْضَهَا أُخْرَى فَمَهْمَا وَافَقَ هَوَاهُ أَوْ سَنَحَ بِبَالِهِ ارْتَكَبَهُ فَهُوَ سَيِّئُ السَّجِيَّةِ خَبِيثُ الطَّوِيَّةِ وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَفِضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ) وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ قِيلَ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ قَالَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ) وَيَكْفِي فِي الزَّجْرِ عَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) وَأَمَّا النَّمِيمَةُ فَفِي الْحَدِيثِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ وَفِي لَفْظِ النَّمِيمَةُ وَالْحِقْدُ فِي النَّارِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ مُسْلِمٍ وَوَرَدَ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ أَنَّ ثُلُثَ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ النَّمِيمَةِ وَثُلُثًا مِنَ الْغِيبَةِ وَثُلُثًا مِنْ عَدَمِ التَّنَزُّهِ

مِنَ الْبَوْلِ .

(فَصْلٌ) وَمِنَ الْأُمُورِ الْمُحَرَّمَةِ : الْغِنَاءُ وَاسْتِمَاعُهُ وَضَرْبُ الْعُودِ وَاسْتِمَاعُهُ وَالزَّمْرُ وَضَرْبُ الآلاتِ الْمُطْرِبَةِ قَالَ تَعَالَى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) فَسَّرَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ بِالْمَلَاهِى وَقَالَ تَعَالَى (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)قَالَ مُجَاهِدٌ بِالْغِنَا وَالْمَزَامِيرِ وَعَنْ أَبِى أُمَامَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ اللهَ بَعَثَنِى هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَمَرَنِى بِمَحْقِ الْمَزَامِيرِ وَالْمَعَازِفِ وَالْأَوْتَارِ وَالصَّلِيبِ وَأَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَقَالَ أُمِرْتُ بِكَسْرِ الطَّبْلِ وَالْمَزَامِيرِ وَقَالَ أَيْضًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِى الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ

ٱلْبَقْلَ وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَوْتَانِ مَلْعُونَانِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ صَوْتٌ عِنْدَ نَغْمَةٍ وَصَوْتٌ عِنْدَ مُصِيبَةٍ) وَبِالْجُمْلَةِ فَكُلُّ لَهْوٍ مُحَرَّمٍ يَحْرُمُ فِعْلُهُ وَاسْتِمَاعُهُ أَمَّا لَهْوُ الرَّجُلِ مَعَ زَوْجَتِهِ وَنَحْوِهَا فَلَا يَدْخُلُ فِى ذَٰلِكَ.

(فَصْلٌ) قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ مَنْ بَلَغَ غَايَةَ مَا يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ وَالَّذِى بَشَّرَ أُمَّتَهُ بِفَتْحِ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ هُوَ الَّذِى حَذَّرَهُمْ مِنَ الاغْتِرَارِ بِزَهْرَتِهَا وَخَوَّفَهُمْ مِنَ الافْتِتَانِ بِخُضْرَتِهَا وَزَهْرَتِهَا وَحَلَاوَتِهَا وَأَخْبَرَهُمْ بِسُرْعَةِ زَوَالِهَا وَخَرَابِهَا وَفَنَائِهَا وَأَنَّ أَمَامَهُمْ دَارًا لَا تَنْقَطِعُ خُضْرَتُهَا وَحَلَاوَتُهَا وَبَهْجَتُهَا فَمَنْ وَقَفَ مَعَ زَهْرَةِ هٰذِهِ الْعَاجِلَةِ انْقَطَعَ عَنِ الرَّكْبِ وَهَلَكَ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى الدَّارِ الَّتِى أُمِرَ بِالاسْتِعْدَادِ لَهَا الَّتِى فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ وَأَمَّا نَظْرَةُ هٰذِهِ الْعَاجِلَةِ وَحَرَامِهَا وَعِقَابِهَا فَهِىَ كَشَجَرَةِ الدِّفْلَى تُعْجِبُ مَنْ رَآهَا وَتَقْتُلُ مَنْ أَكَلَهَا وَعَمَّا قَلِيلٍ تُطْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا

طعمت قال صلى الله عليه وسلم (أعذر الله إلى من بلغه الستين من عمره) وفى الترمذى أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك . وفى بعض الكتب السالفة أن لله مناديا ينادى كل يوم أبناء الخمسين زرع دنا حصاده أبناء الستين هلموا إلى الحساب أبناء السبعين ماذا قدمتم وماذا أخرتم .

إذا ما أتتك الأربعون فعندها

فاخش الاله وكن للموت حذارا

(فصل) أبناء العشرين كم مات من أقرانكم وتخلفتم . أبناء الثلاثين أصبتم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتم . أبناء الأربعين ذهب الصبا وأنتم على اللهو قد عكفتم . يا أبناء الخمسين تنصفتم المئة وما أنصفتم . يا أبناء الستين أنتم على معترك المنايا قد أشرفتم أتلهون وتلعبون لقد أسرفتم . قال الفضيل لرجل : كم أتى عليك قال : ستون

سَنَةً قَالَ لَهُ أَنْتَ مُنْذُ سِتِّينَ سَنَةً تَسِيرُ إِلَىٰ رَبِّكَ يُوشِكُ أَنْ تَصِلَ يَا مَنْ يَفْرَحُ بِكَثْرَةِ مُرُورِ السِّنِينَ عَلَيْهِ إِنَّمَا تَفْرَحُ بِنَقْصِ عُمُرِكَ .

وَإِنَّ امْرَءًا قَدْ سَارَ سِتِّينَ حِجَّةً إِلَىٰ مَنْهَلٍ مِنْ وِرْدِهِ لَقَرِيبُ

(فَصْلٌ) يَا مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ سَنَةٌ بَعْدَ سَنَةٍ وَهُوَ مُشْتَغِلٌ فِى نَوْمِ الْغَفْلَةِ وَالسِّنَةِ يَا مَنْ يَأْتِى عَلَيْهِ عَامٌ بَعْدَ عَامٍ وَقَدْ غَرِقَ فِى بَحْرِ الْخَطَايَا وَعَامَ يَا مَنْ يُشَاهِدُ الآيَاتِ وَالْعِبَرَ كُلَّمَا تَوَالَتْ عَلَيْهِ الْأَعْوَامُ وَالشُّهُورُ وَيَسْمَعُ الآيَاتِ وَالسُّوَرِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِمَا يَسْمَعُ وَلَا بِمَا يَرَىٰ مِنْ عَظَائِمِ الْأُمُورِ مَا الْحِيلَةُ فِى مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ .

شِعْرِى خَلِيلَيَّ كَمْ مِنْ مَيِّتٍ قَدْ حَضَرْتُهُ

وَلٰكِنَّنِى لَمْ أَنْتَفِعْ بِحُضُورِى

وَكَمْ مِنْ لَيَالٍ قَدْ أَرَتْنِى عَجَائِبًا لَهُنَّ وَأَيَّامٍ خَلَتْ وَشُهُورٍ

(فصل) كان آخر خطبة خطبها النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر حذر فيها من زهرة الدنيا ففي الصحيحين عن عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فقال (إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم) قال عقبة فكان آخر ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وفي صحيح مسلم عن عبد الله ابن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم أي قوم أنتم فقال عبد الرحمن بن عوف نقول كما أمرنا الله عز وجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون . وفي المسند عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى

يَوْمِ الْقِيَامَةِ) قَالَ عُمَرُ أَنَا أَشْفَقُ مِنْ ذٰلِكَ . وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ أَبِى ذَرٍّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَكَلَتْنَا الضَّبُعُ يَعْنِى السَّنَةَ وَالْجَدْبُ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (غَيْرُ ذٰلِكَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ حِينَ تُصَبُّ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا فَلَيْتَ أُمَّتِى لَا تَلْبَسُ الذَّهَبَ) وَفِى رِوَايَةِ الدِّيبَاجَ وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْفَقْرَ وَلٰكِنِّى أَخْشَى عَلَيْكُمُ التَّكَاثُرَ) وَعَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (أَالْفَقْرَ تَخَافُونَ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتُصَبَّنَّ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا حَتَّى لَا يَزِيغَ قَلْبُ أَحَدِكُمْ إِنْ زَاغَهُ إِلَّا هِىَ) وَفِى التِّرْمِذِىِّ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِى الْمَالُ)

(فَصْلٌ) وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ رَغْبَتُهُمْ فِى الدُّنْيَا لِشَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَلَذَّاتِهِمُ الْفَانِيَةِ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى مَا أَمَامَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ وَهُمْ

أَهْلُ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَكُلُّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الْمَقْصُودَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَنَّهَا دَارُ سَفَرٍ يَتَزَوَّدُ مِنْهَا لِمَا بَعْدَهَا مِنْ دَارِ الْإِقَامَةِ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُؤْمِنُ بِذَلِكَ إِيمَانًا مُجْمَلًا فَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ مُفَصَّلًا وَلَا ذَاقَ مَا ذَاقَهُ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ فِي الدُّنْيَا مِمَّا هُوَ أُنْمُوذَجٌ مِمَّا ادَّخَرَهُ اللهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَالْمُقْتَصِدُ مِنْهُمْ أَخَذَ الدُّنْيَا مِنْ وُجُوهِهَا الْمُبَاحَةِ وَأَدَّى وَاجِبَاتِهَا وَأَمْسَكَ لِنَفْسِهِ الزَّائِدَ عَلَى الْوَاجِبِ يَتَوَسَّعُ بِهِ فِي التَّمَتُّعِ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَهُؤُلَاءِ قَدِ اخْتُلِفَ فِي دُخُولِهِمْ فِي اسْمِ الزُّهَّادِ فِي الدُّنْيَا كَمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ وَلَا عِقَابَ عَلَيْهِمْ فِي الْمُبَاحِ مِنْهُ وَلَكِنْ يَنْقُصُ مِنْ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بِقَدْرِ تَوَسُّعِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ لَا يُصِيبُ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا نَقَصَ مِنْ دَرَجَاتِهِ عِنْدَ اللهِ وَإِنْ كَانَ عَلَى اللهِ كَرِيمًا خَرَّجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَرُوِيَ مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ بِإِسْنَادِهِ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَكَسَاهُ فَخَرَجَ

فمرّ على أبي مسعود الأنصارى ورجل آخر من الصحابة رضى الله عنهم فقال أحدهما خذها من حسناتك وقال الآخر خذها من طيباتك . وروى عن عمر رضى الله عنه قال : لولا أن تنقص من حسناتى لخالطتكم فى لين عيشكم ولكن سمعت الله عيّر قوما فقال (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) وقال الفضيل بن عياض : إن شئت استقل من الدنيا وإن شئت استكثر منها فانما تأخذ من كيسك . وقال بعض السلف عند قوله تعالى (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أيهم أزهد فى الدنيا وأرغب فى الآخرة وجعل ما فى الدنيا من البهجة والنضرة لينظر من يقف منهم معه ويركن إليه ومن ليس كذلك فصار الناس فى ذلك أقساما فمنهم من جعل الهموم هما واحدا فاكتفوا من الدنيا بما يكتفى المسافر فى سفره كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول

(مَالِى وَالدُّنْيَا إِنَّمَا مَثَلِى وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ قَالَ فِى ظِلِّ دَوْحَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) وَوَصَّى النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ أَنْ يَكُونَ بَلَاغُ أَحَدِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ رَاكِبٍ مِنْهُمْ سَلْمَانُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ ابْنُ الْجَرَّاحِ وَأَبُو ذَرٍّ وَعَائِشَةُ وَوَصَّى ابْنَ عُمَرَ أَنْ يَكُونَ فِى الدُّنْيَا كَأَنَّهُ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وَأَنْ يعد نَفْسَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ وَأَهْلُ هٰذِهِ الدَّرَجَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِدُ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى قَدْرِ مَا يَسُدُّ الرَّمَقَ فَقَطْ وَهُوَ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ الزُّهَّادِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْسَحُ لِنَفْسِهِ أَحْيَانًا فِى تَنَاوُلِ بَعْضِ شَهَوَاتِهَا الْمُبَاحَةِ لِتَقْوَى النَّفْسُ وَتَنْشَطُ لِلْعَمَلِ كَمَا رُوِىَ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (حُبِّبَ إِلَىَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلَاةِ) خَرَّجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَفِى حَدِيثِ أَبِى الدَّرْدَاءِ مَرْفُوعًا (الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا ابْتُغِىَ بِهِ وَجْهُ اللهِ) وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: مَكْتُوبٌ فِى حِكْمَةِ

دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ سَاعَةٍ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَسَاعَةٍ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٍ يَلْقَى فِيهَا إِخْوَانَهُ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بِعُيُوبِهِ وَيَصْدُقُونَهُ عَنْ نَفْسِهِ وَسَاعَةٍ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّاتِهَا فِيمَا يَحِلُّ . فَالدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِعْمَتِ الدَّارُ الدُّنْيَا لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا لِآخِرَتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ رَبُّهُ وَبِئْسَتْ لِمَنْ صَدَّتْهُ عَنْ آخِرَتِهِ وَقَصَّرَتْ بِهِ عَنْ رِضَا رَبِّهِ وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ قَبَّحَ اللهُ الدُّنْيَا قَالَتْ قَبَّحَ اللهُ أَعْصَانَا لِرَبِّهِ .

(فَصْلٌ) قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي بَعْضِ كَلَامٍ لَهُ فِيمَنْ يَفْرَحُ بِالدُّنْيَا وَقَدْ أَذِنَتْ بِفِرَاقِهَا وَنَادَتْ بِعَيْبِهَا وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا فَمَثَّلَتْ بِبَلَائِهَا الْبِلَى وَشَوَّقَتْ بِسُرُورِهَا إِلَى أَهْلِ السُّرُورِ فَذَمَّهَا قَوْمٌ عِنْدَ النَّدَامَةِ وَمَدَحَهَا آخَرُونَ حَدَّثَتْهُمْ فَصَدَقُوا وَذَكَّرَتْهُمْ[1] فَذَكَرُوا

---

(١) يعنى من اللوم .

فَيَا أَيُّهَا الْمُغْتَرُّ بِالدُّنْيَا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا مَتَى اسْتَلَامَتْ إِلَيْكَ الدُّنْيَا بَلْ مَتَى غَرَّتْكَ بِمَضَاجِعِ آبَائِكَ تَحْتَ الثَّرَى أَمْ بِمَصَارِعِ أُمَّهَاتِكَ مِنَ الْبِلَى كَمْ قَلَّبْتَ بِكَفَّيْكَ مَنْ تَطْلُبُ لَهُ الشِّفَاءَ وَتَسْأَلُ لَهُ الْأَطِبَّاءَ فَلَمْ تَظْفَرْ بِحَاجَتِكَ وَلَمْ تُسْعَفْ بِطَلِبَتِكَ قَدْ مَثَّلَتْ لَكَ الدُّنْيَا بِمَصْرَعِهِمْ مَصْرَعَكَ غَدًا وَلَا يُغْنِي عَنْكَ بُكَاؤُكَ وَلَا يَنْفَعُكَ أَحِبَّاؤُكَ انْتَهَى وَأَمَّا مَاذُكِرَ مِنْ أَنَّهَا تَغُرُّ وَتَخْدَعُ فَإِنَّهَا تُنَادِي بِمَوَاعِظِهَا وَتَفْصَحُ بِعِبَرِهَا وَتُبْدِي عُيُوبَهَا بِمَا تُرَى مِنْ أَهْلِهَا مِنْ مَصَارِعِ الْهَلْكَى وَتَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ مِنَ الصِّحَّةِ إِلَى السَّقَمِ وَمِنَ الشَّبِيبَةِ إِلَى الْهَرَمِ وَمِنَ الْغِنَى إِلَى الْفَقْرِ وَمِنَ الْعِزِّ إِلَى الذُّلِّ وَلٰكِنْ مُحِبُّهَا قَدْ أَصَمَّهُ وَأَعْمَاهُ حُبُّهَا فَهُوَ لَا يَسْمَعُ نِدَاءَهَا وَلَا يَسْتَفِيقُ مِنْ سُكْرِهَا وَعَنَائِهَا. قَالَ يَحْيَى ابْنُ مُعَاذٍ رَحِمَهُ اللهُ: لَوْ يَسْمَعُ الْخَلَائِقُ صَوْتَ النِّيَاحَةِ عَلَى الدُّنْيَا فِي الْمَغِيبِ مِنْ أَلْسِنَةِ الْفَنَا لَتَسَاقَطَتِ الْقُلُوبُ حَزَنًا. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:

الدُّنْيَا مِثَالٌ تَضْرِبُهَا الأَيَّامُ لِلْأَنَامِ وَعِلْمُ الزَّمَانِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَرْجُمَانٍ وَبِحُبِّ الدُّنْيَا صَمَّتْ أَسْمَاعُ القُلُوبِ عَنِ المَوَاعِظِ وَأَهْلُ الزُّهْدِ فِي فُضُولِ الدُّنْيَا أَقْسَامٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَحْصُلُ لَهُ فَيُمْسِكُهُ وَيَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللهِ كَمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ وَقَدْ قَالَ الحَسَنُ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ القَلْبَ وَالبَدَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَخَافُ أَنْ يَنْقُصَ حَظُّهُ مِنَ الآخِرَةِ بِأَخْذِ فُضُولِ الدُّنْيَا وَمِنْهُمْ مَنْ يَخَافُ مِنْ طُولِ الحِسَابِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْهَدُ كَثْرَةَ عُيُوبِهَا وَسُرْعَةَ تَقَلُّبِهَا وَفَنَائِهَا وَمُزَاحَمَةَ الأَرَاذِلِ فِي طَلَبِهَا كَمَا قِيلَ لِبَعْضِهِمْ مَا الَّذِي زَهَّدَكَ فِي الدُّنْيَا قَالَ: قِلَّةُ وَفَائِهَا وَكَثْرَةُ جَفَائِهَا وَخِسَّةُ شُرَكَائِهَا وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى حَقَارَةِ الدُّنْيَا عِنْدَ اللهِ فَيَذَرُهَا كَمَا قَالَ الفُضَيْلُ: لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا عُرِضَتْ عَلَيَّ حَلَالًا وَلَا حِسَابَ فِيهَا فِي الآخِرَةِ لَكُنْتُ أَتَقَذَّرُهَا كَمَا يَتَقَذَّرُ الرَّجُلُ الجِيفَةَ إِذَا مَرَّ بِهَا أَنْ

تُصيبَ ثَوْبه وَمِنهم من كَانَ يَخَافُ أَنْ تَشْغَلَه عَن الاسْتعْدَاد للْآخرَة وَالتَّزوُّد لها قَالَ الْحَسن: كَانَ أَحدهم يَعيش عمره مجهودا شَديدَ الْجَهْد وَالْمَالُ الْحَلَالُ إلى جَنْبه يُقَالُ له أَلَا تَأتي هٰذا فَتصيب منه فَيقُولُ: لَا وَالله لَا أَفعَلُ إنمَّا أَخَافُ أَنْ آتيَه فَأُصيبَ منه فَيكُونَ فَسَادُ قَلْبي وَعَملِي. وَبُعثَ إلى عُمرَ بن الْمُنكَدر بمَال فبكَىٰ وَاشْتَدَّ بُكَاؤُه وَقَالَ خَشيتُ أَنْ تَغْلبَ الدُّنْيَا عَلَى قَلْبي فَلَا يَكُونُ للْآخرَة منِّي نَصيبٌ فَذٰلكَ الَّذى منهُ أَبْكِي ثُمَّ أَمَرَ به فتصدَّقَ به عَلَىٰ فقرَاء أَهل الْمَدينَة.

(فَصْلٌ) وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: الزُّهدُ تَرْكُ مَا يُشْغلُ عَن الله وَقَالَ كُلُّ مَا يُشْغلُكَ عَن الله من أَهْل وَمَال وَوَلَد فَهُو مَشْئُومٌ. وَقَالَ بَعْضهم: لَيسَ الزَّاهدُ مَنْ أَلْقَى هُمُومَ الدُّنْيَا أَو استَرَاحَ مِنْهَا إنَّمَا الزَّاهدُ من زَهَدَ فِي الدُّنْيَا وَتَعبَ فِيهَا للْآخرَة فَانَّ الزُّهْدَ فِي الدُّنيَا

يُرَادُ به تَفْرِيغُ الْقَلْبِ مِنَ الْاشْتِغَالِ بِهَا لِيَتَفَرَّغَ لِطَلَبِ اللهِ وَمَعْرِفَتِه وَالتَّقَرُّبِ مِنْهُ وَالْأُنْسِ به وَالشَّوْقِ إلَى لِقَائِه وَهٰذِه الْأُمُورُ لَيْسَتْ مِنَ الدُّنْيَا وَإلَّا فَحُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ . وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ فِى الْقَلْبِ كَكَفَّتَى الْمِيزَانِ مَتَى تَرْجَحْ إِحْدَاهُمَا تَخِفُّ الْأُخْرَى . وَقَالَ وَهْبٌ : إِنَّمَا الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ كَرَجُلٍ لَهُ امْرَأَتَانِ إِنْ أَرْضَى إِحْدَاهُمَا أَسْخَطَ الْأُخْرَى وَبِكُلِّ حَالٍ فَالزُّهْدُ فِى الدُّنْيَا شِعَارُ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَأَحِبَّائِه . وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مَا أَبْعَدَ هَدْيَكُمْ مِنْ هَدْىِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ كَانَ أَزْهَدَ النَّاسِ فِى الدُّنْيَا وَأَنْتُمْ أَرْغَبُ النَّاسِ فِيهَا خَرَّجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ لِأَصْحَابِه : أَنْتُمْ أَكْثَرُ صَلَاتًا وَصَوْمًا وَجِهَادًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ وَهُمْ كَانُوا خَيْرًا مِنْكُمْ قَالُوا وَكَيْفَ ذٰلِكَ قَالَ : كَانُوا أَزْهَدَ مِنْكُمْ فِى الدُّنْيَا وَأَرْغَبَ مِنْكُمْ فِى الْآخِرَةِ . وَقَالَ

أَبُو الدَّرْدَاءِ لَإِنْ حَلَفْتُمْ لِى عَلَى رَجُلٍ أَنَّهُ أَزْهَدُكُمْ لَأَحْلِفَنَّ لَكُمْ أَنَّهُ خَيْرُكُمْ وَيُرْوَى عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ خَيْرُنَا قَالَ (أَزْهَدُكُمْ فِى الدُّنْيَا وَأَرْغَبُكُمْ فِى الآخِرَةِ) وَيُرْوَى مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ مَرْفُوعًا: شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ . وَقَالَ الْحَسَنُ : لَا تَزَالُ كَرِيمًا عَلَى النَّاسِ وَلَا يَزَالُ النَّاسُ يُكْرِمُونَكَ مَا لَمْ تَطْلُبْ مَا فِى أَيْدِيهِمْ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَٰلِكَ اسْتَخَفُّوا بِكَ وَكَرِهُوكَ وَأَبْغَضُوكَ وَكَانَ عُمَرُ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ فِى خُطْبَتِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ : إِنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ وَإِنَّ الْيَأْسَ غِنًى وَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا يَئِسَ مِنْ شَىْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ وَمَنْ سَأَلَ النَّاسَ مَا بِأَيْدِيهِمْ كَرِهُوهُ وَأَبْغَضُوهُ لِأَنَّ الْمَالَ مَحْبُوبٌ لِنُفُوسِ بَنِى آدَمَ فَمَنْ طَلَبَ مِنْهُمْ مَا يُحِبُّونَهُ كَرِهُوهُ لِذَلِكَ وَأَمَّا مَنْ كَانَ يَرَى الْمِنَّةَ عَلَيْهِ لِلسَّائِلِ وَيَرَى أَنَّهُ لَوْ خَرَجَ لَهُ عَنْ مِلْكِهِ كُلِّهِ لَمْ يَفِ بِبَذْلِ سُؤَالِهِ لَهُ وَذِلَّتِهِ لَهُ وَكَانَ يَقُولُ لِأَهْلِهِ ثِيَابُكُمْ

عَلَى غَيْرِكُمْ أَحْسَنَ مِنْهَا عَلَيْكُمْ وَدَوَابُّكُمْ تَحْتَ غَيْرِكُمْ أَحْسَنَ مِنْهَا تَحْتَكُمْ فَهٰذَا نَادِرٌ جِدًّا مِنْ طِبَاعِ بَنِى آدَمَ وَقَدِ انْطَوَى بِسَاطُ ذٰلِكَ مِنْ أَزْمَانٍ مُتَطَاوِلَةٍ أَمَّا مَنْ زَهِدَ فِيمَا فِى أَيْدِى النَّاسِ وَعَفَّ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَهُ وَيُكْرِمُونَهُ لِذٰلِكَ وَتَعُودُ بِهِ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ أَعْرَابِىٌّ لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ مَنْ سَيِّدُ أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ قَالُوا الْحَسَنُ قَالَ بِمَ سَادَهُمْ قَالُوا احْتَاجَ النَّاسُ إِلَى عِلْمِهِ وَاسْتَغْنَى هُوَ عَنْ دُنْيَاهُمْ وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِىُّ رَحِمَهُ اللّٰهُ فِى ذَمِّهِ الدُّنْيَا :

وَمَا هِىَ إِلَّا جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْهَا كِلَابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذَابُهَا
فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا كُنْتَ سِلْمًا لِأَهْلِهَا وَإِنْ تَجْتَذِبْهَا نَازَعَتْكَ كِلَابُهَا

فَمَعْنَى أَنَّهَا مُسْتَحِيلَةٌ يَعْنِى قَدْ تَغَيَّرَتْ فَصَارَتْ دُودٌ تَنْكُتُ وَهُوَ أَشَدُّ مَا تَكُونُ رَائِحَتُهَا الْفَظِيعَةُ الَّتِى لَوْ وَقَفَ عَلَيْهَا شَخْصٌ لَسَقَطَ مِنْ شِدَّةِ نَتْنِهَا وَخُشِىَ عَلَيْهِ الْهَلَاكُ فَكَذٰلِكَ تَزَاحُمُ أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَيْهَا

وَمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْهَا أَشَدُّ مِمَّا يَحْصُلُ لِهٰذِهِ الْكِلَابِ عَلَى هٰذِهِ الْجِيفَةِ الْمُنْتِنَةِ وَبَيْنَهُمْ مِنَ التَّشَاحُنِ وَالتَّبَاغُضِ وَالتَّقَاطُعِ وَالْعَدَاوَةِ أَشَدُّ مِمَّا يَحْصُلُ لِلْكِلَابِ فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ رَيْنِ الذُّنُوبِ وَانْتِكَاسِ الْقُلُوبِ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ وَإِذَا أَرَدْتَ بِالنَّاسِ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْغِفَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ إِذَا رَأَى قَوْمًا يَفِرُّونَ مِنَ الطَّاعُونِ يَقُولُ يَا طَاعُونُ خُذْنِي إِلَيْكَ يُكَرِّرُ ذٰلِكَ ثَلَاثًا وَيَقُولُ لِمَنْ عَاتَبَهُ عَلَى ذٰلِكَ أَمَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ(١) إِشَارَةً إِلَى إِمْرَةِ السُّفَهَاءِ وَكَثْرَةِ الشَّرْطِ وَبَيْعِ الْحُكْمِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِالدِّينِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَقَوْمًا يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ يُقَدِّمُونَ الرَّجُلَ لِيُغَنِّيَهُمْ بِالْقُرْآنِ وَإِنْ كَانَ أَقَلَّهُمْ فِقْهًا وَكَانَ عُمَرُ بْنُ

---

(١) سقط من الاصل فمن وجده فلا حرج عليه فى اصلاحه .

عَبْدَ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ يَجْمَعُ الْفُقَهَاءَ وَيَتَذَاكَرُونَ الْمَوْتَ وَأَهْوَالَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسُوءَ الْحِسَابِ وَالْمُرُورَ عَلَى الصِّرَاطِ وَيَبْكِي أَحَدُهُمْ حَتَّى كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَنَازَةً وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ لَا يَنْتَفِعُ أَحَدٌ بِهِ أَيَّامًا عَدِيدَةً وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَكَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ يَقُولُ لَا أَدْرِي وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ تَكَادُ تَنْقَطِعُ مَفَاصِلُهُ مِنَ الْاضْطِرَابِ وَكَانَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ إِذَا شَيَّعَ جَنَازَةً يَكَادُ يَمُوتُ فَيَرْجِعُونَ بِهِ فِي النَّعْشِ إِلَى دَارِهِ وَكَانَ مُحَمَّدٌ الدَّقَّاقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ أُكْرِمَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ تَعْجِيلِ التَّوْبَةِ وَقَنَاعَةِ النَّفْسِ وَنَشَاطٍ فِي الْعِبَادَةِ وَمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ عُوقِبَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ بِتَسْوِيفِ التَّوْبَةِ وَالشَّرَهِ فِي الدُّنْيَا وَالتَّكَاسُلِ عَنِ الطَّاعَةِ فَبِاللهِ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْاخْوَانُ تَفَكَّرُوا فِي الْمَوْتِ وَسَكْرَتِهِ وَمَرَارَةِ كَأْسِهِ وَصُعُوبَتِهِ فَإِنَّهُ مُقَرِّحٌ لِلْقُلُوبِ وَمُبْكٍ لِلْعُيُونِ وَمُفَرِّقٌ لِلْجَمَاعَاتِ

وَهَادِمٌ لِلَّذَّاتِ وَقَاطِعٌ لِلْأُمْنِيَّاتِ وَتَفَكَّرُوا فِي يَوْمِ مَصْرَعِكُمْ وَانْتِقَالِكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ وَقُصُورِكُمْ وَخُرُوجِكُمْ مِنْ سَعَةِ الدُّورِ إِلَىٰ ضِيقِ الْقُبُورِ وَخِيَانَةِ الصَّاحِبِ وَالرَّفِيقِ وَهَجْرِ الْأَخِ وَالصَّدِيقِ وَنَقْلِكُمْ مِنْ فَوْقِ فَرَاشِكُمْ وَغَطَائِكُمْ النَّاعِمِ وَوَضْعِكُمْ عَلَى التُّرَابِ الْخَشِنِ وَالْمَدَرِ الْيَابِسِ ثُمَّ يَرْجِعُونَ عَنْكُمْ إِلَىٰ أَكْلِهِمْ وَشُرْبِهِمْ وَضَحِكِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوكُمْ. وَكَانَ بَعْضُ الزُّهَّادِ يَقُولُ: يَا جَامِعَ الْمَالِ وَيَا مُجْتَهِدًا فِي الْبُنْيَانِ لَيْسَ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا الْأَكْفَانَ وَالذَّهَابَ وَلَا مِنْ دُورِكَ إِلَّا الْخَرَابَ فَهَلْ أَنْقَذَكَ مَا جَمَعْتَهُ مِنَ الْمَالِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَهْوَالِ كَلَّا بَلْ تَرَكْتَهُ لِمَنْ لَا يَحْمَدُكَ وَقَدِمْتَ بِأَوْزَارِكَ عَلَى مَنْ لَا يَعْذُرُكَ. شِعْرًا:

نَصِيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ ... رِدَاءَانِ تُلْوَى فِيهِمَا وَحَنُوطُ

(فَصْلٌ) جَاءَ فِي الْحَدِيثِ (الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا

بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِى)
وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِىُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ : لَا تَكُونُوا مِنْ قَوْمٍ أَهْلَكَتْهُمُ
الْأَمَانِىُّ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَمَالَهُمْ حَسَنَةٌ وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ إِنِّى
لَأُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّى وَقَدْ كَذَبَ فَإِنَّهُ لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ لَأَحْسَنَ
الْعَمَلَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ
الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وَكَانَ بَقِيَّةُ بْنُ
الْوَلِيدِ يَكْتُبُ لِإِخْوَانِهِ وَيَقُولُ لَهُمْ إِيَّاكُمْ وَالْغُرُورَ فَتُؤَمِّلُونَ الْبَقَاءَ
وَطُولَ الْعُمْرِ فَتَعْمَلُونَ السَّيِّآتِ وَتَتَمَنَّوْنَ عَلَى اللهِ الأَمَانِى وَرُوِى
فِى حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ أَنَّ الْعَبْدَ لَيُعَالِجُ كَرْبَ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِهِ وَأَنَّ
مَفَاصِلَهُ لَيُسَلِّمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ يَقُولُ عَلَيْكُمُ السَّلَامُ تُفَارِقُنِى
وَأُفَارِقُكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . فَمَنْ تَأَمَّلَ هٰذِهِ الْآثَارَ وَعَقَلَهَا وَعَلِمَ أَنَّهُ
صَائِرٌ لَا مَحَالَةَ إِلَى هٰذِهِ الْحَالَةِ فَحَقِيقٌ بِهِ أَنْ يَرْغَبَ بِنَفْسِهِ عَنْ هٰذِهِ

الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ وَلَا يُنَافِسُ أَهْلَهَا فِيهَا وَلَا يُشَاحِنُهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ حَلَالُهَا
حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عِقَابٌ وَكَثْرَتُهَا إِلَى قِلَّةٍ وَسُرُورُهَا إِلَى حُزْنٍ
وَعَافِيَتُهَا إِلَى سَقَمٍ وَصِحَّتُهَا إِلَى مَرَضٍ وَغِنَاهَا إِلَى فَقْرٍ وَوُجُودُهَا إِلَى
عَدَمٍ فَالسَّعِيدُ فِيهَا مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ قَبْلَ الْمُحَاسَبَةِ وَصَبَّرَهَا عَلَى طَاعَةِ
مَوْلَاهَا قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذَ النُّفُوسُ بِطَغْوَاهَا قَبْلَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ
يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ
وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (ثَلَاثَةٌ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ رَجُلٌ غَسَلَ ثَوْبَهُ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ خَلَقًا يَلْبَسُهُ
وَرَجُلٌ لَمْ يَنْصِبْ عَلَى مُسْتَوْقَدِهِ قِدْرَيْنِ قَطُّ وَرَجُلٌ دَعَا بِشَرَابٍ فَلَمْ
يُقَلْ لَهُ أَيُّهَا تُرِيدُ) فَاتَّقِ اللهَ أَيُّهَا الْعَبْدُ وَلَا تُنْهِكْ نَفْسَكَ فِي الدُّنْيَا
وَلَذَّاتِهَا وَأَطْمَاعِهَا وَشَهَوَاتِهَا فَإِنَّ الْمُدَّةَ قَلِيلَةٌ وَالْعُمْرَ قَصِيرٌ
وَالْحِسَابَ طَوِيلٌ فَكَمْ مُتَعَرِّضٍ لِفِتْنَةٍ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَا يَحْصُلُ لَهُ

إلَّا النَّـدَم وَالْحَسْرَة عَلَى مَا فَاتَ حَـكَى الْقُرْطُبِى أَنَّ بَعْض السَّمَاسِرَة مِمَّنْ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْاشْتِغَالُ بِالدُّنْيَا لَمَّـا حَضَرَتْهُ الْوَفَاة جَعَـلَ يَعْقِـدُ أَصَابِعَهُ وَيَحْسِبُ وَكَذٰلِكَ حُكِىَ أَنَّ بَعْضَهُمْ لَمَّـا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قِيـلَ لَهُ قُلْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ قَالَ أَعَلَفْتُمُ الْحِمَـارَةَ . وَقِيـلَ لِبَعْضِهِمْ قُلْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ وَكَانَ سُوقِيًّا فَجَعَلَ يَقُولُ أَرْبَعَةٌ وَنِصْفٌ . وَقِيلَ لِآخَرَ عِنْـدَ الْمَوْتِ قُلْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ فَقَالَ نَاوِلْنِى قَدَحِى . وَقِيلَ لِآخَرَ عِنْـدَ الْمَوْتِ وَكَانَ يَزِنُ كَامِلًا قُلْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهَ فَقَالَ : ادْعُوا اللّٰهَ أَنْ يُهَوِّنَ عَلَىَّ النُّطْقَ بِهَا فَإِنَّ لِسَانَ الْمِيزَانِ عَلَى لِسَانِى يَمْنَعُنِى مِنْ قَوْلِهَا لِعَدَمِ نَفْخِى كِفَّةَ الْمِيزَانِ مِنْ كُلِّ قَلِيلٍ وَعَدَمِ تَفَقُّدِى الْوَسَخَ الَّذِى تَجَمَّعَ فِيهَا مِنْ هُبُوبِ الرِّيَاحِ انْتَهَى وَهٰذَا بَابٌ وَاسِعٌ فِى حِكَايَاتِ مَنْ عَاقَتْهُمْ أَفْعَالُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ قَوْلِ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُ النَّظَرُ الْمُحَرَّمُ وَمِنْهُمْ سَمَـاعُهُ الْمُحَرَّمُ وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَهُ

نُطقه بِهَا فَاحِشَةً وَلَوْ مَرَّةً فِي عُمْرِهِ كَمَا حَكَاهُ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ وَمِنْهُمْ
مَنْ يَثْقُلُ عَلَيْهِ النُّطْقُ بِهَا وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُ فُجُورُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُ
بَغْيُهُ وَنَمِيمَتُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُ مِنَ النُّطْقِ بِهَا مُعَاوَنَتُهُ أَهْلَ الظُّلْمِ
وَعَدَمُ مُبَالَاتِهِ بِهَا فَيَمُوتُ عَطْشَانَ وَلَوْ سُقِيَ بِحَارَ الدُّنْيَا مَارَوِيَ
وَمِنْهُمْ مَنْ يُثْقِلُهَا عَلَيْهِ تَهَاوُنُهُ بِالصَّلَاةِ وَعَدَمُ مُبَالَاتِهِ بِهَا فَنَسْأَلُ
اللهَ السَّلَامَةَ وَالثَّبَاتَ عَلَى دِينِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ
كَثِيرٌ فِي سَائِرِ الْخَلْقِ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَفَتَحَ لَهُ أَبْوَابَ الْخَيْرِ
وَأَغْلَقَ عَنْهُ أَبْوَابَ الشَّرِّ وَالشَّهَوَاتِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ سَوَاءٌ كَانَ سَمَاعًا
مُحَرَّمًا أَوْ نَظَرًا مُحَرَّمًا أَوْ كَلَامًا مُحَرَّمًا أَوْ مَأْكَلًا أَوْ مَشْرَبًا أَوْ غَيْرَهُ
مِمَّا هُوَ فِتْنَةٌ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ الْقَلِيلَةِ الزَّائِلَةِ عَنْ قَرِيبٍ لَكِنْ
مَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ .

(فَصْلٌ) قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تَعَطَّرُوا بِالْاسْتِغْفَارِ لَا تَفْضَحْكُمْ

رَوَائِحَ الذُّنُوبِ وَقَالَ مُعَاوِيَةُ إِصْلَاحُ مَا فِي يَدِكَ أَسْلَمُ مِنْ طَلَبِ مَا فِي
يَدِ النَّاسِ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الدُّنْيَا كُلُّهَا هُمُومٌ فَمَا كَانَ مِنْهَا
فِي سُرُورٍ فَهُوَ رِبْحٌ وَقَالَ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ أَرْبَعَةٌ الْقَلِيلُ مِنْهَا كَثِيرٌ: النَّارُ
وَالْعَدَاوَةُ وَالْفَقْرُ وَالْمَرَضُ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ قَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ
وَالْيَقِينُ حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي قَدْ ضُمِنَ فُرِضَ عَلَيْكُمْ وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فُرِضَ
عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ أَهْلُ الدُّنْيَا أَهْلُ سَفَرٍ
لَا يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ إِلَّا فِي غَيْرِهَا وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِنَّ لَكَ
فِي مَالِكَ شَرِيكَيْنِ الْحَدَثَانِ وَالْوَارِثُ فَإِنْ قَدَرْتَ أَنْ تَكُونَ أَحْسَنَ
حَظًّا فَافْعَلْ وَلَمَّا بَنَى مُعَاوِيَةُ خَضْرَاءَ دِمَشْقَ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ كَيْفَ
تَرَاهَا مَا هِيَ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ بَنَيْتَهَا مِنْ حَلَالٍ مِنْ مَالِ اللهِ فَأَنْتَ مِنَ
الْخَاطِئِينَ وَإِنْ كَانَ مِنْ مَالِكَ فَأَنْتَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ وَمِنْ كَلَامِهِ كَانَ
النَّاسُ وَرَقًا لَا شَوْكَ فِيهِ فَصَارُوا شَوْكًا لَا وَرَقَ فِيهِ وَقَالَ سُفْيَانُ

الثَّوْرِيُّ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْجَاهِلِ حِرْفَةٌ كَانَ رَسُولاً لِلفُسَّاقِ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعَاقِلِ حِرْفَةٌ وَلَا عَقَارٌ كَانَ شُرْطِيّاً لِهَؤُلَاءِ الظَّلَمَةِ وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ مَنْ أَتَى السُّلْطَانَ طَائِعاً حَتَّى انْقَادَتِ الْعَامَّةُ لَهُ فَذَلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَهَذِهِ إِشَارَةٌ مِنْهُ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى أَنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يُحَصِّلَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا فَيُوَافِقَهُ عَلَى بَاطِلِهِ وَجَبْرِهِ لَهُ فَتَتْبَعُهُ الْعَامَّةُ عَلَى ذَلِكَ فَيَنْهَدِمُ الدِّينُ وَيَنْثَلِمُ . فَفِي لُزُومِ الْمَرْءِ بَيْتَهُ وَحِفْظِ لِسَانِهِ رَاحَةٌ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَكَانَ السَّلَفُ يَكْرَهُونَ فُضُولَ الْكَلَامِ وَكَانُوا يَعُدُّونَ فُضُولَ الْكَلَامِ كُلَّمَا عَدَا كِتَابَ اللهِ أَنْ تَقْرَأَهُ أَوْ أَمْراً بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْياً عَنْ مُنْكَرٍ وَأَنْ تَنْطِقَ فِي مَعِيشَتِكَ بِمَا لَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ . وَكَانَ طَارِقُ بْنُ شِهَابٍ يُحَدِّثُ عَنْ عَبْدِ اللهِ أَنَّ الرَّجُلَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيَلْقَى الرَّجُلَ لَهُ إِلَيْهِ حَاجَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِنَّكَ كَيْتَ وَكَيْتَ يُثْنِي عَلَيْهِ وَعَسَى أَنْ لَا يَحْظَى مِنْ حَاجَتِهِ بِشَيْءٍ فَيَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ فَيَرْجِعُ وَمَا

معه من دينه شىء . وقال ابن المبارك عجبت من اتفاق الملوك الأربعة كلهم على كلمة : قال كسرى إذا قلت ندمت وإذا لم أقل لم أندم . وقال قيصر أنا على رد ما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت . وقال ملك الهند عجبت لمن تكلم بالكلمة إن هى رفعت أى تلك الكلمة ضرته وإن هى لم ترفع لم تنفعه . وقال ملك الصين إن تكلمت بكلمة ملكتنى وإن لم أتكلم بها ملكتها . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أوليصمت — وفى الحديث الآخر — من صمت نجا) وعن أبى سعيد مرفوعا قال : إن الأعضاء تكف اللسان تقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا رواه الترمذى وفى الموطأ أن عيسى عليه السلام لقى خنزيرا على الطريق فقال مر بسلام فقيل له فى ذلك قال إنى أكره وأخاف أن أعود لسانى النطق

بالسوء . وقال عمر رضى الله عنه من كثر كلامه كثر سقطه .

(فصل) ومن الأمور المحرمة التى هى من صفات أهل النفاق إخلاف الوعد وهو نوع من الكذب . لأن فى الحديث من صفات المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن خان الحديث . روى أن إسماعيل وعد رجلا فانتظره حولا . وروى عن ابن عباس وقيل انتظره اثنى عشر يوما وقيل ثلاثة أيام وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم (أنه انتظر رجلا وعده فى موضع من طلوع الشمس إلى غروبها وقيل ثلاثة أيام) فلولا أن إخلاف الوعد من النفاق لما كان هذا الانتظار وهذه المصابرة، والنفاق شانه عظيم وخطره كبير ولا يخافه إلا مؤمن ولا يأمنه إلا منافق والنفاق الأصغر وسيلة إلى النفاق الأكبر وبريد له وكان الحسن يسمى من ظهر منه أوصاف النفاق العملى

مُنَافِقًا وَكُلَّمَا فَشَى النِّفَاقُ فِى النَّاسِ تَسَاهَلُوا بِأَمْرِهِ وَخَفَّ عَلَيْهِمْ فِعْلُهُ وَالْقَوْلُ بِهِ .

(فَصْلٌ) وَفِى بَعْضِ الآثَارِ أَنَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ سَأَلُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالُوا سَلْ رَبَّكَ مَتَى يَرْضَى عَنَّا وَمَتَى يَسْخَطُ عَلَيْنَا وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ إِنِّى إِذَا أَنْزَلْتُ الْغَيْثَ فِى زَمَانِهِ وَأَمَّرْتُ عَلَيْكُمْ خِيَارَكُمْ وَجَعَلْتُ مَالَكُمْ عِنْدَ سُمَحَائِكُمْ فَإِنِّى عَنْكُمْ رَاضٍ وَإِذَا أَنْزَلْتُ الْغَيْثَ فِى غَيْرِ أَوَانِهِ وَأَمَّرْتُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ وَجَعَلْتُ أَمْوَالَكُمْ عِنْدَ بُخَلَائِكُمْ فَأَنَا عَلَيْكُمْ سَاخِطٌ ، وَمَتَى قَصَّرَ النَّاسُ فِى أَمْرِ دِينِهِمْ أُتِيحَ لَهُمْ مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَمِنْ جَوْرِ الْوُلَاةِ وَالأَسْقَامِ وَالأَمْرَاضِ وَالْمَخَاوِفِ وَنَقْصِ الثِّمَارِ وَالأَعْمَارِ وَتَسْلِيطِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ بِالتَّحَرُّشِ بَيْنَهُمْ بِمَا هُوَ مُوجَبٌ لِهَذِهِ الْجَرَائِمِ وَتَسْلِيطِ الْفَجَرَةِ عَلَى الْبَرَرَةِ وَكُلُّ ذَلِكَ عُقُوبَةٌ لَهُمْ حَيْثُ لَمْ يَقُومُوا بِأَمْرِ اللهِ ، وَإِذَا قَامَ

عُلَمَاؤُهُمْ وَقَادَتُهُمْ بِمَا يَلْزَمُهُمْ فِى أَمْرِ دِينِهِمْ صَلَحَ أَمْرُهُمْ وَصَلَاحُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ بِالزُّهْدِ وَالْيَقِينِ وَفَسَادُهَا بِالْبُخْلِ وَطُولِ الْأَمَلِ وَلِهٰذَا كَانَ لِأَوَّلِ هٰذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالْكَرَامَاتِ بِبَرَكَةِ نَبِيِّهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَمْ يَكُنْ لِآخِرِهَا. وَلَهُمْ مِنَ الزُّهْدِ وَالْيَقِينِ مَا يُغْنِيهِمْ عَنْ طَلَبِهَا فَكَانَ حَبِيبُ بْنُ عَدِىٍّ أَسِيرًا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ فَكَانُوا يَرَوْنَ عِنْدَهُ الْعِنَبَ وَمَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ عِنَبٌ. وَخَرَجَتْ أُمُّ أَيْمَنَ مُهَاجِرَةً لَيْسَ مَعَهَا مَاءٌ وَلَا زَادٌ فَكَادَتْ تَمُوتُ مِنَ الْعَطَشِ فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الْفِطْرِ وَكَانَتْ صَائِمَةً سَمِعَتْ حِسًّا عَلَى رَأْسِهَا فَرَفَعَتْهُ فَإِذَا دَلْوٌ بِرِشَاءٍ أَبْيَضَ مُعَلَّقٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ حَتَّى رَوِيَتْ فَمَا عَطِشَتْ بَقِيَّةَ عُمْرِهَا وَالْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ كَانَ إِذَا أَقْسَمَ عَلَى اللهِ أَبَرَّ قَسَمَهُ فَكَانَتِ الْحَرْبُ إِذَا اشْتَدَّتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِى الْجِهَادِ يَقُولُونَ يَا بَرَاءُ أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ

فَيهزِمُ الْعدُوُّ . وَلمَّا كَانَ يومُ الْيمَامَةِ قَالَ يارَبِّ أَقْسمتُ عليكَ لمَا منحتنا أَكْتافَهمْ وجعلتنى أَوَّلَ شهيد فمنحوا أَكْتافهمْ وقتلَ البراءُ شَهِيداً وَأَبو مُسْلِم الخولانى الَّذى أُلْقِىَ فى النَّار فَانَّه مشى هو ومن معه من الْعَسْكَر على دجلة وهى فى قوَّة مدها ثمَّ التفت إلى أَصحابه فقَالَ هَلْ تفقدونَ من متاعكمْ شيئاً حتَّى أَدعوا اللهَ فيه . فقَالَ بعضهمْ فقدتُ مخلاةً لى فقَالَ اتبعنى فأتبعه فوجدها متعلّقة بشىءٍ فأخذها وطَلَبَه الأسودُ الْعنسى لمَّا ادَّعى النُّبوَّة فقَالَ له اشهدْ أَنّى رسولُ الله فقَالَ ما أَسمعُ قَالَ أتشهدُ أَنَّ محمَّداً رسولُ الله قَالَ نعمْ فأَمر بنار فأَلْقَاه فيها فوجدوه قائماً يصلّى فيها وقد صارتْ عليه برداً وسلاماً فقدم الْمَدينة بعد موت النَّبىِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأجلسه عمر بينه وبين أَبى بكْر وقَالَ الْحَمْدُ لله الَّذى لمْ يمتنى حتَّى أَرانى من أُمَّة محمَّد من فُعِلَ به كَمَا فُعِلَ بإبراهيم خليل الله ووضعتْ له جاريته السُّمَّ فى طعامه

فأكله فلم يضره وخببت عليه امرأة زوجته فدعا عليها فعميت فجاءت إليه وتابت فدعا الله فرد عليها بصرها وكان عامر بن قيس يأخذ عطاءه فى كمه ألفى درهم وما يلقاه سائل إلا أعطاه بغير عدد ثم يجىء إلى بيته فلم يتغير عددها ووزنها . ومر بقافلة وقد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بثيابه فم الأسد ووضع رجله على عنقه وقال إنما أنت كلب من كلاب الرحمن وإنى أستحى من الله أن أخاف شيئا غيره فمرت القافلة ودعى الله أن يهون عليه الطهور فى الشتاء فكان يأتى بالماء وله بخار ودعى ربه أن يمنع قلبه من الشيطان فلم يقدر عليه وتغيب الحسن البصرى عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات ودعى الله أن لا يروه فلم يروه . وصلت بن أشيم مات فرسه وهو فى الغزو قال : اللهم لا تجعل لمخلوق على منة فدعى الله فأحياه له فلما وصلوا إلى بيته قال لابنه يابنى خذ سرج الفرس فانه

عَارِيَةً فَأَخَذَ سَرْجَهُ فَمَاتَ وَجَاعَ مَرَّةً وَهُوَ بِالْأَهْوَازِ وَدَعَى اللهَ وَاسْتَطْعَمَهُ فَوَقَعَتْ خَلْفَهُ دَوْخَلَةُ رُطَبٍ فِي ثَوْبِ حَرِيرٍ فَأَكَلَ وَبَقِيَ الثَّوْبُ عِنْدَ زَوْجَتِهِ زَمَانًا وَجَاءَ الْأَسَدُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي غَيْضَةٍ بِاللَّيْلِ فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ لَهُ: اطْلُبِ الرِّزْقَ مِنْ غَيْرِ هٰذَا الْمَوْضِعِ فَوَلَّى الْأَسَدُ وَلَهُ زَئِيرٌ وَرَجُلٌ مِنَ الزُّهَّادِ لَهُ حِمَارٌ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ هَلُمَّ نَتَوَزَّعُ مَتَاعَكَ فَقَالَ أَمْهِلُونِي هُنَيْهَةً ثُمَّ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَدَعَى اللهَ فَأَحْيَا لَهُ حِمَارَهُ فَحَمَلَ عَلَيْهِ مَتَاعَهُ وَجَرَى لِسَفِينَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ انْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ فِي الْبَحْرِ هُوَ فِيهَا فَرَكِبَ لَوْحًا مِنْهَا فَطَرَحَهُ بِالسَّاحِلِ بِأَرْضٍ فِيهَا أَسَدٌ قَالَ فَخَرَجَ إِلَيَّ الْأَسَدُ يُرِيدُنِي فَقُلْتُ يَا أَبَا الْحَارِثِ أَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَقَدَّمَ وَدَلَّنِي عَلَى الطَّرِيقِ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوَدِّعُنِي وَرَجَعَ وَكَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ تَحَدَّثَا عِنْدَ

رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى حَاجَة لَهُمَا حَتَّى ذَهَبَ بَعْضُ اللَّيْلِ ثُمَّ خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ وَكَانَت لَيْلَةً شَدِيدَةَ الظُّلْمَةِ وَفِى يَدِ كُلِّ وَاحِد مِنْهُمَا عَصًا فَأَضَاءَتْ عَصَا أَحَدِهِمَا لَهُمَا حَتَّى مَشَيَا فِى ضَوْءِهَا فَلَمَّا فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الطَّرِيقُ أَضَاءَتْ لِلْآخَرِ عَصَاهُ حَتَّى بَلَغَ مَنْزِلَهُ وَالْقِصَّةُ فِى صَحِيحِ الْبُخَارِى وَغَيْرِهِ وَمِنْ ذٰلِكَ قِصَّةُ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَهِىَ فِى الصَّحِيحَيْنِ لَمَّا ذَهَبَ بِثَلَاثَةِ أَضْيَافٍ مَعَهُ إِلَى بَيْتِهِ وَجَعَلَ لَا يَأْكُلُ لُقْمَةً إِلَّا رَبَا أَسْفَلُهَا أَكْثَرَ مِنْهَا فَشَبِعُوا وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذٰلِكَ فَنَظَرَ أَبُو بَكْرٍ إِلَيْهَا وَامْرَأَتُهُ فَإِذَا هِىَ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ فَرَفَعَهَا إِلَى النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَاءَ إِلَيْهِ أَقْوَامٌ كَثِيرُونَ فَأَكَلُوا مِنْهَا وَلَمَّا مَاتَ أُوَيْسٌ الْقَرْنِىُّ وُجِدَ فِى ثِيَابِهِ أَكْفَانًا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ قَبْلُ وَوُجِدَ لَهُ قَبْرٌ مَحْفُورٌ فِيهِ لَحْدٌ مِنْ صَخْرَةٍ فَدَفَنُوهُ فِيهِ وَكَفَّنُوهُ فِى تِلْكَ الْأَثْوَابِ وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عُتْبَةَ يُصَلِّى يَوْمًا فِى شِدَّةِ الْحَرِّ فَأَظَلَّتْهُ

غمامة وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه فى الغزو أن يخدمهم وكان مطرو بن عبد الله إذا دخل بيته سبحت معه آنيته وكان هو وصاحب له يسيران بالليل فأضاء لهما طرف السوط وكان إبراهيم التيمى يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئا وخرج يمتار لأهله طعاما فلم يجد فمر بسهلة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله ففتحوها فاذا هى حنطة حمراء فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حبا متراكبا وكان عبد الواحد ابن زيد أصابه الفالج فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء فكان وقت الوضوء تنطلق له أعضاؤه ثم تعود وهذا باب واسع وكل هذه القضايا عامتها مشهورة فى كتب الحديث والأثر وقد ذكرها شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله وكل هذه المعجزات والكرامات إنما هى من معجزات نبيهم وكرامته صلوات الله وسلامه عليه وكلما قوى إيمان

الْعَبْدُ وَقَوِىَ تَمَسُّكُهُ بِشَرِيعَةِ نَبِيِّهِ حَصَلَ لَهُ مِنْ كَرَامَتِهِ بِحَسَبِ تَمَسُّكِهِ وَإِيمَانِهِ. أَمَّا دَلَائِلُ نُبُوَّتِهِ وَمُعْجِزَاتِهِ وَكَرَامَاتِهِ فَهِىَ مَذْكُورَةٌ مُدَوَّنَةٌ فِى غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ مِنْهَا تَسْلِيمُ الْحَجَرِ وَتَسْلِيمُ الشَّجَرِ وَنَبْعُ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ الْكَرِيمَةِ وَمِنْهَا تَكْثِيرُ الطَّعَامِ وَمِنْهَا حَنِينُ الْجِزْعِ الَّذِى كَانَ يَخْطُبُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ جَعَلَ ذَٰلِكَ الْجِذْعُ يَحِنُّ حَتَّى نَزَلَ وَأَتَى إِلَيْهِ وَضَمَّهُ وَقَالَ لَوْ لَمْ أَعْتَنِقْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمِنْهَا تَكْلِيمُهُ الْحَيَوَانَاتِ فَمِنْ ذَٰلِكَ سُجُودُ الْجَمَلِ وَشَكْوَاهُ إِلَيْهِ وَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ لَهُمْ جَمَلٌ يَسْنُونَ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِمْ وَمَنَعَهُمْ ظَهْرَهُ فَجَاءُوا إِلَى النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نَسْنِى عَلَيْهِ وَإِنَّهُ اسْتَصْعَبَ عَلَيْنَا وَمَنَعَنَا ظَهْرَهُ وَقَدْ عَطِشَ النَّخْلُ وَالزَّرْعُ فَقَالَ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ قُومُوا فَقَامُوا

فَدَخَلَ الْحَائِطَ وَالْجَمَلُ فِى نَاحِيَتِهِ فَمَشَى رَسُولُ اللهِ نَحْوَهُ فَقَالَتِ الأَنْصَارُ يَارَسُولَ اللهِ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْكَلْبِ وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ صَوْلَتَهُ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ عَلَىَّ مِنْهُ بَأْسٌ فَلَمَّا نَظَرَ الْجَمَلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلَ نَحْوَهُ حَتَّى خَرَّ سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَاصِيَتِهِ أَذَلَّ مَا كَانَ قَطُّ حَتَّى أَدْخَلَهُ فِى الْعَمَلِ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ يَا رَسُولَ اللهِ هٰذِهِ بَهِيمَةٌ لَا تَعْقِلُ تَسْجُدُ لَكَ وَنَحْنُ نَعْقِلُ فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ وَلَوْ صَلَحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا).

(فَصْلٌ) وَمِنْهَا قِصَّةُ الذِّئْبِ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: عَدَى الذِّئْبُ عَلَى شَاةٍ

فأخذها فطلبه الراعي فأخذها منه فأقعى الذئب على ذنبه وقال
ألا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إلى فقال الراعي : ياعجبا ذئب
مقع على ذنبه يكلمني بكلام الانس فقال الذئب : ألا أخبرك
بأعجب من ذلك محمد بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق قال فأقبل
الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها
ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الحديث وجاءت
أحاديث أيضا في كلام الحمار وكلام الضب وكلام الغزالة له صلى الله
عليه وسلم ومما يثبت ذلك ما في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه
قال : عطش الناس يوم الحديبية فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
وبين يديه ركوة فقالوا ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في
ركوتك فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في الركوة فجعل
الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فتوضأنا وشربنا قيل

لجابر كم كنتم يومئذ قال لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مائة وفى صحيح مسلم عن جابر قصة نبع الماء فى غزوة بواط أيضا وفيه قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ثم فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت وأمر الناس بالاستسقاء فاستقوا حتى رووا الحديث وفيه أيضا عن ابن مسعود قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس معنا ماء فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلبوا من معه فضل ماء فأتى بماء فصبه فى إناء ثم وضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من أصابعه ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل أخرجاه. ومنها كلام الشجرة له وسلامها عليه فعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أوحى الله إلى جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يارسول الله وعن على رضى الله عنه قال: كنت مع

رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ فَخَرَجْنَا فِى بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَا
اسْتَقْبَلَهُ جَبَلٌ وَلَا شَجَرٌ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَارَسُولَ اللهِ
رَوَاهُ التِّرْمِذِىُّ وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَأَقْبَلَ أَعْرَابِىٌّ فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْنَ
تُرِيدُ قَالَ أَهْلِى قَالَ هَلْ أَدُلُّكَ إِلَى خَيْرٍ قَالَ مَا هُوَ قَالَ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ
إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ قَالَ هَلْ مِنْ
شَاهِدٍ عَلَى مَا تَقُولُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هٰذِهِ الشَّجَرَةُ
فَدَعَاهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِىَ عَلَى شَاطِئِ الْوَادِى
فَأَقْبَلَتْ تَخُدُّ الْأَرْضَ خَدًّا فَقَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَاسْتَشْهَدَهَا ثَلَاثًا
فَشَهِدَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى نَبْتِهَا الْحَدِيثَ رَوَاهُ الدَّارِمِىُّ وَمِنْهَا إِخْبَارُهُ
بِالْمُغَيَّبَاتِ الْمُسْتَقْبَلَةِ قَبْلَ وُقُوعِهَا فَتَقَعُ كَمَا أَخْبَرَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا فِى
الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِىءُ لَهَا أَعْنَاقُ
الابِلِ بِبُصْرَى فَظَهَرَتْ نَارٌ عَظِيمَةٌ عَلَى نَحْوِ مَرْحَلَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ سَنَةَ
أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتّمِائَةٍ سَنَةً وَدَامَتْ نَحْوَ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ يَوْماً
وَكَانَتْ تُحْرِقُ الْحَجَرَ وَلَا تَنْضِجُ اللَّحْمَ وَرَأَيْتُ مِنْهَا أَعْنَاقَ الابِلِ
بِبُصْرَى وَكَانَ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ صَعِدُوا أُحُداً فَتَحَرَّكَ
الْجَبَلُ فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ وَقَالَ اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ
وَشَهِيدَانِ فَاسْتَشْهَدَا وَأَخْبَرَ بِأَنَّ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا أَوَّلُ
أَهْلِهِ لُحُوقاً بِهِ فَكَانَ كَذٰلِكَ وَبِأَنَّ أَشْقَى الْأَوَّلِينَ عَاقِرُ النَّاقَةِ وَأَشْقَى
الآخَرِينَ قَاتِلُ عَلِىٍّ يَضْرِبُ فِى يَافُوخِهِ فَقَتَلَ مَعَهَا لِحِينِهِ فَضَرَبَهُ الشَّقِىُّ
ابْنُ مُلْجِمٍ ضَرْبَةً كَذٰلِكَ فَمَاتَ مِنْهَا رَضِىَ اللهُ عَنْهُ وَبِأَنَّ عُثْمَانَ يُقْتَلُ
ظُلْماً وَبِأَنَّ الْمَدِينَةَ سَتُغْزَى فَكَانَتْ وَقْعَةُ الْحَرَّةِ الْمَشْهُورَةِ عَلَى أَهْلِ
الْمَدِينَةِ مِنْ جَيْشِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ وَأَخْبَرَ بِوَقْعَةِ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ

وقتال عائشة والزبير لعلى كل ذلك قبل وقوعه فوقع وكذلك قال على للزبير لما بارزه أنشدك الله هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنك تقاتله وأنت له ظالم فانصرف الزبير وقال بلى ولكنى نسيت وصح عنه أنه قال فى الحسن إن ابنى هذا سيد ويصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين فكان كذلك يوم التقاء على ومعاوية وأخبر ابن عمر أنه سيعمى لما رأى جبريل معه فى صورة رجل وأخبر بالخوارج الذين خرجوا على على وأن منهم رجلا إحدى ثدييه مثل ثدى المرأة فقاتلهم على وأخرج ذلك الرجل من بين القتلى حتى رآه الناس بالوصف الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر بالرافضة والقدرية فكان كما أخبر وبأن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة وبأنها كلها فى النار إلا واحدة وهم الذين على ما كان عليه هو وأصحابه وأخبر أنه ستكون لهم

أنماط ويغدو أحدهم فى حلة ويروح فى أخرى وتوضع بين يديه
صحفة وترفع أخرى ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة ثم قال
آخر الحديث وأنتم اليوم خير منكم يومئذ وقال يكون فى ثقيف
كذاب ومبير فرأوهما المختار ابن أبى عبيد الذى ادعى أنه
يوحى إليه والحجاج ابن يوسف وأنذر بالردة التى وقعت بعد
موته وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنة ثم تكون ملكا فكانت
كذلك بمدة الحسن ابن على وقال إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة ثم
يكون ملكا عضوضا ثم تكون عتوا وجبروتا وفسادا فى الأمة.
وأخبر بالذى غل خرزا من خرز اليهود فوجدت فى رحله وبالذى
غل الشملة وبشأن كتاب حاطب إلى أهل مكة وأخبر بالمال الذى
تركه العباس عند أم الفضل بعد ما كتمه فقال ما علمه غيرى وغيرها
فأسلم. وقال لخالد لما وجهه لأكيدر إنك تجده يصيد البقر

وَأَخبَرَ بكَثِيرٍ مِنْ أَسْرَارِ المْنُافقِين وَكُفرِهمْ وَقَوْلهم فيه وفى المْؤْمنِينَ حَتّى كَانَ بَعْضُهم يقُولُ لصَاحبه اسكُتْ فوالله لَوْ لَمْ يكُنْ عنده من يخبره لأخبرته حجارةُ البطحاء ودلائل نبوته ومعجزاته وكَرَامَاته أَكْثَرُ من أنْ تُحْصَرَ وقَدْ وَقَعَ لخوَاصِ أُمّته منَ الخْوَارق وَالْكَرَامَاتِ شىءٌ كَثِيرٌ فبحَسَب قُوّة إيمَانِ الْعَبْد وتمسكه بسُنّة نبيّه يَحْصُلُ لَهُ من هذَا النُّورِ وَهذه الْكَرَامَاتِ مَا يسْتَحقّه فمِنْهُم مَنْ يحْصُلُ لَهُ فى حَيَاته أُمُورٌ عَجِيبَةٌ منْ هذَا النّوْعِ ومِنْ غيْرِه ومنهم مَنْ يحْصُلُ لَهُ فى حَيَاته وبعْدَ ممَاته كَمَا صَارَ للْعلى ابنِ الحَضْرَمِىّ بعد موته وَكَانَ حَصَلَ لبَعْضِهِمْ مِنْ تَرْكِ الطَّعَامِ مُدّةً طَوِيلَةً فَمِنْهم مَنْ تَرَكَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ومِنْهم أَزْيَدَ من ذَلكَ وَفِى ذَلكَ قُوّته تَامّة كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَجَبٍ رحمه الله وغيره وإنّمَا مقصودنا هنَا التّفكُّرُ والاعتبَارُ وَأَنْ يَعْرِفَ الانْسَانُ أنّه إنَّمَا يُؤْتى من قبَلِ نفْسه وتَقْصِيره فى أَمْرِ ربّه فَاذَا

نَظَرَ فِى سِيرَةِ الْقَوْمِ وَمَا مُنِحُوا بِهِ وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يُجْهِدَ نَفْسَهُ فِى طَاعَةِ خَالِقِهِ وَبَارِئِهِ وَمُوجِدِهِ وَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ مَضَوْا وَبَقِيَتْ الْآثَارُ فَلْيَكُنْ أَثَرًا صَالِحًا وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

(فَصْلٌ) سَأَلَ بَعْضُهُمْ عَنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَحْرَزَتِ النَّفْسُ قُوتَهَا اطْمَأَنَّتْ فَقَالَ قُوتُهَا مَعْرِفَةُ اللهِ وَعَنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا رَأَيْتُمْ أَهْلَ الْبَلَاءِ فَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ فَقَالَ هُمْ أَهْلُ الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَقَالَ الْجَاهِلُ مَيِّتٌ وَالنَّاسِى نَائِمٌ وَالْعَاصِى سَكْرَانُ وَالْمُصِرُّ هَالِكٌ وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ الْمَعَاصِى بَرِيدُ الْكُفْرِ يَعْنِى أَنَّهَا رَسُولُهُ وَمُقَدِّمَاتُهُ كَمَا أَنَّ الْحُمَّى رَائِدُ الْمَوْتِ . وَقَالَ الْفُضَيْلُ إِذَا لَمْ تَسْتَطِعِ الصَّوْمَ وَالصَّلَاةَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُقَيَّدٌ بِالذُّنُوبِ لَا يَغُرَّنَّكَ طُولُ النَّسِيئَةِ مِنَ اللهِ يَعْنِى الْمُهْلَةَ فَإِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ وَرَوَى الدَّارَقُطْنِى فِى الْأَفْرَادِ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ عَاهَةً نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْمَسَاجِدِ

فَصَرَفَهَا عَنْهُمْ وَفِى حَدِيثٍ آخَرَ يَقُولُ اللهُ : وَعِزَّتِى وَجَلَالِى إِنِّى لَأَهُمُّ
بِأَهْلِ الْأَرْضِ عَذَابًا فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَىٰ عُمَّارِ بُيُوتِى وَإِلَىٰ الْمُتَحَابِّينَ فِىَّ
وَإِلَىٰ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ صَرَفْتُ ذَٰلِكَ عَنْهُمْ. وَرَوَى الْإِمَامُ
أَحْمَدُ عَنْ مُعَاذٍ أَنَّ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ
الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ
وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ) وَقَالَ ابْنُ مَيْمُونٍ الْأَوْدِىُّ
أَدْرَكْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ الْمَسَاجِدَ
بُيُوتُ اللهِ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يُكْرِمَ مَنْ زَارَهُ وَالزُّهْدُ
فِى الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ جَمِيعًا وَمَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا كَفَاهُ
اللهُ مَا أَهَمَّهُ وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ لَمْ يُبَالِ اللهُ فِى أَىِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ
(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ
لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِى الْآخِرَةِ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى الدُّنْيَا عَلَى مَا خَلَّفُوا .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ كُلٌّ يَحْصُدُ مَا يَزْرَعُ وَيُجْزَى بِمَا يَصْنَعُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ زَرْعُ يَوْمِكَ حَصَادُ غَدِكَ . رَوَى الْمَدَائِنِي عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الذَّنْبُ لَا يُنْسَى وَالْبِرُّ لَا يَبْلَى وَالدَّيَّانُ لَا يَمُوتُ فَكُنْ كَمَا شِئْتَ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ) قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ رَجُلٌ قَلِيلُ الذُّنُوبِ قَلِيلُ الْعَمَلِ أَوْ رَجُلٌ كَثِيرُ الذُّنُوبِ كَثِيرُ الْعَمَلِ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَا أَعْدِلُ بِالسَّلَامَةِ شَيْئًا سَمِعَ بَعْضُ الزُّهَّادِ رَجُلًا يَقُولُ لِقَوْمٍ أَهْلَكَكُمُ النَّوْمُ فَقَالَ بَلْ أَهْلَكَتْكُمُ الْيَقَظَةُ . وَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا التَّقْوَى فَقَالَ أَجُزْتَ بِأَرْضٍ فِيهَا شَوْكٌ فَقَالَ نَعَمْ فَقَالَ كَيْفَ كُنْتَ تَصْنَعُ فَقَالَ كُنْتُ أَتَوَقَّى الشَّوْكَ فَقَالَ فَتَوَقَّ الْخَطَايَا كَمَا تَتَوَقَّى الشَّوْكَ

(فَصْلٌ) رُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (مَنْ هَانَتْ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ كَانَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَهْوَنَ وَرُوِىَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهِ وَقْتُ الصَّلَاةِ اصْفَرَّ لَوْنُهُ مَرَّةً وَاحْمَرَّ أُخْرَى فَقِيلَ لَهُ فِى ذَلِكَ فَقَالَ أَتَتْنِى الْأَمَانَةُ الَّتِى عُرِضَتْ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلْتُهَا أَنَا وَلَا أَدْرِى أَأُسِىءُ فِيهَا أَمْ أُحْسِنُ ثُمَّ جَعَلَ لَهَا شَرْطًا لَازِمَةً مِنْ رَفْعِ حَدَثٍ وَإِزَالَةِ نَجَاسَةٍ لِيَسْتَدِيمَ النَّظَافَةَ فِيهَا لِلِقَاءِ رَبِّهِ وَالطَّهَارَةَ لِأَدَاءِ فَرْضِهِ ثُمَّ ضَمَّنَهَا تِلَاوَةَ كِتَابِهِ الْمُنَزَّلِ لِيَتَدَبَّرَ مَا فِيهِ مِنْ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَيَعْتَبِرَ إِعْجَازَ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ ثُمَّ عَلَّقَهَا بِأَوْقَاتٍ رَاتِبَةٍ وَأَزْمَانٍ مُتَرَادِفَةٍ لِيَكُونَ تَرَادُفُ أَزْمَانِهَا وَتَتَابُعُ أَوْقَاتِهَا سَبَبًا لِاسْتِدَامَةِ الْخُضُوعِ لَهُ وَالِابْتِهَالِ إِلَيْهِ فَلَا تَنْقَطِعُ الرَّهْبَةُ مِنْهُ وَالرَّغْبَةُ إِلَيْهِ . وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الصَّلَاةُ مِكْيَالٌ فَمَنْ وَفَّى وُفِّىَ لَهُ وَمَنْ طَفَّفَ فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا قِيلَ فِى الْمُطَفِّفِينَ) وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا وَإِلَى آجِلِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى عَاجِلِهَا فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشُوا أَنْ يُمِيتَ قُلُوبَهُمْ وَتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنَّهُ سَيَتْرُكُهُمْ

(فَصْلٌ) وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي بَعْضِ كَلَامٍ لَهُ: طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ وَأَنْفَقَ مِنْ مَالٍ كَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَرَحِمَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ طُوبَى لِمَنْ أَدَّبَ نَفْسَهُ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ وَصَلُحَتْ سَرِيرَتُهُ طُوبَى لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمٍ وَأَنْفَقَ مِنْ فَضْلٍ وَأَمْسَكَ مِنْ قَوْلِهِ وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ وَلَمْ يَعْدُهَا إِلَى بِدْعَةٍ وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (زُورُوا الْقُبُورَ تَذَكَّرُوا بِهَا الْآخِرَةَ وَغَسِّلُوا الْمَوْتَى فَإِنَّ مُعَالَجَةَ الْأَجْسَادِ الْخَاوِيَةِ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ) وَحَفَرَ الرَّبِيعُ ابْنُ خَيْثَمٍ فِي دَارِهِ قَبْرًا

فَكَانَ إذَا وَجَدَ فِى قَلْبِهِ قَسْوَةً جَاءَ فَاضْطَجَعَ فِيهِ فَيَمْكُثُ فِيهِ مَا شَاءَ
اللهُ ثُمَّ يَقُولُ: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ثُمَّ يَرُدُّ عَلَى
نَفْسِهِ فَيَقُولُ: قَدْ أَرْجَعْتُكَ فَجِدِّى وَقَالَ بَعْضُهُمْ كَفَتْكَ الْقُبُورُ فَهِىَ
مَوَاعِظُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ مَا أَبْلَغُ الْعِظَاتِ قَالَ: النَّظَرُ
إِلَى مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ وَلَمَّا مَاتَ الْمَلِكُ الْإِسْكَنْدَرُ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ كَانَ
الْمَلِكُ أَمْسِ أَنْطَقَ مِنْهُ الْيَوْمَ وَهُوَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ نَاصِحٍ فَاجْتَمَعُوا
عَلَيْهِ فَقَالَ مَالِى أَرَاكُمْ تَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ وَتَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ
إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ بَنَوْا مَشِيدًا وَأَمَّلُوا بَعِيدًا وَجَمَعُوا كَثِيرًا
فَأَصْبَحَ أَمَلُهُمْ غُرُورًا وَجَمْعُهُمْ ثُبُورًا وَمَسَاكِنُهُمْ قُبُورًا وَقَالَ
أَبُو حَازِمٍ إِنَّ الدُّنْيَا غَرَّتْ أَقْوَامًا فَعَمِلُوا فِيهَا بِغَيْرِ الْحَقِّ فَفَاجَأَهُمُ
الْمَوْتُ فَخَلَّفُوا مَالَهُمْ لِمَنْ لَا يَحْمَدُهُمْ وَصَارُوا لِمَنْ لَا يَعْذِرُهُمْ وَقَدْ
خَلَفْنَا بَعْدَهُمْ فَيَنْبَغِى أَنْ نَنْظُرَ الَّذِى كَرِهْنَاهُ مِنْهُمْ فَنَجْتَنِبَهُ وَالَّذِى

غَبَطْنَاهُمْ بِهِ فَنَسْتَعْمِلُهُ وَمَرَّ بَعْضُ الزُّهَّادِ بِبَابِ مَلِكٍ فَقَالَ: بَابٌ جَدِيدٌ وَمَوْتٌ عَتِيدٌ وَنَزْعٌ شَدِيدٌ وَسَفَرٌ بَعِيدٌ وَمَرَّ بَعْضُ الزُّهَّادِ بِرَجُلٍ قَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ فَقَالَ مَا هٰذَا قَالُوا مِسْكِينٌ سُرِقَ مِنْهُ جُبَّةٌ وَمَرَّ بِهِ آخَرُ فَأَعْطَاهُ جُبَّةً فَقَالَ: صَدَقَ اللهُ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ مَا أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ أَيْقَنَ بِالْحَشْرِ وَالْحِسَابِ وَزَهِدَ فِى الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَقَالَ آخَرُ: بِطُولِ الْأَمَلِ تَقْسُو الْقُلُوبُ وَبِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ تَقِلُّ الذُّنُوبُ وَقَالَ آخَرُ إِيَّاكُمْ وَالْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى وَتُثَبِّطُ عَنِ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى وَالنَّوْكَى الْحَمْقَى وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ لَوْ كَانَ لِلْخَطَايَا رِيحٌ لَافْتَضَحَ النَّاسُ وَلَمْ يَتَجَالَسُوا وَفِى الْحَدِيثِ لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَافَعْتُمْ وَكَتَبَ رَجُلٌ إِلَى صَالِحِ بْنِ عَبْدِ الْقُدُّوسِ:

الْمَوْتُ بَابٌ وَكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ ... فَلَيْتَ شِعْرِى بَعْدَ الْمَوْتِ مَا الدَّارُ

فَأَجَابَهُ بِقَوْلِه :

الدَّارُ جَنَّةُ عدن إنْ عَمِلْتَ بِمَا يُرْضِى الْإِلَهَ وَإِنْ فَرَّطْتَ فَالنَّارُ

هُمَا مَحَلَّانِ مَا لِلنَّاسِ غَيْرُهُمَا فَانْظُرْ بِنَفْسِكَ مَاذَا أَنْتَ تَخْتَارُ

وَقَالَ آخَرُ : قَنِّعِ النَّفْسَ بِالْكَفَافِ وَإِلَّا طَلَبَتْ مِنْكَ فَوْقَ مَا يَكْفِيهَا وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ كُلُّ مَا أَصَابَكَ فِى هذه الْحَيَاة فَالْمَوْتُ أَعْظَمُ مِنْهُ وَكُلُّ مَا تَلْقَاهُ مِنْ عَذَابٍ بَعْدَ الْمَوْتِ فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ وُجِدَ مَكْتُوبٌ فِى حَجَرٍ يَابْنِى آدَمَ لَوْ رَأَيْتَ يَسِيرَ مَا بَقِىَ مِنْ أَجَلِكَ لَزَهِدْتَ فِى طَوِيلِ مَا تَرْجُو مِنْ أَمَلِكَ وَلَرَغِبْتَ فِى الزِّيَادَة مِنْ عَمَلِكَ وَلَقَصَّرْتَ مِنْ حِرْصِكَ وَحِيَلِكَ وَإِنَّمَا يَلْقَاكَ غَدًا نَدَمُكَ لَوْ قَدْ زَلَّتْ بِكَ قَدَمُكَ أَسْلَمَكَ أَهْلُكَ وَحَشَمُكَ وَتَبَرَّأَ مِنْكَ الْقَرِيبُ وَانْصَرَفَ عَنْكَ الْحَبِيبُ . عُوتِبَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْمَرْوَزِىُّ فِى كَثْرَةِ الصَّدَقَة فَقَالَ : لَوْ أَنَّ رَجُلاً أَرَدَ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ

أَكَانَ يُبْقِي فِي الْأُولَى شَيْئًا وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لِأَبِي حَازِمٍ مَالَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ: لِأَنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَتَكُمْ وَعَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ فَكَرِهْتُمْ أَنْ تَنْتَقِلُوا مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ مِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا لَا تَبْقَى عَلَى حَالَةٍ وَلَا تَخْلُو مِنِ اسْتِحَالَةٍ تُصْلِحُ جَانِبًا بِإِفْسَادِ جَانِبٍ وَتَسُرُّ صَاحِبًا بِمَسَاءَةِ صَاحِبٍ فَالرُّكُونُ إِلَيْهَا خَطَرٌ وَالثِّقَةُ بِهَا غُرُورٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ قَدْ مَلَكَ الدُّنْيَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ رَاغِبٍ وَزَاهِدٍ فَلَا الرَّاغِبَ فِيهَا اسْتَبْقَتْ وَلَا عَنِ الزَّاهِدِ فِيهَا كَفَّتْ.

(فَصْلٌ) حُكِيَ أَنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ هَبْ لِي مِنْ قَلْبِكَ الْخُشُوعَ وَمِنْ بَدَنِكَ الْخُضُوعَ وَمِنْ عَيْنَيْكَ الدُّمُوعَ فَإِنِّي قَرِيبٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ زِدْ مِنْ طُولِ أَمَلِكَ فِي قَصِيرِ عَمَلِكَ فَإِنَّ الدُّنْيَا ظِلُّ الْغَمَامِ وَحُلْمُ النِّيَامِ فَمَنْ عَرَفَهَا ثُمَّ طَلَبَهَا فَقَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ وَحُرِمَ التَّوْفِيقَ. سَمِعَ رَجُلٌ رَجُلًا يَقُولُ لَا أَرَاكَ اللهُ مَكْرُوهًا

فَقَالَ كَأَنَّكَ دَعَوْتَ عَلَى صَاحِبِكَ بِالْمَوْتِ إِنَّ صَاحِبَكَ مَاصَاحَبَ الدُّنْيَا فَلَابُدَّ أَنْ يَلْقَى مَكْرُوهًا وَدَخَلَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْكَعْبَةَ وَمَعَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ سَلْنِي حَاجَتَكَ قَالَ إِنَّنِي أَسْتَحِي مِنَ اللهِ أَنْ أَسْأَلَ فِي بَيْتِهِ غَيْرَهُ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ لَهُ سَلْنِي الآنَ فَقَالَ وَاللهِ مَاسَأَلْتُ الدُّنْيَا مَنْ يَمْلِكُهَا فَكَيْفَ أَسْأَلُ مَنْ لَا يَمْلِكُهَا وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ قَالَ (إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ قَالُوا فَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ يَارَسُولَ اللهِ قَالَ الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ) تَنْبِيهٌ: مَنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعَيْنِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِأُذُنِهِ لِلْعَبْدِ سِرٌّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ وَسِرٌّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ فَمَنْ هَتَكَ السِّرَّ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ هَتَكَ اللهُ السِّرَّ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ لِلْعَبْدِ رَبٌّ هُوَ مُلَاقِيهِ وَبَيْتٌ هُوَ سَاكِنُهُ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ

يسترضى ربه قبل لقائه ويعمر بيته قبل انتقاله إليه إضاعة الوقت أشد من الموت يعنى إضاعته عن عبادة الرب والاقبال عليه لأنها تقطعك عن الله والدار الآخرة والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها والدنيا من أولها إلى اخرها لا تساوى غم ساعة فكيف بغم العمر . فائدة : التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذاهم يشركون) وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون فى الدنيا وما أعد لهم فى الآخرة . وقال سفيان الثورى لابن أبى ذئب إن اتقيت الله كفاك الناس وإن اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئا . وقال سليمان ابن داود أوتينا

مما أوتى الناس ومما لم يؤتوا وعلمنا مما علم الناس ومما لم يعلموا فلم نجد شيئا أفضل من تقوى الله فى السر والعلانية والعدل فى الغضب والرضى والقصد فى الفقر والغنى. وروى الإمام أحمد فى الأثر الإلهى: ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دونى إلا قطعت أسباب السموات والأرض دونه فان سألنى لم أعطه وإن دعانى لم أجبه وإن استغفرنى لم أغفر له وما من مخلوق اعتصم بى دون خلقى إلا ضمنت السموات والأرض رزقه فان سألنى أعطيته وإن دعانى أجبته وإن استغفرنى غفرت له. فائدة جمع النبى صلى الله عليه وسلم بين تقوى الله وحسن الخلق لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه فتقوى الله توجب له محبة الله وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته وودع ابن عون رجلا فقال عليك بتقوى الله فان المتقى ليست عليه وحشة. وقال زيد بن

أَسْلَمَ كَانَ يُقَالُ مَنِ اتَّقَى اللهَ أَحَبَّهُ النَّاسُ وَإِنْ كَرِهُوهُ .

فَائِدَةٌ : فَرِّغْ خَاطِرَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ لِمَا خُلِقْتَ لَهُ وَلَا تُشْغِلْهُ بِمَا ضُمِنَ لَهُ فَإِنَّ الرِّزْقَ وَالْأَجَلَ قَرِينَانِ مَضْمُونَانِ فَمَا دَامَ الْأَجَلُ بَاقِيًا كَانَ الرِّزْقُ آتِيًا وَإِذَا سَدَّ عَلَيْكَ بِحِكْمَتِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِهِ فَتَحَ لَكَ بِرَحْمَتِهِ طَرِيقًا أَنْفَعَ لَكَ مِنْهُ فَتَأَمَّلْ حَالَ الْجَنِينِ يَأْتِيهِ رِزْقُهُ وَغِذَاؤُهُ وَهُوَ الدَّمُ مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدٍ وَهِيَ السُّرَّةُ فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ الْأُمِّ وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الطَّرِيقُ فَتَحَ لَهُ طَرِيقَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَجْرَى لَهُ فِيهِمَا رِزْقًا أَطْيَبَ وَأَلَذَّ مِنَ الْأَوَّلِ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا فَإِذَا تَمَّتْ مُدَّةُ الرِّضَاعِ وَانْقَطَعَتِ الطَّرِيقَانِ بِالْفِطَامِ فَتَحَ لَهُ طُرُقًا أَرْبَعَةً أَكْمَلَ مِنْهَا طَعَامَانِ وَشَرَابَانِ فَالطَّعَامَانِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّرَابَانِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَلْبَانِ وَمَا يُضَافُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَلَاذِّ فَإِذَا مَاتَ انْقَطَعَتْ عَنْهُ هٰذِهِ الطُّرُقُ الْأَرْبَعَةُ لٰكِنَّهُ فَتَحَ لَهُ إِنْ كَانَ سَعِيدًا طُرُقًا ثَمَانِيَةً وَهِيَ

أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ فَهَكَذَا الرَّبُّ سُبْحَانَهُ لَا يَمْنَعُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَيُؤْتِيهِ أَفْضَلَ مِنْهُ وَأَنْفَعَ لَهُ وَلَيْسَ ذَٰلِكَ لِغَيْرِ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَمْنَعُهُ الْحَظَّ الْأَدْنَى الْخَسِيسَ وَلَا يَرْضَى لَهُ بِهِ وَيُعْطِيهِ الْحَظَّ الْأَعْلَى النَّفِيسَ وَالْعَبْدُ لِجَهْلِهِ بِمَصَالِحِ نَفْسِهِ وَجَهْلِهِ بِكَرَمِ رَبِّهِ وَحِكْمَتِهِ وَلُطْفِهِ لَا يَعْرِفُ التَّفَاوُتَ بَيْنَ مَا مُنِعَ مِنْهُ وَبَيْنَ مَا ادُّخِرَ لَهُ بَلْ هُوَ مُولَعٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ وَإِنْ كَانَ دَنِيئًا وَبِقِلَّةِ الرَّغْبَةِ فِي الْآجِلِ وَإِنْ كَانَ عَلِيًّا وَلَوْ أَنْصَفَ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَأَنَّى لَهُ بِذَٰلِكَ لَعَلِمَ أَنَّ فَضْلَهُ عَلَيْهِ فِيمَا مَنَعَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا وَنَعِيمِهَا أَعْظَمُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِ فِيمَا آتَاهُ مِنْ ذَٰلِكَ فَمَا مَنَعَهُ إِلَّا لِيُعْطِيَهُ وَلَا ابْتَلَاهُ إِلَّا لِيُعَافِيَهُ وَلَا امْتَحَنَهُ إِلَّا لِيُصَافِيَهُ وَلَا أَمَاتَهُ إِلَّا لِيُحْيِيَهُ وَلَا أَخْرَجَهُ إِلَى هَٰذِهِ الدَّارِ إِلَّا لِيَتَأَهَّبَ لِلْقُدُومِ عَلَيْهِ وَلِيَسْلُكَ الطَّرِيقَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا وَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا

وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

فَائِدَةٌ : مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ اشْتَغَلَ بِإِصْلَاحِهَا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ وَمَنْ عَرَفَ رَبَّهُ اشْتَغَلَ بِهِ عَنْ هَوَى نَفْسِهِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا دَخَلَ النَّاسُ النَّارَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَبْوَابٍ بَابٌ أَوْرَثَتْ شَكًّا فِي دِينِ اللهِ وَبَابُ شَهْوَةٍ أَوْرَثَتْ تَقْدِيمَ الْهَوَى عَلَى طَاعَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ وَبَابُ غَضَبٍ أَوْرَثَ الْعُدْوَانَ عَلَى خَلْقِهِ أُصُولُ الْخَطَايَا ثَلَاثَةٌ الْكِبْرُ وَهُوَ الَّذِي أَصَارَ إِبْلِيسَ إِلَى مَا أَصَارَهُ وَالْحِرْصُ وَهُوَ الَّذِي أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْحَسَدُ وَهُوَ الَّذِي جَرَّأَ أَحَدَ بَنِي آدَمَ عَلَى أَخِيهِ فَمَنْ وُقِيَ شَرَّ هٰذِهِ الثَّلَاثِ فَقَدْ وُقِيَ الشَّرَّ فَالْكُفْرُ مِنَ الْكِبْرِ وَالْمَعَاصِي مِنَ الْحِرْصِ وَالْبَغْيُ وَالظُّلْمُ مِنَ الْحَسَدِ أَكْمَلُ النَّاسِ هِدَايَةً أَعْظَمُهُمْ جِهَادًا وَأَفْرَضُ الْجِهَادِ جِهَادُ النَّفْسِ وَجِهَادُ الْهَوَى وَجِهَادُ الشَّيْطَانِ وَجِهَادُ الدُّنْيَا فَمَنْ جَاهَدَ هٰذِهِ الْأَرْبَعَةَ فِي اللهِ هَدَاهُ اللهُ إِلَى سُبُلِ رِضَاهُ

الْمُوَصِّلَةَ إِلَى جَنَّتِهِ. عُلَمَاءُ السُّوءِ جَلَسُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ يَدْعُونَ إِلَيْهَا النَّاسَ بِأَقْوَالِهِمْ وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى النَّارِ بِأَفْعَالِهِمْ فَكُلَّمَا قَالَتْ أَقْوَالُهُمْ لِلنَّاسِ هَلُمُّوا قَالَتْ أَفْعَالُهُمْ لَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ فَلَوْ كَانَ مَادَعَوْا إِلَيْهِ حَقًّا كَانُوا أَوَّلَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ فَهُمْ فِي الصُّورَةِ أَدِلَّاءُ وَفِي الْحَقِيقَةِ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ أَيُّهَا الْعَبْدُ اتَّقِ اللهَ وَلَا تَغْتَرَّ بِالْأَمَانِي وَالتَّسْوِيفِ فَقَدْ لُعِنَ إِبْلِيسُ وَأُهْبِطَ مِنْ مَنْزِلِ الْعِزِّ بِتَرْكِ سَجْدَةٍ وَاحِدَةٍ أُمِرَ بِهَا وَأُخْرِجَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ بِلُقْمَةٍ تَنَاوَلَهَا أَفَلَا تَخْشَى أَنْ يَطْرُدَكَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَيُّهَا الْعَبْدُ وَأَنْتَ ذُنُوبُكَ وَسَيِّآتُكَ فِي كُلِّ وَقْتٍ تَزِيدُ عَلَى حَسَنَاتِكَ بِأَضْعَافِ أَضْعَافِهَا (أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

فَائِدَةٌ: اجْتَنِبْ مَنْ يُعَادِي أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِئَلَّا يُعْدِيَكَ خُسْرَانُهُ وَاحْتَرِزْ مِنْ عَدُوَّيْنِ هَلَكَ بِهِمَا أَكْثَرُ الْخَلْقِ مَنْ يَصُدُّ عَنْ

سَبِيلِ اللهِ شُبُهَاتُهُ وَزُخْرُفُ قَوْلِهِ وَمَفْتُونٌ بِدُنْيَاهُ وَرِيَاسَتِهِ وَأُصُولُ الْمَعَاصِي كُلُّهَا كِبَارُهَا وَصِغَارُهَا ثَلَاثَةٌ تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِغَيْرِ اللهِ وَطَاعَةُ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالْقُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ وَهِيَ الشِّرْكُ وَالظُّلْمُ وَالْفَوَاحِشُ فَغَايَةُ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ وَأَنْ يُدْعَى مَعَهُ إِلٰهٌ آخَرَ وَغَايَةُ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ الْقَتْلُ وَغَايَةُ طَاعَةِ الْقُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ الزِّنَا وَغَايَةُ الشَّيْءِ هِيَ انْتِهَاؤُهُ وَقَدْ جَمَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ فِي قَوْلِهِ: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ) وَهٰذِهِ الثَّلَاثَةُ يَدْعُو بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ. تَنْبِيهٌ: لَا تَتِمُّ الرَّغْبَةُ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَسْتَقِيمُ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا بِالنَّظَرِ فِي سُرْعَةِ زَوَالِهَا وَاضْمِحْلَالِهَا وَنَقْصِهَا وَخِسَّتِهَا وَأَلَمِ الْمُزَاحَمَةِ عَلَيْهَا وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْقَصَصِ وَالنَّغَصِ وَالْأَنْكَادِ وَآخِرُ ذٰلِكَ الزَّوَالُ وَالِانْقِطَاعُ مَعَ مَا يَعْقُبُهُ مِنَ الْحَسْرَةِ

وَالْأَسَف وَالْأَمْرُ الثَّانى النَّظَرُ فى الآخِرَة وَإقبالها وَمجيئها وَدوامها وَبقائها وَمَا فيها من الْخَيْرَات وَالْمُسَرَّات وَالتَّفاوُت الَّذى بَيْنَهَا وبين مَاهُنا فهى كَمَا قَالَ تعالى (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) فَهِىَ خَيْرَاتٌ كَامِلَةٌ دَائِمَةٌ وَهٰذه خَيَالَات نَاقِصَةٌ مُنقطعةٌ مُضْمَحِلَّةٌ قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ الله مَا مِنْ سَاعَة إلاَّ وَاللهُ سبحانه يَطَّلِعُ فِيهَا عَلَى قُلُوبِ الْعِبَاد فَأَىُّ قَلْب رَأَى فيه غيرهُ سَلَّطَ عَلَيْه إبْلِيسَ وَاعْلَمْ أَنَّ الْعقُوبَات تختلف فتارَةً تعجل وَتَارَةً تؤَخَّر وتَارَةً يجمع اللهُ عَلَى الْعَاصِى بينهما وَأَشَدُّ الْعقُوبَات العقوبةُ بسَلْب الايمان ودونها العقوبةُ بموت الْقَلْبِ وَمحو لَذَّة الذِّكر وَالْقرَاءَة وَالدُّعاء وَالْمنَاجَاة منه وربَّمَا دَبَّتْ عقوبةُ الْقَلْب فيه دبيبَ الظُّلْمَة إلى أَنْ يمتلىءَ الْقَلْبُ بها فَتَعْمَى الْبَصِيرَةُ وَأَهْونُ الْعُقُوبَة مَا كَانَ بالْبَدَن فى الدُّنيا وَأَهْوَنُ منها مَا وَقَعَ بِالْمَال وَرُبَّمَا كَانَتْ عقُوبَةُ النَّظَر فى الْبَصيرَة أَو الْبَصَر أَوْ فيهما وَاعْلَمْ أَنَّ

الجزاء من جنس العمل والقلب معلق بالحرام كلما هم أن يفارقه ويخرج منه عاد إليه كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها فالكفر والمعاصى والفسوق كله غموم وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه وما ألفه فلا يزال فى غم ذلك حتى يموت فان لم يخرج من غم ذلك فى الدنيا بقى فى غمه فى البرزخ وفى القيامة وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك فما حبس العبد عن الله فى هذه الدار حبسه عنه بعد الموت وكان معذبا به هناك كما كان قلبه معذبا به فى الدنيا فليس العشاق والفجرة والظلمة فى لذة فى هذه الدار . وإنما هم يعذبون فيها وفى البرزخ وفى القيامة ولكن سكر الشهوات وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم فاذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أحضرت نفوسهم الألم الشديد وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل

الدُّودُ فى لحُومِهِمْ فالآلامُ تأكُلُ أرواحهُمْ غيرَ أنَّها لا تفنَى والدُّودُ يأكل جسومهم.

(فَصْلٌ) وقَالَ الإمامُ أحمدُ حدَّثنا إسماعيلُ بن عبدِ الكريم قالَ حدَّثنى عبدُ الصَّمدِ بنُ معقلٍ حدَّثنا وهبُ بن منبهٍ قالَ كانَ حزقيلُ نائماً فأتاهُ ملكٌ فذكرَ حديثاً طويلاً وفيه أنَّهُ مرَّ بقومٍ أمواتٍ فقيلَ له ادعهم فدعاهم فأحياهمُ اللهُ فقالَ سلْهم فيمَ كنتمْ فقالوا لمَّا فارقْنا الحياةَ لقينا ملكاً يقالُ له ميكائيلُ فقالَ هلمُّوا أعمالكُمْ وخذوا أجورَكُمْ فذلكَ سنتُنا فيكُمْ وفيمنْ كانَ قبلكُمْ وفيمنْ هو كائنٌ بعدكُمْ فنظروا فى أعمالنا فوجدونا نعبدُ الأوثانَ فسلَّطَ الدودَ على أجسادنا فجعلت الأرواحُ تتألَّمُ ملكَ الغمَّ على أرواحنا فجعلت الأجسادُ يأكلُها الدودُ فلمْ نزلْ كذلكَ نعذَّبُ حتَّى دعوتَنا.

(فَصْلٌ) ثمَّ ليعلمْ أنَّ الهوى أصلُهُ الميلُ أعنى ميلَ الطبعِ إلى

مَا يلَائِمُهُ وَهَذَا المَيْلُ خُلِقَ فِى الْإِنْسَانِ لِضَرُورَةِ بَقَائِهِ فَإِنَّهُ لَوْلَا مَيْلُهُ إِلَى الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ مَا أَكَلَ وَلَا شَرِبَ، وَلَا نَكَحَ فَالْهَوَى مُسْتَحِثٌ لِمَا يُرِيدُهُ كَمَا أَنَّ الْغَضَبَ دَافِعٌ عَنْهُ مَا يُؤْذِيهِ لَكِنْ قَدْ يُفْرِطُ الْهَوَى بِصَاحِبِهِ حَتَّى يُورِدَهُ الْمَهَالِكَ وَالْمَخَازِى فَلْيَأْنَفِ الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ تَحْتَ قَهْرِ عَدُوِّهِ وَشَيْطَانِهِ وَيَعْلَمَ أَنَّ الْهَوَى مَا خَالَطَ شَيْئًا إِلَّا أَخَذَهُ فَإِنْ وَقَعَ فِى الْعِلْمِ أَخْرَجَهُ إِلَى الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنْ جُمْلَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَإِنْ وَقَعَ فِى الزُّهْدِ أَخْرَجَ صَاحِبَهُ إِلَى الرِّيَاءِ وَمُخَالَفَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَإِنْ وَقَعَ فِى الْحُكْمِ أَخْرَجَ صَاحِبَهُ إِلَى الظُّلْمِ وَصَدَّهُ عَنِ الْحَقِّ وَإِنْ وَقَعَ فِى الْقِسْمَةِ خَرَجَتْ عَنْ قِسْمَةِ الْعَدْلِ إِلَى قِسْمَةِ الْجَوْرِ وَإِنْ وَقَعَ فِى الْوِلَايَةِ وَالْعَزْلِ أَخْرَجَ صَاحِبَهُ إِلَى خِيَانَةِ اللهِ وَالْمُسْلِمِينَ حَيْثُ يُوَلِّى بِهَوَاهُ وَيَعْزِلُ بِهَوَاهُ وَإِنْ وَقَعَ فِى الْعِبَادَةِ خَرَجَتْ عَنْ أَنْ تَكُونَ

طَاعَةٍ وَقُرْبَةٍ فَمَا قَارَنَ الْهَوَى شَيْئًا إِلَّا أَفْسَدَهُ وَقَدْ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مُتَّبِعَ الْهَوَى بِمَنْزِلَةِ عَابِدِ الْوَثَنِ فَقَالَ تَعَالَى (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ) وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ إِنْ شِئْتَ أَخْبَرْتُكَ بِدَائِكَ وَإِنْ شِئْتَ أَخْبَرْتُكَ بِدَوَائِكَ دَاؤُكَ هَوَاكَ وَدَوَائُكَ تَرْكُ هَوَاكَ وَمُخَالَفَتُهُ. قَالَ الْحَسَنُ الْمُنَافِقُ لَا يَهْوَى شَيْئًا إِلَّا ارْتَكَبَهُ. وَقَالَ أَيْضًا الْمُنَافِقُ عَبْدُ هَوَاهُ لَا يَهْوَى شَيْئًا إِلَّا فَعَلَهُ وَالْهَوَى هُوَ حِضَارُ جَهَنَّمَ الْمُحِيطُ بِهَا فَمَنْ وَقَعَ فِيهِ وَقَعَ فِيهَا. وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِشَيْخِنَا إِذَا خَانَ الرَّجُلُ فِي نَقْدِ الدَّرَاهِمِ سَلَبَهُ اللهُ مَعْرِفَةَ النَّقْدِ أَوْ قَالَ نَسِيَهُ فَقَالَ الشَّيْخُ هَكَذَا مَنْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ فَانَّ هٰذَا مِنَ الْهَوَى يَعْنِي أَنَّهُ يُنْزَعُ مِنْهُ فَلَا يَفْهَمُهُ وَلَا يَحْفَظُ بِسَبَبِ ارْتِكَابِ هَوَاهُ وَتَأْوِيلِهِ عَلَى مَا يَهْوَاهُ[1] الْقُلُوبُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالشَّهَوَاتِ مَحْجُوبَةٌ عَنِ اللهِ بِقَدْرِ

---

(١) فائدة القلوب

تَعَلُّقَهَا بِهَا وَقَدْ جَعَلَ سُبْحَانَهُ رِضَى الْعَبْدِ بِالدُّنْيَا وَطُمَأْنِينَتَهُ وَغَفْلَتَهُ عَنْ مَعْرِفَةِ آيَاتِهِ وَتَدَبُّرِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا سَبَبَ شَقَائِهِ وَهَلَاكِهِ وَلَا يَجْتَمِعُ هٰذَانِ أَعْنِى الرِّضَى بِالدُّنْيَا وَالْغَفْلَةَ عَنْ آيَاتِ الرَّبِّ إِلَّا فِى قَلْبِ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ وَلَا يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّ الْعِبَادِ وَإِذَا تَأَمَّلْتَ أَحْوَالَ النَّاسِ وَجَدْتَ هٰذَا الضَّرْبَ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى النَّاسِ وَهُمْ عُمَّارُ الدُّنْيَا وَأَقَلُّ النَّاسِ عَدَدًا مَنْ هُوَ عَلَى خِلَافِ ذٰلِكَ وَهُوَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ غُرْبَةً بَيْنَهُمْ لَهُمْ شَأْنٌ وَلَهُ شَأْنٌ عِلْمُهُ غَيْرُ عُلُومِهِمْ وَإِرَادَتُهُ غَيْرُ إِرَادَتِهِمْ وَطَرِيقُهُ غَيْرُ طَرِيقِهِمْ فَهُوَ فِى وَادٍ وَهُمْ فِى وَادٍ قَالَ تَعَالَى (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ نَظَرُ أَهْلِ الْمَعَاصِى لَا يُجَاوِزُ مَبَادِىءَ شَهَوَاتِهِمْ وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى مُنْتَهَى غَايَاتِهَا وَالْعَاقِلُ الْبَصِيرُ الْحَازِمُ يَنْظُرُ مَا وَرَاءَ

السُّور من الغَايَات المَحْمُودَة وَالمَذْمُومَة فيرى المنْهيَّات كَطَعَام لَذِيذ قَدْ خُلِطَ فيه سمٌّ قَاتِلٌ فكُلَّمَا دعَتْهُ لَذَّتُه إلى تَنَاوُله نَهاهُ مَافِيه من السُّمِّ ويَرَى الأَوامِر كَدَوَاء كَرِيه المَذَاق مفْضٍ إِلَى العَافِيَة وَالشّفَاء وكُلَّمَا نَهاه كَرَاهَةُ مَذَاقه عن تَنَاوُله أَمَرَهُ نفعه وحَلَاوَة عَاقِبَتِه بالشِّفَاء وَالعَافِيَة بالصَّبْر عَلَى ذَلِك فَاللهُ المُسْتَعَانُ .

(فَصْلٌ) وَاللهُ سُبْحَانَه قَدْ وَصَفَ أَهْلَ السَّعَادَة بالإحْسَان مَعَ الخَوْف وَوَصَفَ الأَشْقِيَاء بالإسَاءَة مع الأَمْن وَمَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ الصَّحَابَة رَضِىَ اللهُ عَنْهم وجدَهُمْ فى غَايَة العَمَل مَعَ غَايَة الخَوْف وَنَحْنُ جَمَعْنَا بَيْنَ التَّقْصِير بَل التَّفْرِيط وَالأَمْن فهَذَا الصِّدِّيق يَقُولُ وَدِدْتُ أَنِّى شَعْرَةٌ فى جَنْب عَبْدٍ مُؤْمِن ذَكَرَهُ الإمَامُ أَحْمَدُ عنه وَذَكَرَ عَنْه أَيْضاً أَنَّه كَانَ يُمْسِكُ بلسَانه وَيَقُولُ هَذَا الَّذى أَوْرَدَنى المَوَارِدَ وَيَقُولُ ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا وَكَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاة

كَأَنَّهُ عُودٌ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَأُتِيَ بِطَائِرٍ فَأَخَذَ يُقَلِّبُهُ ثُمَّ قَالَ: مَا صِيدَ مِنْ صَيْدٍ وَلَا قُطِعَ مِنْ شَجَرَةٍ إِلَّا بِمَا ضَيَّعَتْ مِنَ التَّسْبِيحِ وَلَمَّا احْتُضِرَ قَالَ لِعَائِشَةَ: يَا بُنَيَّةَ إِنِّي أَصَبْتُ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ هٰذِهِ الْعَبَاءَةَ وَهٰذَا الْحِلَابُ وَهٰذَا الْعَبْدُ فَأَسْرِعِي بِهِ إِلَى ابْنِ الْخَطَّابِ وَقَالَ وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ هٰذِهِ الشَّجَرَةَ تُؤْكَلُ وَتُعْضَدُ وَقَالَ قَتَادَةُ بَلَغَنِي أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لَيْتَنِي خُضْرَةٌ تَأْكُلُنِي الدَّوَابُّ. وَهٰذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَمَّا قَرَأَ سُورَةَ الطُّورِ وَبَلَغَ (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) بَكَى وَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ حَتَّى مَرِضَ وَعَادُوهُ فَقَالَ لِابْنِهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ: وَيْحَكَ ضَعْ خَدِّي عَلَى الْأَرْضِ عَسَاهُ أَنْ يَرْحَمَنِي ثُمَّ قَالَ وَيْلُ أُمِّي إِنْ لَمْ يَغْفِرِ اللهُ لِي ثَلَاثًا ثُمَّ قَضَى وَكَانَ يَمُرُّ بِالْآيَةِ فِي وِرْدِهِ بِاللَّيْلِ فَتَخْنُقُهُ الْعَبْرَةُ فَيَبْقَى فِي الْبَيْتِ أَيَّامًا وَيُعَادُ يَحْسَبُونَهُ مَرِيضًا وَكَانَ فِي وَجْهِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ قَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ مَصَّرَ اللهُ

بِكَ الْأَمْصَارَ وَفَتَحَ بِكَ الْفُتُوحَ وَفَعَلَ وَفَعَلَ فَقَالَ وَدِدْتُ أَنِّى أَنْجُو
لَا أَجْرًا وَلَا وِزْرًا وَكَانَ عُثْمَانُ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ إِذَا وَقَفَ عَلَى الْقَبْرِ
يَبْكِى حَتَّى تَبْتَلَّ لِحْيَتُهُ وَقَالَ: لَوْ أَنِّى بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَا أَدْرِى إِلَى
أَيِّهِمَا يُؤْمَرُ بِى لَاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيِّهِمَا
أَصِيرُ. وَكَانَ عَلِىُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ يَشْتَدُّ خَوْفُهُ مِنَ اثْنَتَيْنِ
طُولُ الْأَمَلِ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى قَالَ فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِى الْآخِرَةَ
وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَيَقُولُ أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ
مُدْبِرَةً وَالْآخِرَةَ قَدْ أَسْرَعَتْ مُقْبِلَةً وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بَنُونَ فَكُونُوا
مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا
حِسَابٌ وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ
مَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُقَالَ لِى يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ قَدْ عَلِمْتَ
فَكَيْفَ عَمِلْتَ فِى عِلْمِكَ وَيَقُولُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَنْتُمْ لَاقُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ

لَمَا أَكَلْتُمْ طَعَامًا عَلَى شَهْوَة وَلَا شَرِبْتُمْ شَرَابًا عَلَى شَهْوَة وَلَا دَخَلْتُمْ بَيْتًا تَسْتَظِلُّونَ فيه وَلَخَرَجْتُمْ إلى الصَّعَدَات تَضْرِبُونَ صُدُورَكُمْ وَتَبْكُونَ عَلَى أَنفسكُمْ ولوددت أَنِّى شَجرة تعضد ثم تؤكل وهذا عبد الله بن عَبَّاس كَانَ أَسفَلُ عَيْنَيْه مثل الشِّرَاك الْبَالِى مِنَ الدُّمُوعِ وَأَبُو ذَرّ رَضِىَ الله عنه يقول لَيْتَنِى شَجرة تعضد ووددت أَنِّى لَمْ أُخلَقْ وَعُرِضَت عَلَيْه النَّفَقَةُ فقال عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها ومحرر يخدمنا وفضل عباءة وإنِّى أَخافُ الْحساب فيها وقرأ تميم الدَّارِىُّ لَيلَة سورة الجاثية فلما أَتَى على هذه الآية (أَمْ حَسبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيّآت أَنْ نجعلهم كالذين ءامنوا وعملوا الصَّالحَات) جعل يرددها ويبكى حتَّى أَصبح . وقال أبو عبيدة بن الجرَّاح وددت أَنِّى كبش فذبحنى أهلى وأَكلوا لحمى وحسوا مرقى وقال إبراهيم التَّيمى ما عرضت قولى على عملى إلا خشيت أَنْ أَكون مكذبا .

(فَصْلٌ) إذَا كَانَ هٰذَا خَوْفُ السَّلَفِ الصَّالِحِ مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ وَالصَّلَاحِ الَّذِى لَا يُوجَدُ فِيمَنْ بَعْدَهُمْ فَكَيْفَ الْحَالُ بِمَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْإِسَاءَةِ فِى الْأَعْمَالِ وَالْأَمْنِ مِنْ أَخْذِ اللهِ وَنِقْمَتِهِ وَمَكْرِهِ بِالْمَعَاصِى وَهُوَ لَا يَشْعُرُ فَإِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَضَرَرُ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِى فِى الْقُلُوبِ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ السُّمُومِ فِى الْأَبْدَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهَا فِى الضَّرَرِ وَلَيْسَ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شُرُورٌ وَدَاءٌ إِلَّا سَبَبُهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِى فَمَا الَّذِى أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ دَارِ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ وَالْبَهْجَةِ إِلَى دَارِ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ وَالْمَصَائِبِ وَمَا الَّذِى أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ وَمَسَخَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ وَبِالْقُرْبِ بُعْدًا وَبِالرَّحْمَةِ لَعْنَةً وَبِالْجَمَالِ قُبْحًا وَبِالْجَنَّةِ نَارًا تَلَظَّى وَمَا الَّذِى أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ حَتَّى عَلَا الْمَاءُ فَوْقَ رُؤُوسِ الْجِبَالِ وَمَا الَّذِى سَلَّطَ الرِّيحَ الْعَقِيمَ عَلَى قَوْمِ عَادٍ حَتَّى

أَلْقَتْهُمْ مَوْتَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ وَمَا الَّذِى
أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ حَتَّى قَطَّعَتْ قُلُوبَهُمْ فِى أَجْوَافِهِمْ
وَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَمَا الَّذِى رَفَعَ قُرَى اللُّوطِيَّةِ حَتَّى سَمِعَتِ
الْمَلَائِكَةُ نَبِيحَ كِلَابِهِمْ ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا فَأَهْلَكَهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ أَتْبَعَهُمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ أَىْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ طُبِخَتْ بِنَارِ
جَهَنَّمَ وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ وَلَا إِخْوَانِهِمْ أَمْثَالُهَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
يَعْنِى لِمَنْ عَمِلَ مِثْلَ عَمَلِهِمْ وَمَا الَّذِى أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ شُعَيْبٍ سَحَابَ
الْعَذَابِ كَالظُّلَلِ فَلَمَّا صَارَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ نَارًا تَلَظَّى وَمَا
الَّذِى أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِى الْبَحْرِ ثُمَّ نَقَلَتْ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ
فَالْأَجْسَادُ لِلْغَرَقِ وَالْأَرْوَاحُ لِلْحَرْقِ وَمَا الَّذِى خَسَفَ بِقَارُونَ
وَدَارِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ وَمَا الَّذِى أَهْلَكَ الْقُرُونَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِأَنْوَاعِ
الْعُقُوبَاتِ وَدَمَّرَهَا تَدْمِيرًا وَمَا الَّذِى أَهْلَكَ قَوْمَ صَاحِبِ يس

بالصَّيحة حتَّى أُخمِدوا عن آخرهم وما الَّذى بعث على بنى إسرائيل قوماً أُولى بأْس شديد فجاسوا خلال الدِّيار يعنى تردَّدوا وقتلوا الرِّجال وسبوا النِّساء والذَّرارى وأحرقوا الدِّيار وما الَّذى سلَّط عليهم أنواع العذاب والعقوبات مرَّة بالقتل والسَّبى وخراب البلاد ومرَّة بجور الملوك ومرَّة بمسخهم قردة وخنازير وآخر ذلك أقسم الرَّبُّ تبارك وتعالى ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب وفى مسند الإمام أحمد من حديث أمِّ سلمة قالت سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول إذا ظهرت المعاصى فى أمَّتى عمَّهم الله بعذاب من عنده فقلت يا رسول الله أما فيهم يومئذ أناس صالحون قال بلى قلت كيف يصنع بهم قال يصيبهم ما أصاب النَّاس ثمَّ يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان .

(فصل) وقال ابن القيِّم أيضاً رحمه الله كثير من الجهال

اعْتَمَدُوا عَلَى رَحْمَةِ اللهِ وَعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ فَضَيَّعُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَنَسُوا أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّهُ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ وَمَنِ اعْتَمَدَ عَلَى الْعَفْوِ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى الذُّنُوبِ فَهُوَ أَحْمَقُ كَمَا قَالَ مَعْرُوفٌ الْكَرْخِيُّ رَجَاؤُكَ لِرَحْمَةِ مَنْ لَا تُطِيعُهُ مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْحُمْقِ وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَطَعَ عُضْوًا مِنْكَ فِي الدُّنْيَا بِسَرِقَةِ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ لَا تَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ عُقُوبَتُهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى نَحْوِ هٰذَا يَعْنِي لَا تَأْمَنْ عَذَابَهُ فِي الْآخِرَةِ بِأَنْ يُعَذِّبَكَ عَلَى ذَنْبٍ لَا تَظُنُّهُ كَبِيرًا كَمَا حَكَمَ فِي الدُّنْيَا عَلَيْكَ أَيُّهَا الْعَاصِي بِالسَّرِقَةِ بِقَطْعِ يَدِكَ فِي ثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ . وَقِيلَ لِلْحَسَنِ مَا لَنَا نَرَاكَ طَوِيلَ الْبُكَاءِ فَقَالَ أَخَافُ أَنْ يَطْرَحَنِي فِي النَّارِ وَلَا يُبَالِي

فَائِدَةٌ : وَسَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ فَقَالَ يَا أَبَا سَعِيدٍ كَيْفَ نَصْنَعُ بِمُجَالَسَةِ أَقْوَامٍ يُخَوِّفُونَنَا حَتَّى تَكَادُ قُلُوبُنَا تَتَقَطَّعُ فَقَالَ وَاللهِ لَأَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُخَوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أَمْنًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ

أَقْوَامًا يُؤْمِنُونَكَ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْمَخَاوِفُ وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَبِي يَفْتَرُونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ فِيهِمْ حَيْرَانَ وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ عَلِيٌّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ مَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى عُلَمَاؤُهُمْ أَشَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ خَرَجَتِ الْفِتْنَةُ وَفِيهِمْ تَعُودُ. وَقَالَ سَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بْنُ عَاصِمٍ وَسَاقَهُ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ مَرَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَعَهُ الْحَوَارِيُّونَ بِقَرْيَةٍ قَدْ مَاتَ أَهْلُهَا إِنْسُهَا وَجِنُّهَا

وَهَوَامِهَا وَأَنْعَامِهَا وَطُيُورِهَا فَقَامَ عَلَيْهَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا سَاعَةً ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ إِنَّمَا مَاتَ هؤُلَاءِ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَلَوْلَا ذٰلِكَ لَمَاتُوا مُتَفَرِّقِينَ ثُمَّ نَادَاهُمْ عِيسَى يَا أَهْلَ الْقَرْيَةِ فَأَجَابَهُ مُجِيبٌ لَبَّيْكَ يَا رُوحَ اللهِ فَقَالَ مَا كَانَتْ جِنَايَتُكُمْ وَسَبَبُ هَلَاكِكُمْ قَالَ عِبَادَةُ الطَّاغُوتِ وَحُبُّ الدُّنْيَا قَالَ وَمَا كَانَتْ عِبَادَتُكُمْ لِلطَّاغُوتِ قَالَ طَاعَةُ أَهْلِ الْمَعَاصِي هِيَ عِبَادَةُ الطَّاغُوتِ قَالَ وَمَا كَانَ حُبُّكُمْ لِلدُّنْيَا قَالَ كَحُبِّ وَلَدٍ لِأُمِّهِ كُنَّا إِذَا أَقْبَلَتْ فَرِحْنَا وَإِذَا أَدْبَرَتْ جَزِعْنَا مَعَ أَمَلٍ بَعِيدٍ وَإِدْبَارٍ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَإِقْبَالٍ عَلَى مَسَاخِطِهِ قَالَ فَكَيْفَ كَانَ هَلَاكُكُمْ قَالَ بِتْنَا لَيْلَةً فِي عَافِيَةٍ وَأَصْبَحْنَا فِي هَاوِيَةٍ قَالَ وَمَا الْهَاوِيَةُ قَالَ سِجِّينٌ قَالَ وَمَا سِجِّينٌ قَالَ جَمْرَةٌ مِنْ نَارٍ مِثْلِ أَطْبَاقِ الدُّنْيَا كُلِّهَا دُفِنَتْ أَرْوَاحُنَا فِيهَا قَالَ فَمَا بَالُ أَصْحَابِكَ لَا يَتَكَلَّمُونَ قَالَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا قَالَ وَكَيْفَ ذٰلِكَ قَالَ هُمْ مُلْجَمُونَ بِلُجُمٍ مِنْ نَارٍ قَالَ وَكَيْفَ كَلَّمْتَنِي أَنْتَ

مِنْ بَيْنِهِمْ قَالَ كُنْتُ فِيهِمْ لَمَّا أَصَابَهُمُ الْعَذَابُ وَلَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ وَلَا عَلَى أَعْمَالِهِمْ فَلَمَّا جَاءَ الْبَلَاءُ عَمَّنِي مَعَهُمْ وَأَنَا مُعَلَّقٌ كَشَعْرَةٍ فِي الْهَاوِيَةِ لَا أَدْرِي أَأُكَرْدَسُ فِيهَا أَمْ أَنْجُو فَقَالَ عِيسَى عِنْدَ ذَلِكَ لِأَصْحَابِهِ بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ لَخُبْزُ الشَّعِيرِ وَشُرْبُ الْمَاءِ الْقَرَاحِ وَالنَّوْمُ عَلَى الْمَزَابِلِ كَثِيرٌ مَعَ عَافِيَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَقَالَ وَهْبٌ الْبَلَاءُ لِلْمُؤْمِنِ كَالشِّكَالِ لِلدَّابَّةِ يَعْنِي كَالْخِطَامِ فَإِنَّ مَا يُصِيبُهُ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْأَمْرَاضِ وَالْهُمُومِ وَالْغُمُومِ قَدْ تَرْدَعُهُ عَنْ بَعْضِ الْأَشَرِ وَالْبَطَرِ وَالْخُيَلَاءِ وَغَيْرِهَا وَقَدْ يَكُونُ تَكْفِيرًا لَهُ مِنْ خَطَايَاهُ . وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ رُوحُكَ لَا تَخْضَعُ وَعَيْنُكَ لَا تَدْمَعُ وَقَلْبُكَ لَا يَخْشَعُ وَنَفْسُكَ لَا تَشْبَعُ وَتَظْلِمُهَا وَأَنْتَ لَهَا تَتَوَجَّعُ وَتُظْهِرُ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْحَالِ تَطْمَعُ وَتَطْلُبُ مَا لَيْسَ لَكَ بِحَقٍّ وَمَا وَجَبَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ تَمْنَعُ وَتَرُومُ فَضْلَ رَبِّكَ وَلِلْمَاعُونِ تَمْنَعُ وَتُوقِظُ الْغَافِلِينَ بِإِنْذَارِكَ وَتَتَنَاوَمُ عَنِ

سمعك وتهجع وتحض غيرك بخيرك ونفسك الفقيرة لا تنفع
وتحوم حول الحق وأنت بالباطل مولع وتتعثر فى المضائق وطرق
النجاة مهيع وتتهجم على الذنوب وفى المجرمين تشفع وتظهر القناعة
بالقليل وبالكثير لا تشبع وتعمر الدار الفانية ودارك الباقية
خراب بلقع وتستوطن فى منزل رحيل وكأنك إلى ربك لا ترجع
وتظن أنك بلا رقيب وأعمالك إلى المراقب ترفع تقدم على الكبائر
وعن الصغائر تتورع وتؤمل الغفران وأنت عن الذنوب لا تقلع
وترى الأهوال محيطة بك وأنت فى ميدان اللهو ترتع وتستقبح
أفعال الجهال وباب الجهل تقرع وقد سار المخفون وتخلفت فما ذا
تتوقع أتعب نفسك ما دام فى الحياة مدفع . وقال بلال بن سعد
فى بعض مواعظه والله لكفى به ذنباً أن الله يزهدنا فى الدنيا ونحن
نرغب فيها وقال أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله

وَأَخْبَرَكَ بِعَيْبٍ فِيكَ إِلَيْكَ هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَخٍ كُلَّمَا لَقِيَكَ وَضَعَ فِي يَدِكَ دِينَارًا . وَقَالَ لَا تَكُنْ وَلِيًّا لله فِي الْعَلَانِيَةِ وَعَدُوّه فِي السِّرِّ وَلَا تَكُونَ عَدُوَّ إِبْلِيسَ وَالنَّفْسِ وَالشَّهَوَاتِ فِي الْعَلَانِيَةِ وَصَدِيقَهُمْ فِي السِّرِّ وَلَا تَكُنْ ذَا وَجْهَيْنِ وَذَا لِسَانَيْنِ فَتَظْهَرَ لِلنَّاسِ أَنَّكَ تَخْشَى اللهَ لِيَحْمَدُوكَ وَقَلْبُكَ فَاجِرٌ . وَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا لِلْفَنَاءِ وَإِنَّمَا خُلِقْتُمْ لِلْبَقَاءِ وَلَكِنَّكُمْ تَنْتَقِلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ كَمَا نُقِلْتُمْ مِنَ الْأَصْلَابِ إِلَى الْأَرْحَامِ وَمِنَ الْأَرْحَامِ إِلَى الدُّنْيَا وَمِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْقُبُورِ وَمِنَ الْقُبُورِ إِلَى الْمَوْقِفِ وَمِنَ الْمَوْقِفِ إِلَى الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ وَقَالَ أَيْضًا : عِبَادَ الرَّحْمَنِ إِنَّكُمْ تَعْمَلُونَ فِي أَيَّامٍ قِصَارٍ لِأَيَّامٍ طُوَالٍ وَفِي دَارِ زَوَالٍ إِلَى دَارِ مُقَامٍ وَفِي دَارِ حُزْنٍ وَنَصَبٍ لِدَارِ نَعِيمٍ وَخُلُودٍ فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ عَلَى يَقِينٍ لَمْ يَنْفَعْهُ عَمَلُهُ عِبَادَ الرَّحْمَنِ لَوْ غُفِرَتْ خَطَايَاكُمُ الْمَاضِيَةُ لَكَانَ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَ لَكُمْ شُغْلًا وَلَوْ عَمِلْتُمْ

بِمَا تَعْلَمُونَ لَكَانَ لَكُمْ مُقْتَدًا وَمُلْتَجَا عِبَادَ الرَّحْمٰنِ أَمَّا مَا وُكِلْتُمْ بِهِ فَتُضَيِّعُونَهُ وَأَمَّا مَا تَكَفَّلَ اللهُ لَكُمْ بِهِ فَتَطْلُبُونَهُ مَا هٰكَذَا نَعَتَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ذَوُو عُقُولٍ فِى الدُّنْيَا وَبُلْهٌ فِى الآخِرَةِ وَعُمْىٌ عَمَّا خُلِقْتُمْ لَهُ بُصَرَاءُ فِى أَمْرِ الدُّنْيَا هَلْ جَاءَكُمْ مُخْبِرٌ يُخْبِرُكُمْ أَنَّ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِكُمْ قَدْ تُقُبِّلَ مِنْكُمْ أَوْ شَيْئًا مِنْ خَطَايَاكُمْ قَدْ غُفِرَ لَكُمْ (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

وَمِنْ عَجَبِ الأَيَّامِ أَنَّكَ جَالِسٌ
عَلَى الأَرْضِ فِى الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَسِيرُ
فَسَيْرُكَ يَاهٰذَا كَسَيْرِ سَفِينَةٍ
بِقَوْمٍ جُلُوسٍ وَالْقُلُوعُ تَطِيرُ

الْقُلُوعُ: شِرَاعُ السُّفُنِ.

(فَصْلٌ) وَمِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِى أَنَّهَا تُورِثُ صَاحِبَهَا مِنَ

الذُّلّ وَالهَوَان مَا يَصِيرُ بِهِ صَاحِبُهَا مَمْقُوتًا مُهَانًا مُسْتَوحِشًا مِنَ الخَلْقِ مُسْتَوحَشًا مِنْهُ حَتَّى تُؤَثّرَ تِلْكَ المَعَاصِي فِي عَقِبِهِ مِنْ بَعْدِهِ فَيَكُونَ شُؤْمًا عَلَى مَنْ بَعْدَهُ وَكَمَا أَنَّ اللهَ يَدْفَعُ السُّوءَ بِالرَّجُلِ الصَّالِحِ عَنْهُ وَعَنْ أَرْبَعِينَ مِنْ جِيرَانِهِ كَذَلِكَ صَاحِبُ السُّوءِ وَالفَحْشَاءِ يَكُنْ شُؤْمًا عَلَيْهِ وَعَلَى ذَوِيهِ وَجِيرَانِهِ وَأَيْضًا فَالمَعَاصِي وَالإِعْرَاضُ عَنِ اللهِ وَالانْهِمَاكُ فِي الدُّنْيَا مِمَّا يُوجِبُ حُلُولَ النِّقَمِ إِذَا أُلْهِيَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَأَغْفَلَ القَلْبَ عَنِ الذِّكْرِ وَالفِكْرِ وَفِي الحَدِيثِ إِذَا أَبْغَضَ المُسْلِمُونَ عُلَمَاءَهُمْ وَأَظْهَرُوا عِمَارَةَ أَسْوَاقِهِمْ وَتَوَاثَبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ رَمَاهُمُ اللهُ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ القَحْطُ مِنَ الزَّمَانِ وَالجَوْرُ مِنَ السُّلْطَانِ وَالخِيَانَةُ مِنْ وُلَاةِ الحُكَّامِ وَالجَهْدُ مِنَ العَدُوّ . وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ البَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ دِينَكُمْ ضَرَبَكُمُ اللهُ بِذُلٍّ لَا يُفَارِقُ رِقَابَكُمْ أَوْ قُلُوبَكُمْ) خَرَّجَهُ

ابن حجر . وقال صلى الله عليه وسلم (إن للمنافقين علامات يعرفون بها تحيتهم لعنة وطعامهم نهبة غنيتهم غلول ولا يقربون المساجد إلا هجرا ولا يأتون الصلاة إلا دبارا متكبرين خشب بالليل صحب بالنهار) فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

(فصل) فيما روى عن على رضى الله عنه من النهى عن الأخذ بآراء الرجال والاستنان بهم قال رضى الله عنه إياكم والاستنان بالرجال فان كنتم لابد فاعليه فعليكم بالأموات لا بالأحياء فان الحى لا تؤمن عليه الفتن وعنه أيضا أنه قال يوشك ألا يبقى من الاسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه مساجدهم يومئذ عامرة وهى خراب من الهدى علماؤهم شر من تحت أديم السماء من عندهم تخرج الفتنة وفيهم تعود وقد روى أن قائلا قال : يا رسول الله من شر الناس فقال اللهم غفرا شر الناس العلماء إذا فسدوا وعن

عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِى كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ) وَعَنْ أَبِى عُثْمَانَ النَّهْدِىّ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِى خُطْبَتِهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (احْذَرُوا كُلَّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ) وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ وَهُوَ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ أَصَابِعِى هٰذِهِ وَهُوَ يَقُولُ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى هٰذِهِ الْأُمَّةِ الْمُنَافِقُ الْعَلِيمُ قِيلَ وَكَيْفَ يَكُونُ الْمُنَافِقُ عَلِيمًا قَالَ عَالِمُ اللِّسَانِ جَاهِلُ الْقَلْبِ وَالْعَمَلِ وَعَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ قَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ فَاحْتَبَسَنِى حَوْلًا فَقَالَ: يَا أَحْنَفُ إِنِّى قَدْ بَلَوْتُكَ وَاخْتَبَرْتُكَ فَرَأَيْتُ عَلَانِيَتَكَ حَسَنَةً وَأَنَا أَرْجُو أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُكَ عَلَى مِثْلِ عَلَانِيَتِكَ وَإِنَّا كُنَّا نَتَحَدَّثُ إِنَّمَا يُهْلِكُ هٰذِهِ الْأُمَّةَ كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمٍ وَقَالَ عُمَرُ أَيْضًا رَضِىَ اللهُ عَنْهُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَحَدَ

رَجُلَيْنِ مُؤْمِنٌ قَدْ تَبَيَّنَ إِيمَانُهُ وَرَجُلٌ كَافِرٌ قَدْ تَبَيَّنَ كُفْرُهُ وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مُنَافِقًا تَعَوَّذَ بِالإِيمَانِ وَيَعْمَلُ بِغَيْرِهِ وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ ثَلَاثَةٌ مُنَافِقٌ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لَا يَخْطَأُ عَلَيْهِ وَاوًا وَلَا أَلِفًا يُجَادِلُ النَّاسَ أَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْهُمْ يُضِلُّهُمْ عَنِ الْهُدَى وَزَلَّةُ عَالِمٍ وَأَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ. وَقَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِنَّ مِنْ أَقْرَإِ النَّاسِ الْمُنَافِقُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ وَاوًا وَلَا أَلِفًا يَلْفِتُهُ كَمَا تَلْفِتُ الْبَقَرَةُ الْخَلَا بِلِسَانِهَا.

(فَصْلٌ) فِي فَضْلِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَتَأَكُّدِهِ فِي حَقِّ الْعَالِمِ وَالْمُنْتَسِبِ لِلْعِلْمِ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الإِمَامِ أَحْمَدَ حَدَّثَنِي أَبِي وَسَاقَهُ بِسَنَدِهِ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ الْفَقِيهُ الْمُجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا الْمُقِيمُ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَا يَكُونُ الْعَالِمُ عَالِمًا حَتَّى تَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يَحْقِرُ مَنْ دُونَهُ فِي الْعِلْمِ

وَلَا يَحْسُدُ مَنْ فَوْقَهُ وَلَا يَأْخُذُ عَلَى عِلْمِهِ دُنْيَا وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِنَّكَ لَا تَفَقَّهُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى تَرَى لِلْقُرْآنِ وُجُوهًا وَقَالَ بَعْضُهُمْ حَتَّى يَعْرِفَ النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ وَالْحَقِيقَةَ وَالْمَجَازَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْخَاصَّ وَالْعَامَّ وَالْمُطْلَقَ وَالْمُقَيَّدَ وَمِنَ السُّنَّةِ كَذَٰلِكَ

وَقَالَ ابْنُ أَبِي أَوْسٍ عَنْ أَخِيهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَدْرَكْتُ الْفُقَهَاءَ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُونَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْصِبَ نَفْسَهُ لِلْفَتْوَى وَلَا أَنْ يَسْتَفْتِيَ إِلَّا مَوْثُوقٌ بِهِ فِي عَفَافِهِ وَعَقْلِهِ وَصَلَاحِهِ وَدِينِهِ وَوَرَعِهِ وَفِقْهِهِ وَحِلْمِهِ وَرِفْقِهِ وَعِلْمِهِ بِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ وَوُجُوهِهِ إِلَىٰ أَنْ قَالَ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ وَالصَّلَاحِ بِهَٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ إِلَّا أَنَّ طُعْمَتَهُ مِنَ النَّاسِ وَحَاجَتَهُ مُنْزَلَةٌ بِهِمْ وَهُوَ كَلٌّ عَلَيْهِمْ فَلَيْسَ بِمَوْضِعٍ لِلْفَتْوَى وَلَا مَوْثُوقٌ بِهِ فِي فَتْوَاهُ وَلَا مَأْمُونٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ إِذَا كُنْتَ فِي زَمَانٍ يُرْضَىٰ فِيهِ بِالْقَوْلِ دُونَ الْفِعْلِ

وَالْعِلْمِ دُونَ الْعَمَلِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ فِى شَرِّ زَمَانٍ وَلَقَدْ رُوِىَ عَنْ حَبْرٍ مِنْ أَحْبَارِ هٰذِهِ الْأُمَّةِ وَسَيِّدٍ مِنْ سَادَاتِ عُلَمَاءِهَا أَنَّهُ قَالَ: مَا أَرَى أَنْ يُعَذِّبَ اللهُ هٰذَا الْخَلْقَ إِلَّا بِذُنُوبِ الْعُلَمَاءِ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ مَعْنَى ذٰلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْعَالِمَ إِذَا زَلَّ عَنِ الْحُجَّةِ وَعَدَلَ عَنِ الْوَاضِحَةِ وَآثَرَ مَا يَهْوَاهُ عَلَى مَا يَعْلَمُهُ وَسَامَحَ نَفْسَهُ فِيمَا تَدْعُوهُ إِلَيْهِ زَلَّ وَزَلَّ النَّاسُ بِزَلَلِهِ وَانْهَمَكُوا مُسْرِعِينَ فِى إِثْرِهِ يَقْفُونَ مَسْلَكَهُ وَيَتَّبِعُونَ بِحُجَّتِهِ وَكَانَ مَا يَأْتُونَهُ وَيَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الذُّنُوبِ وَحُوبَاتِ الْمَآثِمِ بِحُجَّةٍ وَعَلَى اتِّبَاعِ قُدْوَةٍ فَلَا تَجْرِى مَجْرَى الذُّنُوبِ الَّتِى تُمْحَى بِالْاسْتِغْفَارِ وَمُرْتَكِبُهَا بَيْنَ الْوَجَلِ وَالْانْكِسَارِ فَالْمُقْتَدُونَ بِهِ فِيهَا كَالسَّفِينَةِ إِذَا غَرِقَتْ غَرِقَ بِغَرَقِهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ وَجَوْهَرٌ خَطِيرٌ أَضْعَافَ ثَمَنِهَا وَقِيمَتِهَا بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ وَقَدْ رُوِىَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (لَا يَزَالُ الرَّجُلُ عَالِمًا

مَا طَلَبَ الْعِلْمَ فَإذَا ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ فَقَدْ جَهِلَ وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ لِمَا لَمْ يَجْتَمِعِ الْعِلْمُ وَالْمَالُ قَالَ لِعِزِّ الْكَمَالِ يَعْنِي لِقِلَّتِهِ وَإِنَّهُ عَزِيزٌ فِي الْخَلْقِ

(فَصْلٌ) قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ رَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ سَأَلَ عَنِّي أَوْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَشْعَثَ شَاحِبِ اللَّوْنِ مُشَمِّرٍ لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ وَلَا قَصَبَةً عَلَى قَصَبَةٍ رُفِعَ لَهُ عَلَمٌ فَشَمَّرَ إِلَيْهِ. الْيَوْمَ مِضْمَارٌ وَغَدًا السِّبَاقُ وَالْغَايَةُ الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ) وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ فَاسْتَقْبَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ بِمَ بُعِثْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ بِالْعَقْلِ قَالَ فَكَيْفَ لَنَا بِالْعَقْلِ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْعَقْلَ لَا غَايَةَ لَهُ وَلٰكِنْ مَنْ أَحَلَّ حَلَالَ اللهِ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ سُمِّيَ عَاقِلًا فَإِنِ اجْتَهَدَ بَعْدَ

ذَلِكَ سُمِّىَ عَابِدًا فَإِنِ اجْتَهَدَ بَعْدَ ذَلِكَ سُمِّىَ جَوَادًا وَقَالَ أَيْضًا حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ أَنَّ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ وَاللهِ إِنِّى لَوْ شِئْتُ لَكُنْتُ مِنْ أَلْيَنِكُمْ لِبَاسًا وَأَطْيَبِكُمْ طَعَامًا وَأَرَقِّكُمْ عَيْشًا إِنِّى وَاللهِ مَا أَجْهَلُ عَنْ كَرَاكِرَ وَأَسْنِمَةٍ وَعَنْ صِلَاءٍ وَصَلَائِقَ وَلَكِنْ سَمِعْتُ اللهَ عَيَّرَ قَوْمًا بِأَمْرٍ فَعَلُوهُ فَقَالَ (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا) حَدَّثَنَا أَبِى حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَسَاقَهُ بِسَنَدِهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَقُولُ وَاللهِ مَا نَعْبَأُ بِلَذَّاتِ الْعَيْشِ أَنْ نَأْمُرَ بِصِغَارِ الْغَنَمِ أَوِ الْمَعْزِ فَتُسْمَطَ لَنَا وَنَأْمُرَ بِلُبَابِ الْحِنْطَةِ فَيُخْبَزَ لَنَا وَنَأْمُرَ بِالزَّبِيبِ فَيُنْتَبَذَ لَنَا فِى الْأَسْعَانِ حَتَّى إِذَا صَارَ مِثْلَ عَيْنِ الْيَعْقُوبِ أَكَلْنَا هَذَا وَشَرِبْنَا هَذَا وَلَكِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَسْتَبْقِىَ طَيِّبَاتِنَا لِأَنَّا سَمِعْنَا اللهَ تَعَالَى يَقُولُ (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) وَقَدِمَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَرَأَى كَأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ تَعْزِيزًا يَعْنِى احْتِشَامًا . فَقَالَ

مَا هَذَا يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ لَوْ شِئْتُ أَنْ يُدَهْمَقَ لِي كَمَا يُدَهْمَقُ لَكُمْ وَلَكِنَّا نَسْتَبْقِي مِنَّا دُنْيَانَا نَجِدُهُ فِي آخِرَتِنَا انتهى فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللهِ بِالتَّوْبَةِ مَا دَامَ بَابُهَا مَفْتُوحًا وَالْعُذْرُ مَقْبُولًا وَقَبُولُ الْعَمَلِ مَأْمُولًا فَعَامِلُوهُ بِحُسْنِ الْخِتَامِ فَإِنَّ سُوءَ الْخَاتِمَةِ مَحْذُورٌ وَلَهَا تَفَتَّتُ أَكْبَادُ الصِّدِّيقِينَ فَإِنَّ الْمَوْتَ أَمْرٌ عَظِيمٌ وَوَدَاعُ الدُّنْيَا عِنْدَ فِرَاقِهَا مُوجِعٌ أَلِيمٌ وَالْفِطَامُ عَنْ هَذِهِ الْمَأْلُوفَاتِ شَدِيدٌ وَبَيْنَ يَدَيْ كُلِّ بَارٍّ وَفَاجِرٍ عَقَبَاتٌ صِعَابٌ فَعِنْدَهَا يُخْشَى نَزْعُ الْإِيمَانِ وَلَهَا أَسْبَابٌ كَثِيرَةٌ وَلَكِنْ أَخْوَفُهَا وَأَصْعَبُهَا شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا بِدْعَةٌ مُتَرَسِّخَةٌ فِي الْقَلْبِ مُتَثَبِّتَةٌ فِي جَوَانِبِ الْقَلْبِ أَوِ الصَّدْرِ يَنْقَضِي عَلَيْهَا طُولُ الدَّهْرِ وَمُدَّةُ الْعُمُرِ وَيَعْتَقِدُ أَنَّهَا حَقٌّ فَإِذَا هِيَ بَاطِلَةٌ فَإِذَا كُشِفَ الْغِطَاءُ لِصَاحِبِهَا عِنْدَ الْمَوْتِ كُشِفَ لَهُ الْقِنَاعُ وَتَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى وَيَظْهَرُ لَهُ أَنَّ مَا اعْتَقَدَهُ كَانَ بَاطِلًا وَأَنَّ مَا تَرَكَهُ وَهَجَرَهُ كَانَ حَقًّا

فيخشى عليه زوال الايمان والثانى أن يكون إيمانه ضعيفا ومحبة الدنيا غالبة على قلبه ومحبة الله ورسوله ضعيفة فى قلبه فاذا رأى أنه مملوء من جميع الشهوات ممنوع من سائر اللذات قهرا ويحمل إلى دار الهوان والبوار قسرا تقطعت نفسه حسرات ألما على ما فرط من عمره وفات واعلم أن حب الدنيا ينبعث من طول الأمل فان الانسان يقول الأيام بين يدى وأفعل غدا وسأفعل بعد غد وأتمتع بالدنيا ثم أتوب وأبنى هذا القصر وأجمع الأموال وأجازى فلانا وأتولى أمرا ورياسة وأستنفد فيه عنفوان شبابى ثم إذا جاء الهرم أتوب وأرجع إلى الله وأكون جامعا بين الدنيا والآخرة وهو كل يوم يتمنى هذا والأجل يضحك على الأمل والتقدير على التدبير والمنى رأس أموال المفاليس يؤمل أن يعمر عمر نوح وأمر الله يحدث كل ليلة ولم يعلم المسكين أن دون طلبانه القتاد والخرط وكم

مِنْ مُؤَمِّلٍ يَوْمًا لَا يَسْتَكْمِلُهُ وَكَمْ مِنْ مُخْتَرَمٍ فِى عُنْفُوَانِ الشَّبَابِ وَكَمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَحْتَ التُّرَابِ علاج ذٰلِكَ أَنْ يَقُولَ الْمَوْتُ بَيْنَ يَدَىَّ فَكَيْفَ أَعْتَمِدُ عَلَى الْحَيَاةِ فَرُبَّمَا قُطِعَ الْأَجَلُ دُونَ الْأَمَلِ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا يَتَأَخَّرُ لِكَرَاهَتِى وَلَا يَقِفُ بِإِرَادَتِى كَيْفَ أُسَوِّفُ نَفْسِى بِالتَّوْبَةِ وَأُعَجِّلُ الذَّنْبَ فَالْمَوْتُ يَقِينٌ وَالْحَيَاةُ الْتِمَاسٌ. عِلَاجٌ آخَرُ هَبْ أَنِّى جَمَعْتُ الدُّنْيَا مِنْ كَيْتَ وَكَيْتَ أَلَيْسَ عِنْدَ الْمَوْتِ يُؤْخَذُ الْكُلُّ مِنِّى وَأُسْأَلُ عَنِ الْكُلِّ مَعَ أَنِّى مِسْكِينٌ أَحْوَجُ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الدُّنْيَا لِلْأَوْلَادِ وَأَبُوءُ بِحِسَابِهَا وَبِسَخَطِ رَبِّى هٰذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ. عِلَاجٌ آخَرُ كُلُّ مَنْ كَانَ فِى الدُّنْيَا أَكْثَرَ فَنَزْعُهُ وَحَسْرَتُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ أَشَدُّ وَمَنْ كَانَ دُنْيَاهُ أَخَفَّ فَأَمْرُهُ أَسْهَلُ وَصَاحِبُ الدِّرْهَمَيْنِ أَشَدُّ حِسَابًا مِنْ صَاحِبِ الدِّرْهَمِ وَلِيَذْكُرْ قَوْلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ (حَلَالُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عِقَابٌ).

(فَصْلٌ) وَمِنْ عُقُوبَةِ اللّٰهِ لِلْعَبْدِ أَنْ يَغْفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ وَيَشْتَغِلُ بِفُضُولِ الْكَلَامِ فَيَكُونُ مِهْذَارًا لَا يُطِيقُ السُّكُوتَ فَيَجْلِسُ طُولَ الْيَوْمِ وَيَذْكُرُ فِيهِ صِغَرَهُ وَسَفَرَهُ وَخِدْمَتَهُ وَشَبَابَهُ وَمَطْبَخَهُ وَزَوْجَتَهُ وَصِفَةَ بَلَدِهِ وَنُقُوشَ حِيطَانِهِ وَمَزَارِعَهُ حَتَّى يَذْكُرَ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِهِ مَا يَسْتَقْبِحُهُ بَعْضُ جُلَسَائِهِ وَكُلُّ هٰذَا مِمَّا لَا يَعْنِيهِ فَيَتَضَرَّرُ بِهِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَمِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيهِ دَلِيلُ ذٰلِكَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْمَوْتَ قَرِيبٌ مِنْهُ وَفِي كُلِّ تَسْبِيحَةٍ وَتَهْلِيلَةٍ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ فَأَيُّ عَاقِلٍ يُضَيِّعُ هٰذِهِ الْكُنُوزَ وَيَشْتَغِلُ بِالتُّرَّهَاتِ وَعِلَاجُ الْعَمَلِ أَنْ يَعْتَزِلَ عَنِ النَّاسِ فَانَّ السَّلَامَةَ فِي الْعُزْلَةِ وَيُمْسِكُ حَجَرًا تَحْتَ لِسَانِهِ وَاسْتُشْهِدَ شَابٌّ مِنَ الصَّحَابَةِ فَنَظَرُوا فَاذَا حَجَرٌ مَرْبُوطٌ فِي وَسَطِهِ مِنَ الْجُوعِ فَجَاءَتْ وَالِدَتُهُ تَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ وَتَقُولُ هَنِيئًا لَكَ الْجَنَّةُ فَقَالَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَا يُدْرِيكِ

لَعَلَّه بخل بما لا حاجة له إليه أو تكلم بما لا يعنيه) ومعنى الحديث أنه يطلب منه حساب ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم (كفارة كل لجاجة مع أحد أن يصلى ركعتين) وكل من كان عادته الفحش فى الكلام فانه يحشر يوم القيامة فى صورة كلب ومن كان قد تعود الكذب وصار خلقا له فانه لا يتحول عنه إلا بعلاج وذلك أن يشترط على نفسه أن يصوم لكل كذبة يوما فان صبرت النفس على ذلك فيشترط أن يتصدق عن كل كذبة ربع دانق فانه يشق ذلك عليه ولا يكذب أبدا إذا علم هذا فليعلم العبد أنه مجبول على ما اعتاده فاوله شهوة وآخره استعباد فانه يستعبده فعله الذى يرتكبه إن كان غيبة فهى غيبة أو كذبا فكذب أو لغوا كلاما فكذلك أو شتما أو غيره فجميع أقوال العبد وأفعاله على هذا المنوال وفيها ما هو كبيرة وما هو دون ذلك ومع الادمان تلتحق

بهَا وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

(فَصْلٌ) الْمَرْءُ مُحْتَاجٌ إِلَى مَا يُوقِظُهُ مِنْ غَفْلَتِهِ وَسِنَتِهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَلَا غِنَى لَهُ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ أَعْنِي مَا يُصْلِحُ دِينَهُ مِنَ الْعِلْمِ تَارَةً بِالتَّرْغِيبِ فِيمَا عِنْدَ اللهِ وَتَارَةً بِالتَّخْوِيفِ فِيمَا عِنْدَهُ مِنَ الْعَذَابِ وَتَارَةً يَحْتَاجُ إِلَى عِلْمِ الْأَحْكَامِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ الَّتِي يَتَعَاطَاهَا إِمَّا مِنَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَعُقُودِ الْمُعَاوَضَاتِ وَإِمَّا مِنَ الْعِبَادَاتِ كَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ وَكَذَا سَائِرَ الْحِرَفِ وَتَارَةً بِالْمَوَاعِظِ الَّتِي تُرَقِّقُ الْقَلْبَ وَتَجْذِبُهُ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ وَتَصْرِفُهُ عَنْ مَسَاخِطِهِ وَأَيْضًا يَتَوَرَّعُ عَنْ بَعْضِ الْمَنْهِيَّاتِ سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَا أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْوِلَايَاتِ أَوِ الْوِزَارَاتِ أَوْ غَيْرِهَا فَقَدْ كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَغَيْرُهُ مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ يَتَّخِذُونَ مَنْ يُذَكِّرُهُمْ أَيَّامَ اللهِ وَنِقْمَتَهُ خَشْيَةَ أَنْ يَغْفُلُوا فَإِنَّ ذِكْرَ اللهِ

وَمَا يَتَنَبَّهُ مِنَ الْمَوَاعِظِ يُحْيِى الْقُلُوبَ الَّتِى فِيهَا إِيمَانٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الذِّكْرَى لِأَهْلِ الْإِيمَانِ لَا لِأَهْلِ الْفُجُورِ وَالطُّغْيَانِ وَإِنْ دَخَلُوا فِى مُسَمَّى الْإِسْلَامِ. قَالَ تَعَالَى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) وَكَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ يَقُولُ لِابْنَىْ عَمٍّ لَهُ فَوِّضَا أَمْرَكُمَا إِلَى اللهِ تَسْتَرِيحَا. وَقَالَ سُفْيَانُ أَصَابَ الرَّبِيعَ بْنَ خُثَيْمٍ فَالِجٌ فَقِيلَ لَهُ لَوْ تَدَاوَيْتَ فَقَالَ قَدْ أَرَدْتُ ثُمَّ ذَكَرْتُ عَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا لَقَدْ كَانَ لَهُمْ أَطِبَّاءُ وَمُدَاوُونَ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ مَثَّلْتُ نَفْسِى فِى النَّارِ أُعَالِجُ أَغْلَالَهَا وَسَعِيرَهَا وَآكُلُ مِنْ زَقُّومِهَا وَأَشْرَبُ مِنْ زَمْهَرِيرِهَا فَقُلْتُ يَا نَفْسِى أَىَّ شَىْءٍ تَشْتَهِينَ قَالَتْ أَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا فَأَعْمَلُ عَمَلًا أَنْجُو بِهِ مِنْ هٰذَا الْعِقَابِ وَمَثَّلْتُ نَفْسِى فِى الْجَنَّةِ مَعَ حُورِهَا وَأَلْبَسُ مِنْ

سُنْدُسِهَا وَإِسْتَبْرَقِهَا وَحَرِيرِهَا فَقُلْتُ يَا نَفْسِى أَىَّ شَىْءٍ تَشْتَهِينَ فَقَالَتْ أَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا فَأَعْمَلُ عَمَلاً أَزْدَادُ فِيهِ مِنْ هٰذَا الثَّوَابِ قُلْتُ فَأَنْتِ فِى الدُّنْيَا وَفِى الْأُمْنِيَةِ . وَقَالَ الْفُضَيْلُ الِاسْتِغْفَارُ بِلَا إِقْلَاعٍ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ . وَقَالَ زُبَيْدُ الْيَامِىُّ إِنَّ أَجْوَدَ النَّاسِ مَنْ أَعْطَى مَالَا يُرِيدُ جَزَاءَهُ وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ عَفْوًا مَنْ عَفَا بَعْدَ قُدْرَتِهِ وَإِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ مَنْ وَصَلَ مَنْ قَطَعَهُ وَإِنَّ أَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ وَيُرْوَى أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ لَمْ تَفُتْهُ صَلَاةٌ فِى جَمَاعَةٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً . وَقَالَ مَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً إِلَّا وَأَنَا فِى الْمَسْجِدِ وَيُرْوَى عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِىِّ أَنَّهُ كَانَ يُحْيِى اللَّيْلَ صَلَاةً فَإِذَا ذَهَبَ ثُلُثُهُ أَوْ نِصْفُهُ وَكَانُوا فِى غُزَاةٍ نَادَى وَهُوَ فِى فُسْطَاطِهِ نِدَاءً يُسْمِعُنَا يَا عَبْدَ الرَّحْمٰنِ ابْنَ يَزِيدَ وَيَا يَزِيدَ بْنَ يَزِيدَ وَيَا فُلَانُ وَفُلَانُ قُومُوا فَتَوَضَّئُوا وَصَلُّوا قِيَامُ هٰذَا اللَّيْلِ وَصِيَامُ النَّهَارِ أَيْسَرُ مِنْ شَرَابِ الصَّدِيدِ وَمُقَطَّعَاتِ

الحَدِيدِ الْوَحَا الْوَحَا ثُمَّ يُقْبِلُ عَلَى صَلَاتِهِ . وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ مَرْثَدٍ لِعَطَاءٍ مَالِي أَرَى عَيْنَيْكَ لَا تَجِفُّ قَالَ وَمَا مَسْأَلَتُكَ قَالَ عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهَا قَالَ يَا أَخِي إِنَّ اللهَ تَوَعَّدَنِي إِنْ أَنَا عَصَيْتُهُ أَنْ يَسْجُنَنِي فِي النَّارِ وَاللهِ لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدْنِي أَنْ يَسْجُنَنِي إِلَّا فِي الْحَمَّامِ لَكُنْتُ حَرِيًّا أَنْ لَا تَجِفَّ لِي عَيْنٌ . وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ قَالَ : مَنْ لَمْ يَأْنَسْ بِحَدِيثِ اللهِ عَنْ حَدِيثِ الْمَخْلُوقِينَ فَقَدْ قَلَّ عَمَلُهُ وَعَمِيَ قَلْبُهُ وَضَيَّعَ عُمُرَهُ وَدَخَلَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَجِيرُ فَقَالُوا قُلْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ دَعُوا أَبَا مُسْلِمٍ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ فَقَالَ إِنَّمَا أَنْتَ أَجِيرٌ اسْتَأْجَرَكَ رَبُّ هَذِهِ الْغَنَمِ لِرِعَايَتِهَا فَإِنْ أَنْتَ هَنَأْتَ جَرْبَاهَا وَدَاوَيْتَ مَرْضَاهَا وَحَبَسْتَ أُولَاهَا عَلَى أُخْرَاهَا وَفَّاكَ سَيِّدُهَا أَجْرَكَ وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَهْنَأْ جَرْبَاهَا وَلَمْ تُدَاوِ مَرْضَاهَا وَلَمْ تَحْبِسْ أُولَاهَا عَلَى أُخْرَاهَا عَاقَبَكَ سَيِّدُهَا .

وَذَكَرَ الْامَامُ أَحْمدُ فى الزُّهْد عَنْ مَالك بن دينار قَالَ قُلْتُ لَهُ مَاعقوبَةُ الْعَالمِ قَالَ موْتُ الْقَلْب قُلْتُ وَمَا موْتُ الْقَلْب قَالَ طَلَبُ الدُّنْيَا بعمل الآخرَة وَقَالَ أَيضا : لَقَدْ رَأَيْت أُنَاسًا تُعْرَضُ لأَحَدهمُ الدُّنْيَا حَلاَلاً فَلاَ يَتَّبعونهَا يَقُولُونَ مَانَدْرى حَالَنَا فيهَا وَفى الْحَديث لكُلّ أُمَّة عجْلٌ يَعْبدُونه وَأَعْجَالُ هذه الأُمَّة الدّرْهَمُ وَالدُّنْيَا يَعْبدُونَهمَا . وَفى الْحَديث (الْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الله فى أَرْضه مَا لَمْ يَدْخلُوا عَلَى السُّلْطَان فَاذَا دَخَلُوا عَلَيْهمْ فَلاَ تَأْتَمنُوهُمْ) وَقَالَ نُورُ بن يزيد قَرَأْتُ فى التَّوْرَاة أَنَّ عيسى عَلَيْه السَّلاَمُ قَالَ : يَامَعْشَرَ الْحَوَاريّينَ كَلّمُوا الله كَثيرًا وَكَلّمُوا النَّاسَ قَليلًا قَالُوا كَيْفَ نُكَلّمُ الله كَثيرًا قَالَ اخلُوا بدُعَائه اخلُوا بمُنَاجَاته خَرَّجَهُ أَبُو النَّعيم وَفى الْحَديث لاَ تُكْثر الْكَلاَم بغَيْر ذكْر الله فَاَنَّ كَثْرَةَ الْكَلاَم بغَيْر ذكْر الله يُقَسّى الْقَلْبَ وَإنَّ أَبْعَدَ الْقُلُوب منَ الله الْقَلْبُ الْقَاسى

(فَصْلٌ) قَالَ ابْنُ مسعود رضى الله عنه قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ثَلَاثٌ لَيْسَ عَلَى ابْنِ آدَمَ فِيهَا حساب ثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَه وَطَعَامٌ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَبَيْتٌ يَسْكُنُهُ) وَرُوِىَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ مَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْقَبْرِ وَجَدَهُ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَمَنْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ وَجَدَهُ حُفْرَةً مِنْ حُفَرِ النَّارِ وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَرْبٍ يَقُولُ إِنَّ الْأَرْضَ لَتَعْجَبُ مِمَّنْ يُمَهِّدُ مَضْجَعَهُ لِلنَّوْمِ وَتَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ أَلَا تَتَفَكَّرُ فِى طُولِ رُقَادِكَ فِى جَوْفِى وَمَا بَيْنِى وَبَيْنَكَ فِرَاشٌ وَقَدْ رُوِىَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ بَزَقَ يَوْمًا فِى كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ ثُمَّ قَالَ (يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِى وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هٰذِهِ حَتَّى سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِىَ قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ) وَقَالَتْ عَائِشَةُ لَبِسْتُ مَرَّةً دِرْعًا جَدِيدًا

فجعلت أنظر إليه وأعجب به فقال أبو بكر رضى الله عنه أما علمتِ أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه حتى يفارق تلك الزينة قالت فنزعته فتصدقت به فقال أبو بكر عسى ذاك يكفر عنك ومن الآفات الكبر وهو محبط للعمل ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه ذرة من كبر ومن أهون خصاله التى لا يرفع أهلها بها رأسا وهى العظمى وهى الفاشية فى الناس ولا يبالى فاعلها بل يظن أكثرهم أنه جائز وأنه مستحق للاحتشام وأن هذا لا يدخل فى الكبر وهو نوع منه وقد قال ابن الجوزى رحمه الله من خصال الكبر أن لا يزور أحدا وأن يأنف من جلوس فقير أو رث هيئة إلى جانبه ولا يتعاطى شغلا فى بيته ولا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته ودواء الكبر أن يعرف نفسه ويعرف ربه فحينئذ يعرف ذل نفسه وعظمة خالقه فإنه مخلوق من علقة معرض نفسه للجزاء

بأعماله ولا يصلح التعظيم إلا للخالق فاذا عرف ذلك فليتواضع فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل على الأرض ويجيب دعوة المملوك ويرقع ثوبه ويخصف نعله.

(فصل) في الحث على صلاة الجماعة روى نافع عن ابن عمر أن عمر رضي الله عنه خرج إلى حائط له فرجع وقد صلى الناس العصر فقال حائطي صدقة على المساكين وشغله أمر عن صلاة المغرب حتى طلع نجمان فأعتق رقبتين ونام تميم الداري ليلة لم يقم فيها فقام سنة لم ينم فيها عقوبة لما ضيع وكان عامر بن قيس يصلي كل يوم ألف ركعة وقال له رجل قف أكلمك قال أمسك الشمس حتى أكلمك فانصرف. وقال الحسن: مازالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرا من الحلال مخافة الحرام وقال ابن المبارك: لو أن رجلا اتقى مائة شيء ولم يتق شيئا واحدا لم يكن من المتقين.

وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ فِى بَعْضِ مَوَاعِظِهِ : عِبَادَ اللهِ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ فِى أَيَّامٍ قِصَارٍ لِأَيَّامٍ طُوَالٍ وَفِى دَارِ زَوَالٍ لِدَارِ مُقَامٍ وَفِى دَارِ نَصَبٍ وَحُزْنٍ لِدَارِ نَعِيمٍ وَخُلْدٍ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُطِيلُ الصَّمْتَ وَيَهْرَبُ مِنَ النَّاسِ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّى الْحِكْمَةَ . وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ : كَانَ قُوتِى عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ فَلَسْتُ أَزِيدُ عَلَيْهِ حَتَّى أَلْقَى اللهَ . وَسَأَلَهُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا تَقُولُ فِى هٰذَا الْعَطَاءِ قَالَ لَهُ خُذْهُ فَإِنَّ فِيهِ الْيَوْمَ مَعُونَةً فَإِذَا كَانَ ثَمَنًا لِدِينِكَ فَدَعْهُ . وَقَالَ الْحُسَيْنُ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الْمَالِ وَالدِّينُ لَغْوٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَائِشُهُمْ فَإِذَا امْتُحِنُوا لِلْبَلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُونَ . وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ فَاسْتَأْذَنَ أَنْ يُقَبِّلَ يَدَهُ فَقَالَ تَقْبِيلُ الْيَدِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ذِلَّةٌ وَمِنَ الذِّمِّىِّ خَدِيعَةٌ وَلَا خَيْرَ لَكَ أَنْ تَنْزِلَ بَيْنَ هَاتَيْنِ وَكَانَ رَحِمَهُ

اللهُ مِنْ أَحْسَنِ بَنِي أُمَيَّةَ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ يَبْذُلُ عِرْضَهُ وَدِينَهُ وَأَمَانَتَهُ لِعَرَضٍ يَنَالُهُ مِنَ الدُّنْيَا وَيَنْسَى مَصِيرَهُ وَمَآبَهُ :

وَعَظَ الزَّمَانُ فَمَا فَهِمْتُ عِظَاتِهِ ... فَكَأَنَّهُ فِي صَمْتِهِ يَتَكَلَّمُ

كُلٌّ تَسِيرُ بِهِ الْحَيَاةُ وَمَا لَهُ ... عِلْمٌ عَلَى أَيِّ الْمَنَازِلِ يَقْدُمُ

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّنَا بِجَهَالَةٍ ... نَبْنِي وَكُلُّ بِنَاءِ قَوْمٍ يُهْدَمُ

وَأُضَيِّعُ أَوْقَاتِي بِغَيْرِ نَدَامَةٍ ... وَيَفُوتُنِي الشَّيْءُ الْيَسِيرُ فَأَنْدَمُ

(فَصْلٌ) فِي ذَمِّ الدُّنْيَا وَذَمِّ الرُّكُونِ إِلَيْهَا ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَاللهُ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ) وَاسْتِخْلَافُهُمْ فِيهَا هُوَ مَا أَوْرَثَهُمْ مِنْهَا مَا كَانَ فِي أَيْدِي الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَارِسَ وَالرُّومِ وَحَذَّرَهُمْ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَفِتْنَةِ النِّسَاءِ خُصُوصًا فَإِنَّ النِّسَاءَ أَوَّلُ مَا ذَكَرَهُ اللهُ مِنْ

شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا فِى قَوْلِهِ تَعَالَى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ الآيَةَ) وَفِى الْمُسْنَدِ وَالتِّرْمِذِىِّ عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ قَالَ (إِنَّ هٰذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَصَابَهُ بِحَقِّهِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِيمَا شَاءَتْ نَفْسُهُ مِنْ مَالِ اللهِ وَرَسُولِهِ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا النَّارُ) وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَإِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِى مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ لَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِىِّ قَالَ إِنَّ هٰذِهِ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ آتَيْنَاهُ مِنْهَا شَيْئًا بِطِيبِ نَفْسٍ أَوْ طِيبِ طُعْمَةٍ وَمِنْ غَيْرِ إِسْرَافِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ آتَيْنَاهُ مِنْهَا شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنَّا وَغَيْرِ طِيبِ طُعْمَةٍ وَإِسْرَافٍ مِنْهُ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ) وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا

أو يلم إلا آكلة الخضر) مثل آخر ضرب به لزهرة الدنيا وبهجة نضرتها وطيب نعيمها وحلاوتها فى النفوس فمثلها كمثل نبات الربيع وهو المرعى الخضر الذى ينبت فى زمن الربيع فانه يعجب الدواب التى ترعى فيه وتستطيبه وتكثر من الأكل منه أكثر من قدر حاجتها لاستحلائها له فاما أن يقتلها فتهلك وتموت حبطا والحبط انتفاخ البطن فهذا مثل من يأخذ الدنيا بشره وجوع نفس من حيث لاحد له لا بقليل يقنع ولا بكثير يشبع ولا يحلل ولا يحرم بل الحلال عنده ماحل بيده وقدر عليه والحرام عنده مامنع منه وعجز عنه فهذا هو المتخوض فى مال الله ورسوله فيما شاءت نفسه وليس له إلا النار يوم القيامة كما فى حديث خولة المتقدم والمراد بمال الله ومال رسوله الأموال التى يجب على ولاة الأمور حفظها وصرفها فى طاعة الله ورسوله من أموال الفىء والغنائم ويتبع ذلك مال

الْخَرَاجِ وَالْجِزْيَةِ وَكَذَا أَمْوَالُ الصَّدَقَاتِ الَّتِي تُصْرَفُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ كَمَالِ الزَّكَاةِ وَالْوَقْفِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ مَنْ تَخَوَّضَ مِنَ الدُّنْيَا فِي الْأَمْوَالِ الْمُحَرَّمَةِ أَكْلُهَا كَمَالِ الرِّبَا وَمَالِ الْأَيْتَامِ الَّذِي مَنْ أَكَلَهُ أَكَلَ نَارًا كَالْمَغْصُوبِ وَالسَّرِقَةِ وَالْغِشِّ فِي الْبُيُوعِ وَالْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ وَجَحْدِ الْأَمَانَاتِ وَالدَّعَاوِي الْبَاطِلَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْحِيَلِ الْمُحَرَّمَةِ فَهِيَ أَوْلَى أَنْ يَتَخَوَّضَ صَاحِبُهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ غَدًا فَكُلُّ هَذِهِ الْأَمْوَالِ وَمَا أَشْبَهَهَا يَتَوَسَّعُ بِهَا أَهْلُهَا فِي الدُّنْيَا وَيَتَلَذَّذُونَ بِهَا وَيَتَوَصَّلُونَ بِهَا إِلَى لَذَّاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا ثُمَّ يَنْقَلِبُ ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ فَيَصِيرُ جَمْرًا مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ فِي بُطُونِهِمْ فَمَا تَفِي لَذَّاتُهَا بِتَبِعَاتِهَا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

(فَصْلٌ) رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (النَّادِمُ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ الرَّحْمَةَ وَالْمُعْجَبُ يَنْتَظِرُ

مِنَ اللهِ الْمَقْتَ وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ كُلَّ عَامِلٍ سَيَقْدَمُ عَلَى عَمَلِهِ وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَرَى حُسْنَ عَمَلِهِ وَسَيِّءَ عَمَلِهِ وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَطِيَّتَانِ فَأَحْسِنُوا السَّيْرَ عَلَيْهِمَا إِلَى الآخِرَةِ وَاحْذَرُوا التَّسْوِيفَ فَإِنَّ الْمَوْتَ يَأْتِي بَغْتَةً وَلَا يَغْتَرَّ أَحَدُكُمْ بِحِلْمِ اللهِ فَإِنَّ النَّارَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي قَالَ (اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتَى) وَرُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (لَا تُمِيتُوا قُلُوبَكُمْ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ) فَإِنَّ الْقَلْبَ كَالزَّرْعِ يَمُوتُ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ وَأَنَّهُ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ. وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَبْغَضُكُمْ إِلَى اللهِ كُلُّ نَؤُومٍ أَكُولٍ شَرُوبٍ) لِأَنَّ فِي كَثْرَةِ الْأَكْلِ فِتْنَةَ الْأَعْضَاءِ

وَانْبِعَاثُهَا إِلَى الْفُضُولِ وَالْفَسَادِ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ شَبْعَانَ بَطِرَ
وَاشْتَهَتْ عَيْنُهُ النَّظَرَ إِلَى مَا لَا يَعْنِيهِ مِنْ فُضُولٍ أَوْ مِنْ حَرَامٍ فَالْأُذُنُ
إِلَى الْاسْتِمَاعِ وَاللِّسَانُ إِلَى التَّكَلُّمِ وَالْفَرْجُ إِلَى الشَّهَوَاتِ وَالرِّجْلُ
إِلَى الْمَشْيِ يَعْنِي إِلَى الْمُحَرَّمِ وَقَالَ فِي الْإِحْيَاءِ إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ جَائِعًا
مِنْ فُضُولِ الطَّعَامِ تَكُونُ الْأَعْضَاءُ كُلُّهَا سَاكِنَةً لَا تَطْمَعُ إِلَى شَيْءٍ
مِنْهَا وَلَا تَنْبَسِطُ إِلَيْهَا إِلَى أَنْ قَالَ وَبِالْجُمْلَةِ فَأَفْعَالُ الرَّجُلِ وَأَقْوَالُهُ عَلَى
حَسَبِ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ إِنْ كَانَ الْمَأْكُلُ حَرَامًا انْبَعَثَتِ الْجَوَارِحُ
بِالْحَرَامِ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْفُضُولِ انْبَعَثَتْ بِالْفُضُولِ فَكَأَنَّ الطَّعَامَ بَذْرٌ
وَالْأَفْعَالَ نَبْتٌ يَبْدُو مِنْهُ وَيُورِثُ جُوعَ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ (إِنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ شِبَعًا فِي الدُّنْيَا)
وَالشِّبَعُ أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ وَالْجُوعُ أَصْلُ كُلِّ دَوَاءٍ فَإِنَّ الْأَمْرَاضَ سَبَبُهَا
الْعَادِي كَثْرَةُ الْأَكْلِ وَحُصُولُ فَضْلَةٍ فِي الْمَعِدَةِ وَالْعُرُوقِ ثُمَّ الْمَرَضُ

يَمْنَعُ مِنَ الْعِبَادَةِ وَيُشَوِّشُ الْقَلْبَ وَيَمْنَعُ مِنَ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ) وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ وَتَرَكْتُ لَكُمْ وَاعِظَيْنِ نَاطِقًا وَصَامِتًا فَالنَّاطِقُ الْقُرْآنُ وَالصَّامِتُ الْمَوْتُ فَإِنْ أُشْكِلَ عَلَيْكُمْ أَمْرٌ فَارْجِعُوا إِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَإِذَا قَسَتْ قُلُوبُكُمْ فَلَيِّنُوهَا بِالْاعْتِبَارِ فِي أَحْوَالِ الْأَمْوَاتِ).

لِكُلِّ أُنَاسٍ مَقْبَرٌ بِفَنَائِهِمْ فَهُمْ يَنْقُصُونَ وَالْقُبُورُ تَزِيدُ

(فَصْلٌ) وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ فَمَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ فِي طَاعَتِهِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ وَمَنْ أَرَادَ بِهِ ضِدَّ ذَلِكَ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى ذَلِكَ فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُخْلِصَ نِيَّتَهُ وَيُحْسِنَ طَوِيَّتَهُ. قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا أَجْرَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ) لِأَنَّ النِّيَّةَ تَتَأَتَّى عَلَى أَعْمَالٍ كَثِيرَةٍ لَا يَتَأَتَّى عَلَيْهَا الْعَمَلُ فِي الْجُمْلَةِ مِثَالُ ذَلِكَ إِذَا جَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ وَنِيَّتُهُ الْاعْتِكَافُ وَنِيَّتُهُ انْتِظَارُ

الصَّلَاةَ وَالْخَلْوَةُ عَنِ النَّاسِ، وَالْعُزْلَةُ عَنْ شَوَاغِلِ الْقَلْبِ وَنِيَّتُهُ زِيَارَةُ بَيْتِ اللهِ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَحِفْظُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَاللِّسَانِ عَمَّا لَا يَعْنِيهِ وَعِمَارَةُ الْمَسْجِدِ بِالذِّكْرِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ كَمَنْ جَلَسَ بِإِحْدَى هٰذِهِ النِّيَّاتِ وَقِيلَ إِنَّمَا كَانَتِ النِّيَّةُ خَيْرًا مِنَ الْعَمَلِ لِأَنَّهَا لَا تَتَقَيَّدُ بِطَاقَتِهِ وَوُسْعِهِ وَكَمَا فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ فَمَدَارُ الْأَعْمَالِ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَالنِّيَّةِ وَقَالَ الْجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللهُ يَا مَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ إِنَّكُمْ إِنَّمَا تُعْرَفُونَ بِاللهِ وَتُكْرَمُونَ لِلهِ فَانْظُرُوا كَيْفَ تَكُونُونَ مَعَ اللهِ إِذَا خَلَوْتُمْ بِهِ وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ النَّاسُ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ نِيَّاتِهِمْ وَرُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (مَنْ تَطَيَّبَ لِلهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ) وَقِيلَ كَانَ رَجُلٌ يَطُوفُ عَلَى الْعُلَمَاءِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّنِي عَلَى عَمَلٍ لَا أَزَالُ فِيهِ عَامِلًا لِلهِ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ لَا يَأْتِي

عَلَى سَاعَةٌ فِى لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا وَأَنَا فِى عَمَلٍ لله قِيلَ لَهُ وَجَدْتَ حَاجَتَكَ اعْمَلِ الْخَيْرَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِذَا فَتَرْتَ أَوْ تَرَكْتَهُ فَهُمَّ بِعَمَلِهِ فَإِنَّ الْهَامَّ بِالْعَمَلِ كَفَاعِلِهِ وَيَمْتَازُ الْعَمَلُ بِالنِّيَّةِ عَنْ فِعْلِ الْبَهَائِمِ وَالْمَجَانِينِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّنْ لَا يَعْقِلُ .

(فَصْلٌ) لَمَّا أُهْبِطَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ بَكَى عَلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ فِيمَا يُرْوَى ثَلَاثَمِائَةِ عَامٍ وَحَقَّ لَهُ ذَلِكَ كَانَ فِى دَارٍ لَا يَجُوعُ فِيهَا وَلَا يَعْرَى وَلَا يَظْمَأُ فِيهَا وَلَا يَضْحَى فَلَمَّا نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ أَصَابَهُ ذَلِكَ كُلُّهُ وَكَانَ إِذَا رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَذَكَّرُ بِرُؤْيَتِهِ تِلْكَ الْمَعَاهِدَ فَيَشْتَدُّ بُكَاؤُهُ حَتَّى يَبْكِى جِبْرِيلُ لِبُكَائِهِ وَيَقُولُ لَهُ مَا هَذَا الْبُكَاءُ يَا آدَمُ فَيَقُولُ وَكَيْفَ لَا أَبْكِى وَقَدْ أُخْرِجْتُ مِنْ دَارِ النِّعْمَةِ إِلَى دَارِ الْبُؤْسِ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ وَلَدِهِ لَقَدْ آذَيْتَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِبُكَائِكَ . فَقَالَ إِنَّمَا أَبْكِى عَلَى أَصْوَاتِ الْمَلَائِكَةِ حَوْلَ الْعَرْشِ وَفِى رِوَايَةٍ فَإِنَّمَا

أَبْكِى عَلَى جِوَارِ رَبِّى فِى دَارٍ تُرْبَتُهَا طَيِّبَةٌ أَسْمَعُ فِيهَا أَصْوَاتَ الْمَلَائِكَةِ وَفِى رِوَايَةٍ قَالَ أَبْكِى عَلَى دَارٍ لَوْ رَأَيْتَهَا لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقًا إِلَيْهَا وَرُوِىَ أَنَّهُ قَالَ لِوَلَدِهِ كُنَّا نَسْلًا مِنْ نَسْلِ السَّمَاءِ خُلِقْنَا كَخَلْقِهِمْ وَغُذِّينَا بِغِذَائِهِمْ فَسَبَانَا إِبْلِيسُ فَلَيْسَ لَنَا فَرَحٌ وَلَا رَاحَةٌ إِلَّا الْهَمَّ وَالْعَنَاءَ حَتَّى نُرَدَّ إِلَى الدَّارِ الَّتِى أُخْرِجْنَا مِنْهَا

فَحَىَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ
وَلَكِنَّنَا سَبْىُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى ... نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ

احْذَرُوا هَذَا الْعَدُوَّ الَّذِى أَخْرَجَ أَبَاكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَإِنَّهُ سَاعٍ فِى مَنْعِكُمْ مِنَ الْعَوْدِ إِلَيْهَا بِكُلِّ سَبِيلٍ وَالْعَدَاوَةُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ قَدِيمَةٌ فَإِنَّهُ مَا أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ وَطُرِدَ عَنِ الْخِدْمَةِ إِلَّا بِسَبَبِ تَكَبُّرِهِ عَلَى أَبِيكُمْ وَامْتِنَاعِهِ مِنَ السُّجُودِ لَهُ لَمَّا أُمِرَ بِهِ وَقَدْ أُبْلِسَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَيَئِسَ مِنَ الْعَوْدِ إِلَيْهَا وَتَحَقَّقَ خُلُودُهُ فِى النَّارِ فَهُوَ يَجْهَدُ عَلَى أَنْ يُخَلِّدَ مَعَهُ فِى

النَّار بَنِي آدَمَ بِتَحْسِين الشِّرْك فَإِنْ عَجَزَ قَنَعَ بِمَا دُونَهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانَ وَقَدْ حَذَّرَكُمْ مَوْلَاكُمْ مِنْهُ وَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ فَخُذُوا حِذْرَكُمْ (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) الْمُؤْمِنُونَ فِي دَارِ الدُّنْيَا فِي سَفَرِ جِهَادٍ يُجَاهِدُونَ فِيهِ النُّفُوسَ وَالْهَوَى فَإِذَا انْقَضَى سَفَرُ الْجِهَادِ عَادُوا إِلَى وَطَنِهِمُ الْأَوَّل الَّذِي كَانُوا فِيهِ فِي صُلْبِ آدَمَ وَقَدْ تَكَفَّلَ اللهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى وَطَنِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ يُغْرَسُ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ بُنِيَ لَهُ بُرْجٌ فِي الْجَنَّةِ وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ الْمَلَائِكَةُ يَعْمَلُونَ لِبَنِي آدَمَ فِي الْجِنَانِ يَغْرِسُونَ وَيَبْنُونَ

فربما أمسكوا فيقال لهم قد أمسكتم فيقولون حتى تأتينا النفقة وقال بعض السلف بلغنى أن دور الجنة تبنى بالذكر فاذا أمسك عن الذكر أمسكوا عن البناء فيقال لهم فيقولون حتى تأتينا النفقة أرض الجنة اليوم قيعان والأعمال الصالحة عمران بها تبنى القصور وتغرس أرض الجنان فاذا تكامل الغرس والبنيان انتقل السكان

(فصل) وينبغى لمن تصدى للتعليم أن يلزم خشية الله وأن يتقى فضول القول وفضول المآكل والمشرب ويتحرى مطاب المكاسب المالية من الوجوه المستحبة فلعله أن يكون أوقع للموعظة فى قلوب الخلق حتى يكون من أهل الائتمار بما أمر به كما قال بعضهم فى الحث على التزام الفعل لما يأمر به .

والعادلين عن الدنيا وزهرتها والآمرين بخير بعد ما ائتمرا

وأن يخالق الناس بخلق حسن وأن يعمل بعلمه قبل أن يدعو

إِلَيْهِ فَانَّ الْوَاعِظَ نَافِذٌ بِالْعَمَلِ سِهَامُهُ وَالْوَاعِظُ بِالْقَوْلِ فَقَطْ ضَائِعٌ كَلَامُهُ فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ فَهُوَ مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ فَهُوَ شَبِيهٌ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ حَيْثُ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِطَاعَةِ اللهِ وَبِتَقْوَاهُ وَبِالْبِرِّ وَيُخَالِفُونَ فَعَيَّرَهُمُ اللهُ بِذٰلِكَ وَكَانَ شَبِيهًا بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَبِالْمُنَافِقِينَ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَيَدَّعُونَ الْعَمَلَ بِمَا يَأْمُرُونَ بِهِ النَّاسَ فَمَنْ أَمَرَ بِخَيْرٍ فَلْيَكُنْ أَشَدَّ النَّاسِ فِيهِ مُسَارَعَةً انتهى وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَاللهِ إِنِّي لَأَتْقَاكُمْ لِلهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ) وَقَالَ تَعَالَى عَنْ شُعَيْبٍ (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) فَعَلَى الْوَاعِظِ أَنْ يَكُونَ زَاهِدًا فِي فُضُولِ الدُّنْيَا رَاغِبًا فِي الْآخِرَةِ مُسْتَعِدًّا لِرَحِيلِهِ فَانَّ الْمَوْتَ مَا ذُكِرَ عِنْدَ قَلِيلٍ إِلَّا صَارَ كَثِيرًا وَلَا عِنْدَ كَثِيرٍ إِلَّا أَصَارَهُ قَلِيلًا يَعْنِي مَا ذُكِرَ عِنْدَ قَلِيلٍ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا إِلَّا كَثَّرَهُ يَعْنِي ذِكْرُ الْمَوْتِ مَا يُتَوَقَّعُ مُفَاجَاتُهُ

وَاسْتِحْضَارُ نُزُولِهِ فِى كُلِّ وَقْتٍ وَلَا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَّا قَلَّلَهُ لِمَا أَمَامَهُ مِنَ السَّفَرِ الطَّوِيلِ الَّذِى يَحْتَاجُ إِلَىٰ زَادٍ كَثِيرٍ فَاِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ هُوَ زَادُ الآخِرَةِ وَهُوَ مُؤْمِنُ وَحْشَتِهِ فِى قَبْرِهِ وَهُوَ أُنْسُهُ فِيهِ وَفِى مَحْشَرِهِ وَمَنْشَرِهِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ فَهُوَ جَلِيسُهُ وَهُوَ وَحْشَتُهُ وَهُوَ عَذَابُهُ فَاِنَّهُ يُمَثَّلُ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ عَلَى شِدْقَيْهِ يَزُجُّ عَلَيْهِ مِنْ سُمِّهِ وَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ الَّذِى عَمِلْتَنِى فِى دَارِ الدُّنْيَا ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ يَرَى مَصِيرَهُ يَوْمَ جَمْعِ الْخَلَائِقِ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَجَعَلُوا يُثْنُونَ عَلَيْهِ وَيَذْكُرُونَ عِبَادَتَهُ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاكِتٌ فَلَمَّا سَكَتُوا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَ الْمَوْتِ قَالُوا لَا قَالَ فَهَلْ كَانَ يَدَعُ كَثِيرًا مِمَّا يَشْتَهِى قَالُوا لَا قَالَ مَا بَلَغَ صَاحِبُكُمْ كَثِيرًا مِمَّا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ رَوَاهُ الطَّبَرَانِى .

(فصل) من نظر الدنيا بعين المعرفة عرف أنها لذيذة المنظر خبيثة المطعم ومعنى ذلك أن خضرتها نابتة على مزبلة منتنة فيادنىء الهمة كيف تقنع بروضة على مزبلة والملك يدعوك إلى فردوسه الأعلى أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل أرضيتم بخرابات البلى عن الفردوس الأعلى يالها صفقة غبن أتقنع بخسائس الحشائش والرياضة معشبة أمامك أما حذرك ربك عنها بقوله (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) أما تذكر عاقبتها ومآلها وأن مصيرها إلى الزوال والغرور قال تعالى (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) قال أبو سليمان الدارانى: الدنيا حجاب عن الله لأعدائه ومطية موصلة إليه لأوليائه فسبحان من جعل شيئا واحدا سببا للاتصال به والانقطاع عنه ومن الناس من يشبه حالهم حال البهائم التى ترعى

فيما ينبت الربيع فيقتلها وهو من يأخذ المال بغير حقه فيأخذه من
الوجوه المحرمة فلا يشبع منه بقليل ولا بكثير ولا يشبع نفسه
منه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (وكان كالذى يأكل ولا يشبع)
فهذا حال من أخذ المال بغير حقه وصرفه فى غير حقه فهو
شبيه بالأنعام بل هو أضل كما قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم
يسمعون أو يعقلون إنهم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) وقد
تعوذ صلى الله عليه وسلم من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وفى
حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم
أنه قال (من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين
عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له) فمن كان فقره بين عينيه لم
يزل خائفا من الفقر لا يستغنى قلبه بشىء ولا يشبع من الدنيا فان
الغنى غنى القلب ومن كان غناه فى قلبه فلا يضره ما لقى من الدنيا

وَمَنْ كَانَ الْفَقْرُ فِى قَلْبِهِ فَلَا يُغْنِيهِ مَا أُكْثِرَ لَهُ مِنْهَا وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ

وَعَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : مَثَلُ طَالِبِ الدُّنْيَا كَشَارِبِ الْبَحْرِ

كُلَّمَا ازْدَادَ شُرْبًا مِنْهُ ازْدَادَ عَطَشًا حَتَّى يَقْتُلَهُ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذ مَنْ

كَانَ غِنَاهُ فِى قَلْبِهِ لَمْ يَزَلْ غَنِيًّا وَمَنْ كَانَ غِنَاهُ فِى كَسْبِهِ لَمْ يَزَلْ فَقِيرًا وَمَنْ

قَصَدَ الْمَخْلُوقِينَ لِحَوَائِجِهِ لَمْ يَزَلْ مَحْرُومًا وَيَشْهَدُ لِهٰذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ عَلَيْهِ

السَّلَامُ (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى لَهُمَا ثَالِثًا وَلَا

يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ) وَلَوْ

فَكَّرَ الطَّامِعُ فِى عَاقِبَةِ الدُّنْيَا لَقَنِعَ وَلَوْ تَذَكَّرَ الْجَائِعُ فُضُولَ مَآلِهَا لَشَبِعَ

فَإِذَا تَفَكَّرَ الْعَبْدُ فِى عَاقِبَةِ طَمَعِهِ فِى الدُّنْيَا وَحِرْصِهِ عَلَيْهَا وَإِنَّ ذٰلِكَ

يَعُودُ وَبَالًا عَلَيْهِ أَوَّلًا بِحِرْصِهِ وَشَقَائِهِ عَلَيْهِ فِى حَالِ جَمْعِهِ ثُمَّ تَحَسُّرِهِ

عِنْدَ الْمَوْتِ عَلَى فِرَاقِهِ وَإِنَّهُ يَدَعُهُ لِمَنْ لَا يَشْكُرُهُ وَيَقْدَمُ بِأَوْزَارِهِ عَلَى

مَنْ لَا يَعْذُرُهُ فَحَقِيقٌ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ الْفُضُولَ مِنَ الْمُبَاحِ إِذَا عَرَفَ أَنَّ

هَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَأَنْ يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَقَعَ فِيمَا بِهِ بَأْسٌ وَإِنَّ أَقْرَبَ شَيْءٍ مِنْهُ أَنَّ شِبَعَهُ الْحِسِّيَّ قَدْ يَكُونُ سَبَبَهُ هَلَاكُهُ وَمَوْتُهُ وَالدُّنْيَا وَجَمِيعُ مَا فِيهَا مِنَ الْخُضْرَةِ وَالْبَهْجَةِ وَالْعِزَّةِ تَتَقَلَّبُ أَحْوَالُهَا وَتَتَبَدَّلُ ثُمَّ تَصِيرُ طَعَامًا يَابِسًا وَقَدْ عَدَّدَ سُبْحَانَهُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَمَتَاعَهَا الْمُبْهِجَ فِي قَوْلِهِ (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وَهَذَا كُلُّهُ يَصِيرُ تُرَابًا مَا خَلَى الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَهُمَا لَا يُنْتَفَعُ بِأَعْيَانِهِمَا بَلْ هُمَا قِيَمُ الْأَشْيَاءِ قَدْ يَنْتَفِعُ صَاحِبُهُمَا بِإِمْسَاكِهِمَا وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِإِنْفَاقِهِمَا كَمَا قَالَ الْحَسَنُ بِئْسَ الرَّفِيقُ الدِّرْهَمُ وَالدِّينَارُ لَا يَنْفَعَانِكَ حَتَّى يُفَارِقَاكَ وَأَجْسَامُ بَنِي آدَمَ وَسَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ كَنَبَاتِ الْأَرْضِ تَتَقَلَّبُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ثُمَّ تَجِفُّ وَتَصِيرُ تُرَابًا. قَالَ تَعَالَى (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ

يُعيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) فَيَنْتَقِلُ ابْنُ آدَمَ مِنَ الشَّبَابِ إِلَى الْهَرَمِ وَمِنَ الصِّحَّةِ إِلَى السّقَمِ وَمِنَ الْوُجُودِ إِلَى الْعَدَمِ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ مَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَغْلِبْ خَيْرُهُ عَلَى شَرِّهِ فَلْيَتَجَهَّزْ إِلَى النَّارِ وَمَنْ غَلَبَتْ مَحَاسِنُهُ عَلَى مَسَاوِيهِ فَهُوَ الْمَحْمُودُ وَمَنْ غَلَبَتْ مَسَاوِيهِ عَلَى مَحَامِدِهِ فَهُوَ الْمَذْمُومُ .

(فَصْلٌ) الذِّكْرُ حَيَاةُ الْقُلُوبِ فَانَّ الْقَلْبَ إِذَا اشْتَغَلَ بِالذِّكْرِ سَلِمَ مِنَ الْاشْتِغَالِ بِضِدِّهِ مِنَ الْقِيلِ وَالْقَالِ وَأَيْضًا فَالذِّكْرُ هُوَ حَيَاةُ قَلْبِكَ وَرَاحَةُ بَدَنِكَ وَسَلَامَةُ دِينِكَ لِأَنَّ الْاشْتِغَالَ بِالذِّكْرِ اشْتِغَالٌ عَنِ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ مِنَ الْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَدْحِ النَّاسِ وَذَمِّهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَانَّ اللِّسَانَ لَا يَسْكُتُ الْبَتَّةَ فَاما لِسَانٌ ذَاكِرٌ وَإِمَّا لِسَانٌ لَاغٍ وَلَابُدَّ مِنْ أَحَدِهِمَا فَهِيَ النَّفْسُ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْحَقِّ شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ وَهُوَ الْقَلْبُ إِنْ لَمْ تَسْكُنْهُ مَحَبَّةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ سَكَنَتْهُ مَحَبَّةُ الْمَخْلُوقِينَ

وَلَابُدَّ وَهُوَ اللِّسَانُ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهُ بِالذِّكْرِ شَغَلَكَ بِاللَّغْوِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ

وَلَابُدَّ فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ إِحْدَى الْخُلَّتَيْنِ وَأَنْزِلْهَا فِي إِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ

(فَصْلٌ) فِي فَضْلِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ السُّوءِ كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ إِذَا خَرَجَ إِلَى النَّاسِ كَأَنَّهُ رَجُلٌ عَايَنَ الآخِرَةَ ثُمَّ يُخْبِرُ عَنْهَا وَكَانُوا إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ خَرَجُوا وَهُمْ لَا يَعُدُّونَ الدُّنْيَا شَيْئًا وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَتَعَزَّى بِمَجَالِسِهِ عَنِ الدُّنْيَا وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ لَا تُذْكَرُ الدُّنْيَا فِي مَجْلِسِهِ وَلَا تُذْكَرُ عِنْدَهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا تَنْفَعُ الْمَوْعِظَةُ إِلَّا إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ فَإِنَّهَا تَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ فَأَمَّا إِذَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ فَإِنَّهَا تَدْخُلُ مِنَ الْأُذُنِ ثُمَّ تَخْرُجُ مِنَ الْأُخْرَى وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ إِنَّ الْعَالِمَ إِذَا لَمْ يُرِدْ بِمَوْعِظَتِهِ وَجْهَ اللهِ .

زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقَلْبِ ۞ كَمَا يَزِلُّ الْقَطْرُ عَنِ الصَّفَا

وَقُلْتُ أَنَا فِى ذَلِكَ

مَوَاعِظُ الْوَاعِظِ لَنْ تُقْبَلِى حَتَّى يَعِيهَا قَلْبُهُ أَوَّلَا

يَاقَوْمِ مَنْ أَظْلَمَ مِنْ وَاعِظٍ خَالَفَ مَا قَالَهُ فِى الْمَلَا

أَظْهَرَ بَيْنَ الْخَلْقِ إِحْسَانَهُ وَخَالَفَ الرَّحْمٰنَ لَمَّا خَلَا

(فَصْلٌ) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِىّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: تَبَاعَدْ عَنْ أَهْلِ السُّوءِ وَبَاعِدْ أَوْلَادَكَ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ يُعَادُونَكَ بِأَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَطَبْعِهِمْ وَلَا يَزَالُ يَقْسُو قَلْبُكَ حَتَّى يَسْتَأْنِسَ بِهِمْ فَهُنَالِكَ الْهَلَاكُ وَالسُّوءُ يَتَفَاوَتُ فَمِنْ أَهْلِهِ أَهْلُ الْفَوَاحِشِ وَمِنْهُمْ أَهْلُ اللَّهْوِ وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْمَلَاهِى وَآلَاتُ الطَّرَبِ فَإِنَّهُمْ يَسْبُونَ أَهْلَ الْعُقُولِ عُقُولَهُمْ حَتَّى يَنْحَلُّوا مِنْ دِينِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَمُرُوءَتِهِمْ فَيَعْسُرُ عَلَيْهِمُ الْخَلَاصُ مِنْهُمْ لِمَا يَجِدُونَهُ مِنْ لَذَّةِ النَّغَمَاتِ وَالْأَصْوَاتِ حَتَّى يَكُونَ عَادَةً وَطَبْعًا فَرُبَّمَا يَجْلِسُ الرَّجُلُ إِلَيْهِمْ وَهُوَ كَارِهٌ

لِسَمَاعِ لَغْوِهِمْ مُسْتَوْحِشٌ مِنْ نَفْسِهِ ثُمَّ لَا يَزَالُ عَلَى ذٰلِكَ حَتَّى يَرَاهُ حَسَنًا .

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى
حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

فَتَجِدُ بَعْضَهُمْ يَقُولُ لَا نَقْدِرُ عَلَى تَرْكِهِ وَقَدْ بُلِينَا بِهِ وَنَحْنُ فَارِغُونَ وَنَأْخُذُ أَخْبَارًا وَنَحْوَ هٰذِهِ الْأَعْذَارِ الْفَاسِدَةِ وَلَمَّا فَشَتْ هٰذِهِ الْأُمُورُ فِى النَّاسِ وَكَثُرَ أَهْلُهَا خَفَّ شَأْنُهَا وَمَاتَتِ الْقُلُوبُ بِأَمْرَاضِ الذُّنُوبِ وَالْتَبَسَ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ وَالْحَابِلُ بِالنَّابِلِ وَالْغَافِلُ عَنِ الطَّاعَةِ لَا يُحِسُّ بِشَىْءٍ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا يُبَالِى مَهْمَا حَسَّنَتْ لَهُ نَفْسُهُ ارْتِكَابَهُ وَأَعْظَمُ مِنْ هٰذَا أَنَّهُ يَعْمَلُ الذَّنْبَ وَلَا يَسْتَقْبِحُهُ بَلْ يَرَاهُ جَائِزًا وَهٰذِهِ عُقُوبَةٌ عَاجِلَةٌ وَهُوَ لَا يَظُنُّهَا عُقُوبَةً فَهُوَ يَرَى سَلَامَةَ بَدَنِهِ وَمَالِهِ فَلَا يَظُنُّ الْعُقُوبَةَ إِلَّا ذٰلِكَ وَلَمْ يَدْرِ الْمِسْكِينُ أَنَّ عَمَلَ الْمَعْصِيَةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ عُقُوبَةٌ

وَقَدْ يَجْمَعُ لَهُ بَيْنَ عُقُوبَةِ الْبَدَنِ وَالْمَالِ وَحِرْمَانِ التَّوْبَةِ فَيُؤْخَذُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ فَمَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا فَتَحَ لَهُ أَبْوَابَ الْخَيْرِ وَيَسَّرَ لَهُ أَسْبَابَهُ الْمُوَصِّلَةَ إِلَيْهِ وَمَنْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ فَتَحَ لَهُ أَبْوَابَ الشَّرِّ وَوَسَائِلَهُ الْمُوَصِّلَةَ إِلَيْهِ.

(فَصْلٌ) مَنْ سَبَرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَرَأَى مَا صَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ مِنَ التَّشَاحُنِ وَالتَّقَاطُعِ وَالتَّنَافُسِ فِي الدُّنْيَا وَمَلَاذِّهَا وَشَهَوَاتِهَا عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ الْحُبَّ وَالْبُغْضَ لِأَجْلِهَا وَأَنَّ الْمَعْرُوفَ قَدْ عَادَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا وَالْحَقَّ بَاطِلًا وَالْبَاطِلَ حَقًّا نَشَأَ عَلَيْهِ الصَّغِيرُ وَهَرِمَ عَلَيْهِ الْكَبِيرُ فَكَثُرَ الْإِمْسَاسُ وَقَلَّ الْإِحْسَاسُ أَيْ قَلَّتِ الْمُبَالَاتُ بِهَا لِكَثْرَتِهَا وَتَنَوُّعِهَا فَلَا تُنْكَرُ وَلَا تُسْتَنْكَرُ وَقَدْ قَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ

اللهُ عَنهُ إنْ كانَ الرَّجلُ يَتَكَلَّمُ بالْكَلِمَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ
عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَيَصيرُ بِهَا مُنافقًا وَإنِّى لأَسْمَعُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ فِى الْمَقْعَدِ
الْوَاحِدِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قِيلَ لَهُ فِى يَوْمٍ وَاحِدٍ تَرَكَتْ
بَنُو إسْرائيلَ دِينَهَا قالَ لا وَلكِنَّهُمْ كَانُوا إذَا أُمِرُوا بِشَيْءٍ تَرَكُوهُ
وَإذَا نُهُوا عَنْ شَيْءٍ ارْتَكَبُوهُ حَتَّى انْسَلَخُوا مِنْ دِينِهِمْ كَمَا يَنْسَلِخُ
الرَّجُلُ مِنْ قَمِيصِهِ وَقَدِ امْتَزَجَ النَّاسُ الصَّالِحُ بِالطَّالِحِ وَفَشَتْ فِيهِمْ
الْمَدَنِيَّةُ وَصَارُوا إلَى التَّفَرْنُجِ أَمْيَلَ فِى أَلْسِنَتِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَأَخْلاقِهِمْ
وَأَفْعَالِهِمْ وَآدَابِهِمْ فَهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يُسَارِعُونَ وَإلَى الْبَاطِلِ
يُهَرْوِلُونَ فَأَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَأَقْبَلُوا عَلَى الْجَرَائِدِ وَالْمَجَلَّاتِ الَّتِى أَتَاحَتْهَا لَهُمْ طَوَائِفُ الْكَفَرَةِ
الدُّعَاةُ إلَى الضَّلالِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ لَا تَمِيلُوا إِلَيْهِمْ أَدْنَى مَيْلٍ فَالرُّكُونُ هُوَ الْمَيْلُ الْيَسِيرُ كَالتَّزَيِّي بِزِيِّهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ عِنْدَ ذِكْرِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَالْحَامِلُ لِذَلِكَ قَدْ يَكُونُ لِغَرَضٍ أَوْ لِمَرَضٍ فَمِنْ ذَلِكَ طَلَبُ الْمَكَاسِبِ وَالْمَنَاصِبِ وَالرِّيَاسَةِ خَشْيَةَ فَوَاتِهَا إِنْ لَمْ يُعَظِّمْهُمْ وَيَلْتَزِمْ أَفْعَالَهُمْ وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ وَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي بَابِ مَنْ لَمْ يُبَالِ مِنْ حَيْثُ كَسَبَ الْمَالَ حَدَّثَنَا آدَمُ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ وَسَاقَهُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ الْمَالَ مِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ).

(فَصْلٌ) وَلْنَذْكُرْ هَا هُنَا فَائِدَةً فِي النَّهْيِ عَنِ الْجُلُوسِ فِي الطُّرُقِ وَالْأَسْوَاقِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا. فَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ

فَقَالُوا يَا رَسُولَ الله مَالَنَا من مجَالسنا بدٌّ نتحدث فيها فقَالَ إذا أبيتم إلَّا المجلس فأعطوا الطَّريق حقَّه قَالُوا وَمَا حَقُّه يارسُولَ الله قَالَ غَضُّ البَصَرِ وَكَفُّ الأَذَى وردُّ السَّلَامِ وَالأَمْرُ بالمَعْرُوف وَالنَّهْىُ عَنِ المُنْكَرِ وفى روَايَة عند مُسْلِمٍ كُنَّا قعودًا بالأفْنِيَة جمع فَنَاء وهو المَكَانُ المُتَّسع أَمَامَ الدَّارِ فجَاءَ رسُولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم فقَالَ مَالَكُمْ وَلمجَالِسِ الصُّعُدَات وفى لَفْظ فَانَّهَا سَبيلُ الشَّيْطَان أو النَّارِ وفى حَديث شُرَيْحٍ عند أحْمَد فمَنْ جَلَس منكُمْ عَلَى الصَّعيد فَلْيُعْطه حَقَّه قَالُوا وَمَا حَقُّه قَالَ غَضُّ البَصَرِ وَكَفُّ الأَذَى وَرَدُّ السَّلَام وَالأَمْرُ بالمَعْرُوف وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ وفى لَفْظ وَإرْشَادُ السَّبيلِ وَتَشْميتُ العَاطسِ وتَهْدى الضَّالَّ وتُغيثُ المَلْهُوفَ . إلَى أَنْ قَالَ وَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى علَّة معنَى النَّهْى عَنِ الجُلُوس فى الطُّرُقِ من التَّعرُّض للفتَن بمُرُورِ النِّسَاءِ الشَّوَابِّ وَخَوف مَا يَلْحَقُ مِنَ النَّظَرِ إلَيْهنَّ من

ذلك إذا لم يمنع النساء من المرور فى الشوارع لحوائجهن ومن التعرض لحقوق الله وللمسلمين بما لا يلزم الانسان إذا كان فى بيته سالما من هذه الامور وتبعاتها ومن رؤية المنكر التى إما أن لا يزيلها فيأثم أو يدخل فيما هم فيه من الاثم انتهى من الفتح لابن حجر وفى مجالس غوغاء الناس من الاثم مالا يعد ولما كثر الناس فى زمان عمر رضى الله عنه وتفرغوا رأى عمر رضى الله عنه كثرة التحارش بينهم جمع عرفاء قومه فشاورهم فيما حدث منهم فأشار عليه عبد الله بن عامر أن يشغلهم بالغزو عما هم فيه من الشر فلا يكون لأحدهم هم إلا نفسه وما هو فيه من تدبير دابته وقمل فروته فقال إن غوغاء الناس إذا اجتمعوا وبطلوا اشتغلوا بما لا يعنى وتكلموا بما لا يرضى وإذا تفرقوا نفعوا أنفسهم ونفعوا غيرهم فوافقه عمر على ذلك انتهى فاذا وجدت قساوة فى قلبك وضعفا فى

بَدَنِكَ وَحِرْمَانًا فِي رِزْقِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ تَكَلَّمْتَ بِمَا لَا يَعْنِيكَ فَكَلَامُ الشَّخْصِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ يُقَسِّي قَلْبَهُ وَيُضْعِفُ بَدَنَهُ وَيُعَسِّرُ أَسْبَابَ الرِّزْقِ عَلَيْهِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

(فَصْلٌ) وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ فِي هٰذِهِ الْأَزْمَانِ قَدْ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَاءَهُمْ ظِهْرِيًّا وَزَهِدُوا فِيمَا فِيهِمَا مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَاشْتَغَلُوا بِضِدِّهِ مِنَ الْمَجَلَّاتِ وَالرَّادْيُوَاتِ وَمَا يَلْتَحِقُ بِهِمَا مِنْ آلَاتِ اللَّهْوِ كَمَا تَقَدَّمَ وَصَارَ إِقْبَالُهُمْ عَلَى ذٰلِكَ لَيْلًا وَنَهَارًا سِرًّا وَجِهَارًا وَصَارَتِ الْخَاصَّةُ مُسَاوِيَةً لِلْعَامَّةِ فَصَارَ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُسْتَنْكَرُ لِفُشُوِّهِ بَيْنَهُمْ وَكَثْرَةِ الْمُشْتَغِلِينَ بِهِ مُعْرِضِينَ عَنِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالصَّلَاحِ وَالْعَمْتِ وَالدِّينِ فِيمَا مَضَى مِنْ عُمْرِهِ فَرَجَعَ الْقَهْقَرَى إِلَى الْوَرَاءِ فَاسْتَحْسَنَ الْقَبِيحَ وَاسْتَقْبَحَ الْحَسَنَ . وَهٰذَا وَاللهِ مُؤْذِنٌ بِانْهِدَامِ الدِّينِ وَسَخَطِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَقَدِ انْضَمَّ إِلَىٰ ذَٰلِكَ الْتِفَاتُ غَالِبِ الْخَلْقِ إِلَى أَمْرِ الدُّنْيَا وَلَوْ بِفَسَادِ دِينِهِمْ وَذَهَابِهِ وَنَسُوا كِتَابَ اللهِ وَنَبَذُوهُ وَرَاءَهُمْ ظِهْرِيًّا فَعَمِيَتِ الْبَصَائِرُ وَاسْتَحْكَمَتْ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ وَظَهَرَتِ الْبِدَعُ وَانْتَشَرَتْ وَاجْتَمَعَ الصَّالِحُ بِالْفَاسِدِ وَالْفَاسِقُ بِالْعَابِدِ وَعَادَ الْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا وَالْمَعْرُوفُ مُنْكَرًا وَالْمُنْكِرُ عَلَيْهِمْ كَأَنَّهُ غَرَضٌ مِنَ السِّهَامِ وَالْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى ذَٰلِكَ الْجَهْلُ بِدِينِ الْإِسْلَامِ وَمَحَبَّةُ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَمَلَذُوذَاتِهَا وَقِلَّةُ الدَّاعِي إِلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَاشْتَغَلُوا بِالدُّنْيَا وَقَدَّمُوهَا عَلَى مَا يُرْضِي اللهَ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الرِّزْقَ وَالْأَجَلَ قَرِينَانِ فَمَا دَامَ الْأَجَلُ بَاقِيًا فَالرِّزْقُ جَارِيًا وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَفِي الْحَدِيثِ إِذَا عَظَّمَتْ أُمَّتِي الدُّنْيَا نُزِعَتْ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ وَإِذَا تَرَكَتِ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ حُرِمَتْ بَرَكَةَ الْوَحْيِ

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين وهلاك آخرها بالبخل والأمل) وقال عليه الصلاة والسلام (ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ المال من الحلال أم من الحرام) رواه البخاري . وروى أن الله أوحى إلى داوود عليه السلام ياداوود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فان القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه من طاعتي . قال تعالى (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق) وقال تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا) وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب)

(فَصْلٌ) الدُّنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا وَلَا يَسْتَمِرُّ خَيْرُهَا وَهِيَ مَجْمَعُ الآفَاتِ وَمُسْتَوْدَعُ الْمَصَائِبِ لَا يَرْكَنُ إِلَيْهَا إِلَّا مَغْرُورٌ وَلَا يَنْخَدِعُ بِهَا إِلَّا مَفْتُونٌ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهِيَ مَطِيَّتُهُ إِلَى الآخِرَةِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ اللهَ عَلَيْهَا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ عَلَيْهَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُسَارِعُ إِلَيْهِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَا يَقْرَبُهُ لَا يُدَاهِنُ فِي أَمْرِ اللهِ وَلَا يُجَامِلُ الرُّؤَسَاءَ وَالأَعْيَانَ بِمَا يُسْخِطُ اللهَ لَيْسَتِ الْمُصِيبَةُ أَنْ يُصَابَ الإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ وَإِنَّمَا الْمُصِيبَةُ الْعَظِيمَةُ وَالْكَسْرُ الَّذِي لَا يَنْجَبِرُ أَنْ يُصَابَ بِدِينِهِ فَيَحِلُّ الشَّكُّ مَحَلَّ الْيَقِينِ فَيَرَى الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا فَلَيْسَ الإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي وَلَكِنْ مَا وَقَرَ بِالْقُلُوبِ وَصَدَّقَتْهُ الأَعْمَالُ وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا بحب الشهوات وأكل الحرام (إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم) يعنى تعجبك ألسنتهم بالمقال وهم مخالفون فى الأفعال عن الحق معرضون ولأعداء الله موالون وقال ابن القيم فى بعض كلام له لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما عدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان لآرائهم عرض لهم من ذلك فساد فى فطرهم وظلمة فى قلوبهم وكدر فى أفهامهم ومحق فى عقولهم وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم حتى ربا فيها الصغير وهرم عليها الكبير فلم يروها منكرا فجاءتهم دولة أخرى أقامت البدع مكان السنن والنفس الأمارة مكان العقل والهوى مقام الرشد والضلال مقام الهدى والمنكر مقام المعروف والجهل مقام العلم والربا مقام الإخلاص والباطل مكان الحق

وَالْكَذِبَ مَقَامَ الصِّدْقِ وَالْمُدَاهَنَةَ مَقَامَ النَّصِيحَةِ وَالظُّلْمَ مَقَامَ الْعَدْلِ فَصَارَتِ الْغَلَبَةُ لِأَهْلِ هٰذِهِ الْأُمُورِ وَأَهْلُهَا هُمُ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ انتهى قُلْتُ هٰذَا هُوَ الْوَاقِعُ الْيَوْمَ فَإِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ اقْشَعَرَّتِ الْأَرْضُ وَاظْلَمَّتِ السَّمَاءُ وَظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْ ظُلْمِ الْفَجَرَةِ وَذَهَبَتِ الْبَرَكَاتُ وَقَلَّتِ الْخَيْرَاتُ وَهُزِلَتِ الْوُحُوشُ وَتَكَدَّرَتِ الْحَيَاةُ مِنْ فِسْقِ الظَّلَمَةِ وَبَكَى ضَوْءُ النَّهَارِ وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْخَبِيثَةِ وَالْأَفْعَالِ الْفَظِيعَةِ وَشَكَى الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ لِرَبِّهِمْ وَالْمُعَقِّبَاتُ مِنْ كَثْرَةِ الْفَوَاحِشِ وَغَلَبَتِ الْمُنْكَرَاتُ وَالْقَبَائِحُ وَهٰذَا وَاللهِ مُنْذِرٌ بِسَيْلِ عَذَابٍ قَدِ انْعَقَدَ غَمَامُهُ وَمُؤْذِنٌ بِلَيْلِ بَلَاءٍ قَدِ ادْلَهَمَّ ظَلَامُهُ فَاعْزِلُوا عَنْ طَرِيقِ هٰذَا السَّبِيلِ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ مَا دَامَتِ التَّوْبَةُ مُمْكِنَةً وَبَابُهَا مَفْتُوحًا وَقَالَ أَيْضًا عُلَمَاءُ السُّوءِ جَلَسُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ يَدْعُونَ إِلَيْهَا النَّاسَ بِأَقْوَالِهِمْ وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى النَّارِ بِأَفْعَالِهِمْ فَكُلَّمَا

قَالُوا لِلنَّاسِ هَلُمُّوا قَالَتْ أَفْعَالُهُمْ لَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ فَلَوْ كَانَ مَا دَعَوْا إِلَيْهِ حَقًّا لَكَانُوا أَوَّلَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ مِنْهُمْ فَهُمْ فِى الظَّاهِرِ أَدِلَّاءُ وَفِى الْحَقِيقَةِ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ انتهى قُلْتُ وَقَدْ تُعُلِّمَ الْعِلْمُ فِى هٰذِهِ الْأَزْمَانِ لِغَيْرِ الدِّينِ فَصَارَ الْأَمْرُ أَعْظَمَ مِمَّا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللّٰهُ فَإِنَّهُ اخْتَلَطَ الصَّالِحُ بِالطَّالِحِ وَكَثُرَ الْمُتَعَلِّمُونَ وَقَلَّ الْعَامِلُونَ وَاتَّصَفَ غَالِبُ الْخَلْقِ بِالْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ وَالْإِلْحَادِ وَالزَّنْدَقَةِ وَالْاسْتِهْزَاءِ بِالسُّنَنِ وَأَهْلِهَا وَصَارُوا إِلَى الْفُجُورِ وَالْمُنْكَرَاتِ أَقْرَبَ مِنْهُمْ إِلَى الطَّاعَاتِ وَأَحْسَنُهُمْ حَالًا الَّذِينَ هَمُّهُمُ الْقِيلُ وَالْقَالُ وَالْعُكُوفُ عَلَى اللَّهْوِ وَالشَّهَوَاتِ وَالتَّفَاخُرُ فِى الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمُبَاهَاتُ فِى الْبُنْيَانِ وَغَيْرِهِ مِمَّا لَا يَنْحَصِرُ عَدَدُهُ . قَالَ كَعْبٌ وَاللّٰهِ إِنِّى لَأَجِدُ صِفَةَ الْمُنَافِقِينَ فِى كِتَابِ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ شَرَّابِينَ لِلْقَهَوَاتِ يَعْنِى الْخُمُورَ تَرَّاكِينَ لِلصَّلَوَاتِ لَعَّابِينَ بِالْكَعَبَاتِ رَقَّادِينَ عَنِ الْعَتَمَاتِ مُفَرِّطِينَ فِى

الْغَدَوَات يَعْنِى صَلَاةَ الصُّبْحِ تَارِكِينَ لِلْجَمَاعَاتِ وَمِنْ صِفَاتِهِمْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَهُمْ بَيْنَ كَافِرٍ بِهِ وَفَاجِرٍ يَتَأَكَّلُ بِهِ . وَعَنْ أَبِى سَعِيد مَرْفُوعًا يَكُونُ خَلَفٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ وَفِى حَدِيثٍ آخَرَ وَأَمَّا الْقُرْآنَ فَيَتَعَلَّمُهُ الْمُنَافِقُ فَيُجَادِلُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَفِى الْحَدِيثِ الَّذِى رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (أَكْثَرُ مُنَافِقِى أُمَّتِى قُرَّاؤُهَا) وَقَدْ غَلَبَ فِى هٰذِهِ الْأَزْمَانِ حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالرِّيَاسَةِ وَالشَّهَوَاتِ عَلَى أَكْثَرِ الْخَلْقِ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَصَارَ الْتِفَاتُهُمْ إِلَى الرَّادُوَاتِ وَالْمَجَلَّاتِ وَالْجَرَائِدِ فَاسْتَحْسَنُوا الْقَبِيحَ وَاسْتَقْبَحُوا الْحَسَنَ وَأَقْبَلُوا بِأَوْلَادِهِمْ إِلَى التَّعَلُّمِ فِى اللُّغَاتِ وَالْحِسَابَاتِ وَمَا يَتْبَعُهَا وَأَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ اللهِ وَعَنْ قِرَاءَتِهِ وَتَعَلُّمِهِ حَقًّا الَّذِى قَالَ فِيهِ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّمَا أُدْرِجَتِ النُّبُوَّةُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ

لا يوحى إليه ومن قرأ القرآن فرأى أن أحدا أعطى أفضل مما أعطى فقد صغر ما عظم الله وليس ينبغي لحامل القرآن أن يسفه فيمن يسفه أو يغضب فيمن يغضب ولكن يعفو ويصفح لفضل القرآن.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من استمع لآية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة) فأين هذا وفضله وأجر عامله وسروره ورحمته في دنياه بكلام مولاه وأنسه به من الاشتغال والاستماع للملاهي وما يتبعها لو كانوا يعقلون فإنا لله وإنا إليه راجعون.

(فصل) والقلب قد يعرض له شيء من الشهوات والشبهات فيمرض وشفاؤه محبة الله وكثرة ذكره والإقبال عليه والإعراض عما سواه وأن يكون أكبر همه رضا ربه والاستعداد لرحيله وأنه

مُسافرٌ كلَّ يومٍ يُدنيه مَرحَلةً لِمَنزِله الذى لابدّ له منه وليعلمْ أنه إن أُهمِل وتَناسى مصيرهُ فليس بمُهمَلٍ ولا منسىّ فكلُّ من له ذوق ومَعرفة يعلم أنَّه كذلك والقلبُ إذا غفَل عن ربّه وأقبل على الدُّنيا وَقع فى نار الحرص وزمهرير الحرمان ولا يزال ينتقلُ من رغبة إلى رغبة ومن طلَب إلى طلب ومن ظُلمة إلى ظُلمة فاذا فتح على قلبه بابَ الذّكر خلَص من خُسران الحسَرات إلى معرفة فاطِر الأرض والسَّموات فلهجته بذكر ربّه بقلبه ولسانه وجوارحه تدلُّ على صدق المحبّة والاخلاص له فأشرفُ الذّكر وأعظمه وأفضله القرآن وأعظمُ الغفلة الاعراضُ عنه. قال تعالى (ومَن أعرض عن ذكرى فانّ له معيشةً ضنكاً ونحشره يومَ القيامة أعمى) فالقرآن هو الذّكرُ الحكيم وهو الوعظ وهو الشّفاء وهو الهدى وهو الرّحمةُ للمؤمنين خاصّةً قال تعالى (يا أيُّها النّاس قد جاءتكم

مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

فَاشْتَمَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَى أَرْبَعِ صِفَاتٍ الأُولَى الْمَوْعِظَةُ وَالْمُرَادُ بِهَا

الزَّجْرُ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ. الثَّانِيَةُ كَوْنُهُ شِفَاءً لِمَا فِى الصُّدُورِ مِنْ

أَمْرَاضِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ وَأَمْرَاضِ الْمَعَاصِى. الثَّالِثَةُ حُصُولُ

الْهُدَى بِسَبَبِهِ الرَّابِعَةُ كَوْنُهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً. وَهُمْ أَهْلُ

الإِيمَانِ الْخُلَّصِ الَّذِينَ امْتَلأَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ

وَالأُنْسِ بِهِ وَقَدْ لازَمُوا الصِّدْقَ وَالْيَقِينَ وَالصَّبْرَ وَالرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ

وَالشَّفَقَةَ وَالرَّحْمَةَ عَلَى عِبَادِ اللهِ فَأَمَّا مَنْ فَقَدَ هٰذِهِ الْخِصَالَ وَقَدَّمَ

هَوَاهُ عَلَى هُدَاهُ فَلَا يَزِيدُهُ عَمَلُهُ إِلَّا مَقْتًا مِنَ اللهِ وَبُعْدًا لَهُ لأَنَّهُ قَدْ

غَرِقَ فِى سَكَرَاتِ هَوَاهُ غَافِلاً عَنْ مَوْلَاهُ وَهٰذَا أَشَدُّ مِنْ مُسْكِرَاتِ

الْخَمْرِ لأَنَّ الثَّمِلَ مِنَ الْخَمْرِ يُرْجَى صَحْوُهُ وَالثَّمِلَ مِنْ شَرَابِ حُبِّ

المَالِ وَالجَاهِ وَالرِّيَاسَةِ لَا تُرْجَى إِفَاقَتُهُ . قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ اعْرِفُوا اللهَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ فَمَنْ عَرَفَهُ لَمْ يَعْصِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ فَيَاخَسَارَةَ مَنْ أَنْفَقَ أَنْفَاسَهُ وَأَوْقَاتَهُ النَّفِيسَةَ فِي غَيْرِ طَاعَةٍ وَأَخْسَرُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَهَا فِي مَعَاصِي اللهِ فَمِنَ الْأَوَّلِ الْانْهِمَاكُ فِي الْمُبَاحَاتِ وَمَجَالِسِ اللَّهْوِ وَالْغَفَلَاتِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَسَمَاعِ مَالَا فَائِدَةَ فِيهِ . قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ إِلَّا ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالَاهُ أَوْ أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ) وَرُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ أَنَّهُ قَالَ مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ أَوْشَكَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِ شَهَادَةٍ وَمِنَ الثَّانِي مَا عَمَّتْ بِهِ الْبَلْوَى مِنْ كَثْرَةِ مُخَالَطَةِ أَهْلِ الْاسْلَامِ لِأَهْلِ دِينٍ غَيْرِ دِينِهِمْ فَهٰذِهِ مِنَ الْمَصَائِبِ الدِّينِيَّةِ لِأَنَّ مُسَاكَنَتَهُمْ وَخِدْمَتَهُمْ وَمُخَالَطَتَهُمْ مِمَّا يَهْدِمُ الْاسْلَامَ وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ فَضَرَرُهُمْ عَلَى الْأَدْيَانِ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ السُّمِّ عَلَى الْأَبْدَانِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ) قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ اتِّبَاعُ الْهَوَى يَطْمِسُ نُورَ الْعَقْلِ وَيُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ وَيَصُدُّ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَيُضِلُّ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالْعَبْدُ إِذَا تَبِعَ هَوَاهُ فَسَدَ قَلْبُهُ وَنَظَرُهُ وَأَرَتْهُ نَفْسُهُ الْقَبِيحَ فِي صُورَةِ الْحَسَنِ وَالْحَسَنَ فِي صُورَةِ الْقَبِيحِ فَالْتَبَسَ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ فَأَنَّى

لهُ الانتفاعُ بالتذكرِ أو التفكرِ أو اليقظةِ مما هو فيه وقال مطرُ الوراقُ رحمه الله إذا غلبَ الهوى اظلمَ القلبُ وإذا اظلمَ القلبُ ضاقَ الصدرُ وإذا ضاقَ الصدرُ ساءَ الخلقُ وإذا ساءَ الخلقُ أبغضَ الناسَ وأبغضوه.

(فصلٌ) فى مسندِ الامامِ أحمدَ عنهُ صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثتُ بالسيفِ بينَ يدى الساعةِ حتى يعبدَ اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ وجعلَ رزقى تحتَ ظلِّ رمحى وجعلت الذلةُ والصغارُ على من خالفَ أمرى ومن تشبهَ بقومٍ فهو منهم قال ابنُ القيمِ على هذا الحديث أى من تشبهَ بقومٍ بالاندماجِ وتلاشتْ شخصيتهُ فيهم فما يكونُ ذلكَ إلا عن تعظيمٍ وإكبارٍ لهم فهو لذلكَ يلغى شخصيتهُ ويتلاشى فى شخصيةِ الآخرينَ فمن تشبهَ بالرسولِ صلى الله عليه وسلم وأصحابهِ بالغاءِ شخصيتهِ الجاهليةَ السفيهةَ واندمجَ فى معنويةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم وأصحابهِ علماً وعملاً واعتقاداً وأدباً فهو بلا شكٍّ منهم ومن

تَشَبَّهَ بِالْإِفْرِنْجِ فِي لِبَاسِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَنُظُمِهِمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ فَهُوَ بِلَا شَكٍّ إِفْرِنْجِيٌّ غَيْرُ مُسْلِمٍ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ فَلِهَذَا التَّشَبُّهِ وَنَتَائِجِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ تَرَى الْمُعَظِّمِينَ لِلنَّصَارَى وَالْوَثَنِيِّينَ الْحَرِيصِينَ عَلَى التَّشَبُّهِ بِهِمْ وَالِانْدِمَاجِ فِيهِمْ يُعَاوِنُونَهُمْ عَلَى الضَّرَرِ بِدِينِهِمْ وَبِلَادِهِمْ وَأُمَمِهِمْ عَنْ قَصْدٍ وَعَنْ غَيْرِ قَصْدٍ إِذْ يَرَوْنَ فِي هَذِهِ الْمُعَاوَنَةِ خَيْرًا لِأَنْفُسِهِمْ وَلَذَّةً لِشَهَوَاتِهِمْ وَبِذَلِكَ ضَعُفَتِ الْأُمَمُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَوَهَنَتْ قُوَاهَا لِأَنَّهَا أَلْغَتْ شَخْصِيَّتَهَا الْعَرَبِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَأَفْنَتْهَا فِي شَخْصِيَّةِ أَعْدَائِهَا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْوَثَنِيِّينَ وَأَصْبَحَ مِنْ أَشَدِّ الْأُمُورِ وَأَصْعَبِهَا أَنْ تَعُودَ إِلَيْهَا عِزَّتُهَا وَمَكَانَتُهَا فِي الْحَيَاةِ مَا دَامَتْ غَارِقَةً فِي هَذَا التَّشَبُّهِ وَالِانْدِمَاجِ زَاعِمَةً أَنَّهُ الرُّقِيُّ وَالْحَضَارَةُ وَالْمُلَائَمَةُ لِرُوحِ الْعَصْرِ انتهى قُلْتُ مَعْنَى قَوْلِهِ أَنَّهُ انْدَمَجَ دَخَلَ فِي غَيْرِهِ وَاسْتَحْكَمَ فِيهِ فَكَانَ هَذَا الَّذِي انْدَمَجَ مَعَ ضِدِّهِ اسْتَهْلَكَ فِيهِمْ

بكليته فكأنه لا يعرف دينا غير دينهم الذى دخل معهم فيه ولا
أخلاقا غير أخلاقهم ولا لغة غير لغتهم وتكبر وتعاظم فى نفسه
لما انحل من وطنه ودينه ودخل فيما استغرب به فصار عنده هو الحسن
وكل من آثر هواه على هداه واستغنى برأيه وماله وتكبر وبغى
وطغى كما قال تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى
المأوى) قال بعض المفسرين يعنى بالشهوات ولما تنافس الناس
فى طلب الدنيا وأحبوا الرياسات والفخر والكبر والاعجاب
بالنفس حصل لهم ما حصل من الأطماع وصار عندهم المتمسك
لدينه أضعف شىء وأهونه مزدرا ممقوتا لا يعبأ به ولا يلتفت إليه بل
يرى بعين النقص والازدراء فاذا رأى من ينتسب للخير تنقصهم له
وتحقيرهم إياه وقلة المساعد ضعف عزمه فى ذلك وقل مساعده على
طريقه وكثر مساعدهم وتمثل بهم من هو دونهم فى المعرفة والعقل

وَالْمَالِ فَصَارَ طَرِيقُ الضَّلَالِ مَهْيعاً وَطَرِيقُ الرُّشْدِ بَلْقَعاً وَهٰذَا ضِدُّ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنَ الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ وَالانْكِفَافِ عَنِ الدُّنْيَا وَمُخَالَطَةِ أَهْلِ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ كَمَا كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي مَجْلِسِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَهُوَ مَوْلًى فَيُعَاتَبُ عَلَى ذٰلِكَ فَيَقُولُ إِنَّمَا يَجْلِسُ الْمَرْءُ حَيْثُ يَكُونُ فِيهِ نَفْعٌ لَهُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِسَمَاعِ مَا يَسْمَعُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ أَبُوهُ مَوْلًى لِعُمَرَ وَعَلِيُّ ابْنُ الْحُسَيْنِ سَيِّدُ بَنِي هَاشِمٍ انتهى كَلَامُ ابْنِ رَجَبٍ. ثُمَّ قَالَ وَلَمَّا اجْتَمَعَ الزُّهْرِيُّ وَأَبُو حَازِمٍ الزَّاهِدُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةَ لَمَّا حَجَّ وَسَمِعَ الزُّهْرِيُّ كَلَامَ أَبِي حَازِمٍ وَحِكْمَتَهُ أَعْجَبَهُ ذٰلِكَ وَقَالَ هُوَ جَارِي مُنْذُ كَذَا وَكَذَا وَمَا جَالَسْتُهُ وَلَا عَرَفْتُ أَنَّ هٰذَا عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ أَبُو حَازِمٍ أَجَلْ إِنِّي مِنَ الْمَسَاكِينِ وَلَوْ كُنْتُ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ لَعَرَفْتَنِي فَوَبَّخَهُ بِذٰلِكَ وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ لَهُ لَوْ أَحْبَبْتَ اللهَ أَحْبَبْتَنِي

وَلٰكِنَّكَ نَسِيتَ اللهَ فَنَسِيَتَنِي يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ اللهَ تَعَالَى أَحَبَّ الْمَسَاكِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ لِأَجْلِ مَحَبَّةِ اللهِ وَمَنْ غَفَلَ عَنِ اللهِ غَفَلَ عَنْ أَوْلِيَائِهِ مِنَ الْمَسَاكِينِ فَلَمْ يَرْفَعْ لَهُمْ رَأْسًا وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا اخْتَصَّهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ الَّتِي لَا تُوجَدُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَأْخُذُونَ الْعِلْمَ عَنْ أَهْلِهِ وَالْغَالِبُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ وَعَدَمُ الْمَالِ وَالرِّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا وَيَدَعُونَ أَهْلَ الرِّيَاسَاتِ وَالْوِلَايَاتِ وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا شَكَىٰ إِلَيْهِ مَا يَجِدُ مِنْ قَسْوَةِ قَلْبِهِ فَقَالَ لَهُ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَمِنْهَا أَنَّ مُجَالَسَةَ الْمَسَاكِينِ تُوجِبُ رِضَىٰ مَنْ يُجَالِسُهُمْ بِرِزْقِ اللهِ الَّذِي أَعْطَاهُ وَبِتَعْظِيمِ نِعْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بِنَظَرِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَىٰ مَنْ هُوَ دُونَهُ وَمُجَالَسَةُ الْأَغْنِيَاءِ تُوجِبُ التَّسَخُّطَ بِالرِّزْقِ وَمَدَّ الْعَيْنِ إِلَىٰ

زِينَتِهِمْ وَمَاهُمْ فِيهِ وَقَدْ نَهَى اللهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ تَعَالَى
(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
(انْظُرُوا إِلَى مَنْ دُونَكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ فَوْقَكُمْ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ
أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) قَالَ أَبُو ذَرٍّ أَوْصَانِي رَسُولُ اللهِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ
فَوْقِي وَأَوْصَانِي أَنْ أُحِبَّ الْمَسَاكِينَ وَأَنْ أَدْنُوَ مِنْهُمْ. وَكَانَ عَوْنُ
ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ يُجَالِسُ الْأَغْنِيَاءَ فَلَا يَزَالُ فِي غَمٍّ
لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ يَرَى مَنْ هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ لِبَاسًا وَمَرْكَبًا وَمَسْكَنًا
وَطَعَامًا فَتَرَكَهُمْ وَجَالَسَ الْمَسَاكِينَ فَاسْتَرَاحَ مِنْ ذٰلِكَ وَقَدْ رُوِيَ
عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ نَهَى عَائِشَةَ عَنْ مُخَالَطَةِ الْأَغْنِيَاءِ وَقَالَ
عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى أَهْلِ السَّعَةِ فَإِنَّهُ مَسْخَطَةٌ

للرزق وقد كان كثير من السلف يكتم حاجته ويظهر الغنى تعففا وتكرما منهم إبراهيم النخعى كان يلبس ثيابا حسنا ويخرج إلى الناس وهم يرون أنه تحل له الميتة من الحاجة وكان بعض الصالحين يلبس الثياب الجميلة وفى كمه مفتاح دار كبيرة ولا مأوى له إلا المسجد وكان آخر لا يلبس جبة فى الشتاء لفقره ويقول بى علة تمنعنى من لبس المحشو وإنما يعنى بها علة الفقر وكان بعكس هؤلاء من يلبس ثياب المساكين مع الغنى تواضعا لله عز وجل وبعدا من الكبر كما كان يفعله الخلفاء الراشدون الأربعة وبعدهم عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه.

(فصل) وكان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه أن يتعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. وفى حديث آخر أنه قال وجنبنا الفواحش ماظهر منها وما بطن وكان يخص بعض الفتن

العظيمة بالذكر فان المؤمن إذا عاش سليما من الفتن ثم قبضه الله إليه قبل وقوعها ودخول الناس فيها كان ذلك نجاة له من الشر كله وكان صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله فى صلاته من أربع ويأمر بالتعوذ منها أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال ففتنة المحيا تدخل فيها فتن الدين والدنيا كلها كالكفر والبدع والفسوق والعصيان وفتنة المحيا والممات يدخل فيها سوء الخاتمة وفتنة الملكين فى القبر فان الناس يفتنون فى قبورهم مثل أو قريبا من فتنة الدجال وكلما قرب الزمان من الساعة كثرت الفتن انتهى وعن خباب رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ستكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه يصبح مؤمنا ويمسى كافرا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض

مَن الدُّنيَا وفى التِّرْمذى عَنْهُ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ أنّه قَالَ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ وفِتْنَةُ أُمَّتِى المَالُ وقَالَ ابْنُ رَجَبٍ أيْضًا وأمَّا الفِتَنُ المُضِلَّةُ الَّتِى يُخْشَى مِنْهَا فَسَادُ الدِّين فَهِىَ الَّتِى يُسْتَعَاذُ مِنهَا وَيُسألُ المَوْتُ قَبْلَهَا فَمَن مَاتَ قَبْلَ وُقُوعِه فى شَىْءٍ مِنْ هذه الفِتَنِ فَقَدْ حَفِظَهُ اللهُ وَحَمَاهُ وفى السُّنَنِ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ يَكْرَهُ المَوْتَ والمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الفِتَنِ وَيَكْرَهُ قِلَّةَ المَالِ وقِلَّةُ المَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ. وَفى مُسْنَدِ الإمَامِ أحْمَدَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ أنّه قَالَ لا يَتَمَنَّيَنَّ المَوْتَ إلّا مَنْ وَثِقَ بِعَمَلِهِ وَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ شَوْقًا إلى لِقَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ أُحِبُّ المَوْتَ اشْتِيَاقًا إلى لِقَاءِ رَبِّى وَأُحِبُّ الفَقْرَ تَوَاضُعًا لِرَبِّى وأُحِبُّ المَرَضَ تَكْفِيرًا لِخَطِيئَتِى وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ الخَوَّاصُ يَمْشِى فى الأَسْوَاقِ وَيَضْرِبُ

صَدْرِهِ وَيَقُولُ وَاشَوْقَاهُ إِلَى مَنْ يَرَانِى وَلَا أَرَاهُ وَكَانَتِ امْرَأَتُهُ مِنَ الْمُتَعَبِّدَاتِ بِمَكَّةَ لَا تَزَالُ تَصْرَخُ وَتَقُولُ أَوَلَيْسَ عَجَبًا أَنْ أَكُونَ حَيَّةً بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ وَفِى قَلْبِى مِنَ الاشْتِيَاقِ لِرَبِّى مِثْلُ شَعْلِ النَّارِ الَّتِى لَا تُطْفَأُ حَتَّى أَصِيرَ إِلَى الطَّبِيبِ الَّذِى عِنْدَهُ دَوَائِى وَشِفَائِى وَرُوِىَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: مَا مِنْ عَبْدٍ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ إِلَّا وَالْفَقْرُ أَسْرَعُ إِلَيْهِ مِنْ جَرْىِ السَّيْلِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ عَلَى وَجْهِهِ وَمَنْ أَحَبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلْيَعُدَّ لِلْبَلَاءِ تِجْفَافًا وَإِنَّمَا يَعْنِى الصَّبْرَ.

(فَصْلٌ) وَلَمَّا كَانَتْ قُلُوبُ أَهْلِ الْمَعَاصِى قَاسِيَةً مُعْرِضَةً عَنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَارَتْ فِى الدُّنْيَا مُظْلِمَةً بَعِيدَةً عَنِ الْحَقِّ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا شَىْءٌ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ وَحَقَائِقِ الْعِرْفَانِ فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ عَلَى ذَلِكَ فِى الْآخِرَةِ حِجَابَهُمْ عَنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِمْ وَكَتَبَ الْأَوْزَاعِىُّ إِلَى أَخٍ لَهُ يَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ أُحِيطَ بِكَ مِنْ كُلِّ

جَانِبٍ وَاعْلَمْ أَنَّهُ يُشَارِبُكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَاحْذَرِ اللهَ وَالْمُقَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِكَ بِهِ وَالسَّلَامُ.

(فَصْلٌ) قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَارَسُولَ اللهِ الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ يُحِبُّ الْمُصَلِّينَ وَلَا يُصَلِّي إِلَّا قَلِيلًا وَيُحِبُّ الصَّائِمِينَ وَلَا يَصُومُ إِلَّا قَلِيلًا وَيُحِبُّ الذَّاكِرِينَ وَلَا يَذْكُرُ إِلَّا قَلِيلًا وَيُحِبُّ الْمُتَصَدِّقِينَ وَلَا يَتَصَدَّقُ إِلَّا قَلِيلًا وَيُحِبُّ الْمُجَاهِدِينَ وَلَا يُجَاهِدُ إِلَّا قَلِيلًا وَهُوَ فِي ذَلِكَ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ. قَالَ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مَنْ أَحَبَّ. وَقَالَ أَبُو سَالِمٍ الْجَوْزَجَانِيُّ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَارَسُولَ اللهِ إِنِّي أَرَى الْجَوَادَ وَفِيَّ بُخْلٌ وَأَرَى الرَّجُلَ الْحَسَنَ الْخُلُقِ فَأُحِبُّ حُسْنَ الْخُلُقِ وَفِي خُلُقِي سُوءٌ وَأَرَى الرَّجُلَ الْجَرِيءَ فَأُحِبُّ الْجُرْأَةَ وَفِيَّ جُبْنٌ قَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ آدَمَ

لَا تَغْتَرَّ بِقَوْلِ مَنْ يَقُولُ الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ إِنَّهُ مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا اتَّبَعَ آثَارَهُمْ وَلَنْ تَلْحَقَ بِالْأَبْرَارِ حَتَّى تَتَّبِعَ آثَارَهُمْ وَتَأْخُذَ بِهَدْيِهِمْ وَتَقْتَدِيَ بِسُنَّتِهِمْ وَتُصْبِحَ وَتُمْسِيَ وَأَنْتَ عَلَى مَنَاهِجِهِمْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ فَتَسْلُكَ سَبِيلَهُمْ وَتَأْخُذَ طَرِيقَهُمْ وَإِنْ كُنْتَ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ فَإِنَّمَا مِلَاكُ الْأَمْرِ أَنْ تَكُونَ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ أَمَا رَأَيْتَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَأَهْلَ الْأَهْوَاءِ الْمُرْدِيَةِ يُحِبُّونَ أَنْبِيَاءَهُمْ وَلَيْسُوا مَعَهُمْ لِأَنَّهُمْ خَالَفُوهُمْ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَسَلَكُوا غَيْرَ طَرِيقِهِمْ فَصَارَ مَوْرِدُهُمُ النَّارُ انتهى. وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي لَأَعْرِفُ نَاسًا مَاهُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ بِمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ الْقِيمَةَ قُلُوبُهُمْ الَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ وَيُحَبِّبُونَهُ إِلَى خَلْقِهِ يَأْمُرُونَهُمْ بِطَاعَةِ اللهِ فَإِذَا أَطَاعُوا اللهَ أَحَبَّهُمُ اللهُ. وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ لِابْنِهِ عَبْدِ اللهِ: إِنِّي مُوصِيكَ بِحُبِّ

اللهِ وَحُبّ طَاعَتِـه وَخَوْف اللهِ وَخَوْف مَعْصِيَتِـه فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ كَذٰلِكَ لَمْ تَـكْرَه الْمَوْتَ مَتىٰ أَتَاكَ . وَجَاءَ رَجُـلٌ مِنَ الْبَصْرَةِ إِلىٰ طَاوُوس لِيَسْمَعَ مِنْهُ فَوَافَاهُ مَرِيضًا فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ يَبْكِي فَقَالَ : مَا يُبْكِيكَ قَالَ وَاللهِ مَا أَبْكِي عَلَى قَرَابَةٍ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَلَا عَلَى دُنْيَا جِئْتُ أَطْلُبُهَا مِنْكَ وَلٰكِنْ عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي جِئْتُ أَطْلُبُهُ مِنْكَ يَفُوتُنِي قَالَ لَهُ طَاوُوسٌ إِنِّي مُوصِيكَ بِثَلَاثِ كَلِمَاتٍ إِنْ حَفِظْتَهُنَّ عَلِمْتَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَعِلْمَ مَا كَانَ وَعِلْمَ مَا يَكُونَ : خَفِ اللهَ حَتَّى لَا يَكُونَ عِنْدَكَ شَيْءٌ أَرْجَى مِنْهُ وَأَحِبَّ اللهَ حَتَّى لَا يَكُونَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْهُ فَإِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ عَلِمْتَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَعِلْمَ مَا كَانَ وَعِلْمَ مَا يَكُونُ فَقَالَ لَا جَرَمَ لَا سَأَلْتُ أَحَدًا بَعْدَكَ عَنْ شَيْءٍ مَا بَقِيتُ .

(فَصْـلٌ) يَنْبَغِي لِلْمُنْتَسِبِ لِلْعِلْمِ أَنْ يَكُونَ مُتَقَلِّلًا مِنَ الدُّنْيَـا زَاهِدًا فِيهَا مُكْتَفِيًا بِالْخَشِنِ مِنَ الْمَلْبَسِ وَالْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ كَمَا

كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ مُتَقَلِّلِينَ مِنَ الدُّنْيَا فَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبِيتُ الْأَيَّامَ الْمُتَتَابِعَةَ وَالْأَشْهُرَ لَا يُوقَدُ فِي بَيْتِهِ نَارٌ وَقَدْ خُيِّرَ أَنْ يُعْطَى مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَاشَاءَ وَبَيْنَ الْآخِرَةِ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مَاتَحَقَّقَ طِيبُهُ وَعَرَفَ وَجْهَهُ مِنْ حَلَالٍ وَكَانَ قَدْ خَلَّلَ عَلَيْهِ عَبَاءَةً عَلَى صَدْرِهِ وَكَانَ عُمَرُ يَخْطُبُ النَّاسَ وَفِي ثَوْبِهِ إِحْدَى عَشْرَةَ رُقْعَةً وَكَانَ يَأْتَدِمُ الزَّيْتَ وَكَانَ يَقُولُ لِبَطْنِهِ تَقَرْقَرِي أَوْ مَاتَقَرْقَرِي وَاللهِ لَا أَئْتَدِمُ السَّمْنَ وَأَدَعُ الْمَسَاكِينَ وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ حَائِطًا وَإِذَا بِطَيْرٍ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ ثُمَّ قَالَ طُوبَى لَكَ يَاطَيْرُ تَأْكُلُ مِنَ الشَّجَرِ وَتَسْتَظِلُّ بِالشَّجَرِ وَتَصِيرُ إِلَى غَيْرِ حِسَابٍ يَالَيْتَ أَبَا بَكْرٍ مِثْلُكَ.

(فَصْلٌ) ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ عَنْ أَبِي الشَّيْخِ فِي كِتَابِ الْعَظَمَةِ

وَسَاقَ بِسَنَدِهِ عَنْ قَيْسِ بْنِ الْحَجَّاجِ عَمَّنْ حَدَّثَهُ قَالَ. قَالَ لَمَّا فُتِحَتْ
مِصْرُ أَتَى أَهْلُهَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ حِينَ دَخَلَ يَوْمٌ مِنْ شَهْرِ الْعَجَمِ
فَقَالُوا يَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّ لِنِيلِنَا هٰذَا سُنَّةً لَا يَجْرِى إِلَّا بِهَا. قَالَ
وَمَا ذَاكَ قَالُوا إِذَا كَانَ إِحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَةً تَخْلُوا مِنْ هٰذَا الشَّهْرِ
عَمَدْنَا إِلَى جَارِيَةٍ بِكْرٍ بَيْنَ أَبَوَيْهَا فَأَرْضَيْنَا أَبَوَيْهَا وَجَعَلْنَا عَلَيْهَا مِنَ
الثِّيَابِ وَالْحُلِىِّ أَفْضَلَ مَا يَكُونُ ثُمَّ أَلْقَيْنَاهَا فِى هٰذَا النِّيلِ فَقَالَ لَهُمْ
عَمْرٌو إِنَّ هٰذَا لَا يَكُونُ أَبَدًا فِى الْإِسْلَامِ وَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ
قَبْلَهُ فَأَقَامُوا وَالنِّيلُ لَا يَجْرِى لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا حَتَّى هَمُّوا بِالْجَلَاءِ
فَلَمَّا رَأَى عَمْرٌو ذٰلِكَ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، بِذٰلِكَ فَكَتَبَ لَهُ
أَنْ قَدْ أَصَبْتَ بِالَّذِى قُلْتَ وَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ وَبَعَثَ
بِطَاقَةً فِى دَاخِلِ كِتَابِهِ وَكَتَبَ إِلَى عَمْرٍو إِنِّى بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِبِطَاقَةٍ
فِى دَاخِلِ كِتَابِى فَأَلْقِهَا فِى النِّيلِ فَلَمَّا قَدِمَ كِتَابُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَخَذَ الْبِطَاقَةَ فَفَتَحَهَا فَاذَا فِيهَا مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى نِيلِ مِصْرَ أَمَّا بَعْدُ فَانْ كُنْتَ تَجْرِى مِنْ قِبَلِكَ فَلَا تَجْرِى وَإِنْ كَانَ اللهُ يُجْرِيكَ فَأَسْأَلُ اللهَ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ أَنْ يُجْرِيَكَ فَأَلْقَى الْبِطَاقَةَ فِى النِّيلِ قَبْلَ الصَّلِيبِ بِيَوْمٍ فَأَصْبَحُوا وَقَدْ أَجْرَى اللهُ تَعَالَى سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا فِى لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطَعَ اللهُ تِلْكَ السُّنَّةَ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ إِلَى الْيَوْمِ وَأَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ يُحَدِّثُ عُمَرَ بِالْحَدِيثِ فَيَكْذِبُهُ الْكِذْبَةَ فَيَقُولُ احْبِسْ هٰذَا ثُمَّ يُحَدِّثُهُ بِالْحَدِيثِ فَيَقُولُ احْبِسْ هٰذَا فَيَقُولُ لَهُ كُلُّ مَا حَدَّثْتُكَ بِهِ حَقٌّ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى أَنْ أَحْبِسَهُ انتهى . قُلْتُ فَهٰذِهِ مِنْ بَعْضِ كَرَامَاتِ عُمَرَ وَمَا يُجْرِى اللهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْخَوَارِقِ وَهٰذِهِ أَيْضًا مِنْ كَرَامَاتِ نَبِيِّنَا وَدَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ حَيْثُ يَجْرِى عَلَى يَدَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ مَا يَكُونُ كَرَامَةً لَهُمْ مِنْ خَرْقِ الْعَادَاتِ وَالْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ

وَذٰلِكَ بِفَضْلِ نَبِيِّ هٰذِهِ الْأُمَّةِ وَكَرَامَتِهِ حَيْثُ جَرَى عَلَى يَدَىْ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا يَكُونُ زِيَادَةً فِى فَضْلِهِ وَفَضْلِ صَحْبِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِصَحْبِ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَا كَانَ لِنَبِيِّنَا وَلِصَحْبِهِ وَقَدْ ذَكَرَ مَعْنَى ذٰلِكَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا قَدَّمْنَا فِى أَثْنَاءِ هٰذَا الْكِتَابِ عَنْهُمْ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ وَالْخَوَارِقِ الْغَرِيبَةِ الَّتِى تَزِيدُ الْمُؤْمِنَ إِيمَانًا وَالْمُنَافِقَ انْدِهَاشًا .

(فَصْلٌ) فِى ذِكْرِ شَىْءٍ مِنْ زُهْدِ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ وَتَقَلُّلِهِ مِنَ الدُّنْيَا وَانْكِفَافِهِ عَنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ . رُوِىَ عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا بِبَابِ عُمَرَ فَمَرَّتْ جَارِيَةٌ فَقَالُوا سُرِّيَّةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . فَقَالَ مَاهِىَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِسُرِّيَّةٍ وَلَا تَحِلُّ لَهُ إِنَّهَا مِنْ مَالِ اللهِ فَقُلْنَا لَهُ فَمَاذَا يَحِلُّ مِنْ مَالِ اللهِ تَعَالَى قَالَ إِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِعُمَرَ مِنْ مَالِ اللهِ إِلَّا حُلَّتَيْنِ حُلَّةً لِلشِّتَاءِ وَحُلَّةً لِلصَّيْفِ وَمَا حَجَّ بِهِ وَمَا

اعتمر وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين . وقال خزيمة بن ثابت كان عمر إذا استعمل عاملا كتب له واشترط عليه أن لا يركب برذونا ولا يأكل نقيا ولا يلبس رقيقا ولا يغلق بابه دون ذوى الحاجات فان فعل فقد حلت عليه العقوبة وقال عكرمة بن خالد إن حفصة وعبد الله وغيرهما كلموا عمر فقالوا لو أكلت طعاما طيبا كان أقوى لك على الحق قال كلكم على هذا الرأى قالوا نعم قال قد علمت نصحكم ولكنى قد تركت صاحبى على جادة فان تركت جادتهما لم أدركهما فى المنزل . قال وأصاب الناس سنة فما أكل عامئذ سمينا ولا سمنا وقال ابن أبى مليكة كلم عتبة بن فرقد عمر فى طعامه فقال ويحك آكل طيباتى فى حياتى الدنيا وأستمتع بها . وقال الحسن دخل عمر على ابنه عاصم وهو يأكل لحما فقال ما هذا قال قرمنا

إِلَيْهِ قَالَ أَوْ كُلَّمَا قَرِمْتَ إِلَى شَيْءٍ أَكَلْتَهُ كَفَى بِالْمَرْءِ سَرَفًا أَنْ يَأْكُلَ كُلَّ مَا اشْتَهَى . وَقَالَ أَسْلَمُ قَالَ عُمَرُ لَقَدْ خَطَرَ عَلَى قَلْبِي شَهْوَةُ السَّمَكِ الطَّرِيِّ فَرَحَّلَ يَرْفَأُ يَعْنِي خَادِمَ عُمَرَ لِأَنَّ اسْمَهُ يَرْفَأُ رَاحِلَتَهُ وَسَارَ أَرْبَعًا مُقْبِلًا وَأَرْبَعًا مُدْبِرًا وَاشْتَرَى مِكْتَلًا فَجَاءَ بِهِ وَعَمَدَ إِلَى الرَّاحِلَةِ فَغَسَلَهَا فَأَتَى عُمَرُ فَقَالَ انْطَلِقْ بِنَا حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى الرَّاحِلَةِ . فَنَظَرَ وَقَالَ أَنَسِيتَ أَنْ تَغْسِلَ هَذَا الْعَرَقَ الَّذِي تَحْتَ أُذُنِهَا عَذَّبْتَ بَهِيمَةً فِي شَهْوَةِ عُمَرَ لَا وَاللَّهِ لَا يَذُوقُ عُمَرُ مِكْتَلَكَ وَقَالَ قَتَادَةُ كَانَ عُمَرُ يَلْبَسُ وَهُوَ خَلِيفَةٌ جُبَّةً مِنْ صُوفٍ مَرْقُوعَةً بَعْضُهَا بِأُدُمٍ وَيَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ عَلَى عَاتِقِهِ الدِّرَّةُ يُؤَدِّبُ بِهَا النَّاسَ وَيَمُرُّ بِالنَّكْثِ وَهُوَ الْغَزْلُ النَّقُوضُ وَالنَّوَى فَيَلْتَقِطُهُ وَيُلْقِيهِ فِي مَنَازِلِ النَّاسِ يَنْتَفِعُونَ بِهِ وَقَالَ أَنَسٌ رَأَيْتُ بَيْنَ كَتِفَيْ عُمَرَ أَرْبَعَ رِقَاعٍ فِي قَمِيصِهِ وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ الْهِنْدِيُّ رَأَيْتُ عَلَى عُمَرَ إِزَارًا مَرْقُوعًا بِأُدُمٍ .

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ حَجَجْتُ مَعَ عُمَرَ فَمَا ضَرَبَ فُسْطَاطًا وَلَا خِبَاءً كَانَ يُلْقِى الْكِسَاءَ أَوِ النِّطْعَ عَلَى الشَّجَرَةِ وَيَسْتَظِلُّ تَحْتَهَا وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عِيسَى كَانَ فِى وَجْهِ عُمَرَ خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ. وَقَالَ الْحَسَنُ كَانَ عُمَرُ يَمُرُّ بِالآيَةِ مِنْ وِرْدِهِ فَيَسْقُطُ حَتَّى يُعَادَ مِنْهَا أَيَّامًا وَقَالَ أَنَسٌ دَخَلْتُ حَائِطًا فَسَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ وَبَيْنِى وَبَيْنَهُ جِدَارٌ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَخٍ وَاللهِ لَتَتَّقِيَنَّ اللهَ أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ اللهُ وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَامِرٍ رَأَيْتُ عُمَرَ أَخَذَ تِبْنَةً مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ يَالَيْتَنِى كُنْتُ هٰذِهِ التِّبْنَةَ يَالَيْتَنِى لَمْ أَكُ شَيْئًا لَيْتَ أُمِّى لَمْ تَلِدْنِى. وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ حَفْصٍ حَمَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قِرْبَةً عَلَى عُنُقِهِ فَقِيلَ لَهُ فِى ذٰلِكَ. فَقَالَ إِنَّ نَفْسِى أَعْجَبَتْنِى فَأَرَدْتُ أَنْ أُذِلَّهَا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ قَدِمَ صِهْرٌ لِعُمَرَ عَلَيْهِ فَطَلَبَ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ فَانْتَهَرَهُ عُمَرُ وَقَالَ أَرَدْتَ أَنْ أَلْقَى اللهَ مَلِكًا خَائِنًا ثُمَّ أَعْطَاهُ مِنْ

صُلْبِ مَالِهِ . وَقَالَ النَّخَعِيُّ كَانَ عُمَرُ يَتَّجِرُ وَهُوَ خَلِيفَةٌ . وَقَالَ أَنَسٌ تَقَرْقَرَ بَطْنُ عُمَرَ مِنْ أَكْلِ الزَّيْتِ عَامَ الرَّمَادَةِ وَكَانَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ السَّمْنَ فَنَقَرَ بَطْنَهُ بِأُصْبُعِهِ وَقَالَ إِنَّهُ لَيْسَ عِنْدَنَا غَيْرُهُ حَتَّى يَحْيَا النَّاسُ . وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ مَنْ رَفَعَ إِلَيَّ عُيُوبِي . وَقَالَ أَسْلَمُ رَأَيْتُ عُمَرَ يَأْخُذُ بِأُذُنِ الْفَرَسِ وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى أُذُنَهُ ثُمَّ يَنْزُو عَلَى مَتْنِ الْفَرَسِ وَقَالَ الْأَحْوَصُ ابْنُ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أُوتِيَ عُمَرُ بِلَحْمٍ فِيهِ سَمْنٌ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَهُمَا وَقَالَ كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا أُدْمٌ أَخْرَجَ هَذِهِ الْآثَارَ أَبُو سَعْدٍ انْتَهَى مِنْ كَلَامِ السُّيُوطِيِّ . وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ خَرَجَ يَوْمًا حَتَّى أَتَى الْمِنْبَرَ وَكَانَ قَدِ اشْتَكَى شَكْوَى فَنُعِتَ لَهُ الْعَسَلُ وَفِي بَيْتِ الْمَالِ عُكَّةٌ فَقَالَ إِنْ أَذِنْتُمْ لِي فِيهَا أَخَذْتُهَا وَإِلَّا فَهِيَ عَلَيَّ حَرَامٌ فَأَذِنُوا لَهُ وَأَخْرَجَ أَبُو سَعْدٍ أَنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ قَالَ لِعُمَرَ إِنَّا نَجِدُكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ

جَهَنَّمَ تَمْنَعِ النَّاسَ أَنْ يَقَعُوا فِيهَا فَإِذَا مُتُّ لَمْ يَزَالُوا يَقْتَحِمُونَ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ عُمَرَ حَجَّ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ فَأَنْفَقَ فِي حَجَّتِهِ سِتَّةَ عَشَرَ دِينَارًا . فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِ أَسْرَفْنَا فِي هٰذَا الْمَالِ وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ الضَّحَّاكِ وَقَالَ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً إِلَى جَنْبِ الطَّرِيقِ فَمَرَّ عَلَيَّ بَعِيرٌ فَأَخَذَنِي فَأَدْخَلَنِي فَاهُ فَلَاكَنِي ثُمَّ ازْدَرَدَنِي ثُمَّ أَخْرَجَنِي بَعْرًا وَلَمْ أَكُنْ بَشَرًا فَقَالَ عُمَرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ كَبْشًا لِأَهْلِي سَمَّنُونِي مَا بَدَا لَهُمْ حَتَّى إِذَا كُنْتُ كَأَسْمَنِ مَا يَكُونُ زَارَهُمْ مَنْ يُحِبُّونَ فَذَبَحُونِي لَهُمْ فَجَعَلُوا بَعْضِي شِوَاءً وَبَعْضِي قَدِيدًا ثُمَّ أَكَلُونِي وَلَمْ أَكُنْ بَشَرًا وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ : سُمِعَ صَوْتٌ بِجَبَلِ تَبًّا لَهُ حَيْثُ قُتِلَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ :

لِيَبْكِ عَلَى الْإِسْلَامِ مَنْ كَانَ بَاكِيًا

فَقَدْ أَوْشَكُوا صَرْعَى وَمَا قَدُمَ الْعَهْدُ

وَأَدْبَرَتِ الدُّنْيَا وَأَدْبَرَ خَيْرُهَا

وَقَدْ مَلَّهَا مَنْ كَانَ يُوقِنُ بِالْوَعْدِ

وَقَالَ عُمَرُ لابْنِهِ اقْتَصِدْ فِي الْكَفَنِ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ لِي عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ أَبْدَلَنِي مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَإِنْ كُنْتُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ سَلَبَنِي فَأَسْرَعَ سَلْبِي وَاقْتَصِدُوا فِي حُفْرَتِي فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ لِي عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ أُوسِعَ لِي فِيهَا مَدَى بَصَرِي وَإِنْ كُنْتُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ ضَيَّقَهَا عَلَيَّ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعِي وَلَا تُخْرِجْ مَعِي امْرَأَةً وَلَا تُزَكُّونِي فِيمَا لَيْسَ فِيَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ أَعْلَمُ بِي فَإِذَا خَرَجْتُمْ فَأَسْرِعُوا فِي الْمَشْيِ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ لِي عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ قَدَّمْتُمُونِي إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لِي وَإِنْ كُنْتُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ أَلْقَيْتُمْ عَنْ رِقَابِكُمْ شَرًّا تَحْمِلُونَهُ

وَرُوِيَ أَنَّ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ: سَأَلْتُ اللهَ حَوْلًا بَعْدَمَا مَاتَ عُمَرُ أَنْ يُرِيَنِيهِ فِي الْمَنَامِ فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ حَوْلٍ فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا شَأْنُكَ فَقَالَ هَذَا أَوَانُ فَرَغْتُ أَلَا وَإِنْ كَادَ عَرْشُ عُمَرَ لَيُهَدُّ لَوْلَا أَنِّي

لَقِيتَ رَؤُوفاً رَحِيماً وَرَوَى زَيدُ بنُ أَسْلَمَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَأَى عُمَرَ فِي الْمَنَامِ فَقَالَ كَيْفَ صَنَعْتَ قَالَ مَتَى فَارَقْتُكُمْ قَالَ مُنْذُ اثْنَتَي عَشَرَةَ سَنَةً قَالَ إِنَّمَا انْفَلَتُّ الآنَ مِنَ الْحِسَابِ وَأَخْرَجَ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ يَقُولُ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُرِيَنِي عُمَرَ فِي الْمَنَامِ فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ عَشْرِ سِنِينَ وَهُوَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ عَنْ جَبِينِهِ فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا فَعَلْتَ قَالَ الآنَ فَرَغْتُ وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي لَهَلَكْتُ فَإِذَا كَانَ هٰذَا قَدْ حَصَلَ لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَحَدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَهُوَ أَعْلَمُ الأُمَّةِ وَأَهْدَاهَا بَعْدَ نَبِيِّهَا وَأَبِي بَكْرٍ وَأَتْقَاهَا وَقُتِلَ شَهِيداً زِيَادَةً فِي حَسَنَاتِهِ فَمَا الظَّنُّ بِمَنْ دُونَهُ بَلْ بِدُونِ مَنْ دُونَهُ بِكَثِيرٍ فَكَيْفَ بِأَهْلِ الْجَرَائِمِ الَّذِينَ حَسَنَاتُهُمْ كُلُّهَا سَيِّئَاتٌ وَطَاعَاتُهُمْ كُلُّهَا غَفَلَاتٌ قَدْ أَسْكَرَتْهُمُ الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ

لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(فَصْلٌ) وَقَدْ رُوِىَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (مَامِنْ بَنِى آدَمَ إِلَّا وَلَهُ صَحِيفَتَانِ صَحِيفَةٌ يُكْتَبُ فِيهَا عَمَلُهُ بِالنَّهَارِ وَصَحِيفَةٌ يُكْتَبُ فِيهَا عَمَلُهُ بِاللَّيْلِ ثُمَّ تُطْوَى الصَّحِيفَتَانِ فَإِنْ كَانَ فِيهَا اسْتِغْفَارٌ وَلَوْ لِذَنْبٍ وَاحِدٍ تَلَأْلَأَ نُورًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا اسْتِغْفَارٌ طُوِيَتَا سَوْدَاوَيْنِ مُظْلِمَتَيْنِ) وَرُوِىَ أَيْضًا عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (مَنْ لَمْ يَسْتَغْفِرِ اللهَ فِى كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (لَا صَغِيرَةَ مَعَ الْإِصْرَارِ وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ الْاسْتِغْفَارِ) وَفِى مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (رُبَّ بَهِيمَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا وَأَكْثَرُ لِلّٰهِ ذِكْرًا).

(فَصْلٌ) وَقَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ سَمِعْتُ يَحْيَ بْنَ سَعِيدٍ يَقُولُ صَلَّى عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ فِى الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ أُنَاسٌ ثُمَّ قَامُوا يُصَلُّونَ

مَا بَيْنَ الظُّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ فِى الْمَسْجِدِ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ جُلَسَائِهِ لَوْ قُمْنَا فَصَلَّيْنَا مِثْلَ هٰؤُلَاءِ فَقَالَ سَعِيدٌ لَيْسَتِ الْعِبَادَةُ فِى كَثْرَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَإِنَّمَا الْعِبَادَةُ التَّفَكُّرُ فِى أَمْرِ اللهِ وَالْوَرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ وَقَالَ عَرْفَجَةُ الْأَشْجَعِىُّ كُنَّا عِنْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَرَءَ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَقَالَ هَلْ تَدْرُونَ لِمَا آثَرْنَا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ قُلْنَا لَا قَالَ لِأَنَّ الدُّنْيَا أُحْضِرَتْ وَعُجِّلَ لَنَا طَعَامُهَا وَشَرَابُهَا وَنِسَاؤُهَا وَلَذَّاتُهَا وَبَهْجَتُهَا وَأَنَّ الْآخِرَةَ نُعِتَتْ لَنَا وَزُوِيَتْ عَنَّا فَأَحْبَبْنَا الْعَاجِلَ وَتَرَكْنَا الْآجِلَ وَقَالَ خَالِدٌ الْعَدَوِىُّ خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ عَزْوَانَ وَكَانَ أَمِيرًا عَلَى الْبَصْرَةِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصَرْمٍ وَوَلَّتْ حَذًا وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا وَأَنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِى

فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهَا وَاللهِ لَتُمْلَأَنَّ أَفَعَجِبْتُمْ وَلَقَدْ كَانَ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ عَامًا وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَغَلِيظٍ مِنَ الزِّحَامِ وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَالَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقَ الشَّجَرِ حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا رَوَاهُ مُسْلِمٌ

(فَصْلٌ) قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ أَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ فَإِنْ كُنْتَ فِي ضِيقٍ مِنَ الْعَيْشِ وَسَّعَهُ عَلَيْكَ وَإِنْ كُنْتَ فِي سَعَةٍ مِنَ الْعَيْشِ ضَيَّقَهُ عَلَيْكَ وَقَالَ نُعَيْمٌ كَاتِبُهُ قَالَ عُمَرُ إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ مَخَافَةُ الْمُبَاهَاةِ وَقَالَ مَكْحُولٌ لَوْ حَلَفْتُ لَصَدَقْتُ

مَا رَأَيْتُ أَزْهَدَ مِنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ اضْطَرَبَتْ
أَوْصَالُهُ وَقَالَ عَطَاءٌ كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَجْمَعُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ الْفُقَهَاءَ
فَيَتَذَاكَرُونَ الْمَوْتَ وَالْقِيَامَةَ ثُمَّ يَبْكُونَ حَتَّى كَأَنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
جَنَازَةً وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْعَيْزَارِ خَطَبَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِالشَّامِ
عَلَى مِنْبَرٍ مِنْ طِينٍ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَصْلِحُوا أَسْرَارَكُمْ تَصْلُحْ
عَلَانِيَتُكُمْ وَاعْمَلُوا لِآخِرَتِكُمْ تُكْفَوْا دُنْيَاكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ رَجُلًا لَيْسَ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ أَبٌ حَيٌّ لَمُعْرِقٌ لَهُ فِي الْمَوْتِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ. وَذُكِرَ
أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمَعَهُ ابْنُهُ فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ
حَالِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ عَلِّمْهُ الْفِقْهَ الْأَكْبَرَ قَالَ وَمَا الْفِقْهُ الْأَكْبَرُ قَالَ الْقَنَاعَةُ
وَكَفُّ الْأَذَى وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ
الْقُرَظِيِّ قَالَ دَعَانِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ: صِفْ لِي الْعَدْلَ فَقُلْتُ
بَخٍ سَأَلْتَ عَنْ أَمْرٍ جَسِيمٍ كُنْ لِصَغِيرِ النَّاسِ أَبًا وَلِكَبِيرِهِمْ ابْنًا

وَلِلْمِثْلِ فِيهِم أَخاً وَلِلنِّسَاءِ كَذٰلِكَ وَعَاقِبِ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ ذُنُوبِهِمْ وَعَلَى قَدْرِ أَجْسَادِهِمْ وَلَا تَضْرِبَنَّ لِغَضَبِكَ سَوْطًا وَاحِدًا فَتُعَدَّمَ الْعَادِلِينَ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ إِيَّاكَ وَالاغْتِرَارَ بِالدُّنْيَا فَإِنَّكَ تَدَعُ الْمَالَ لِمَنْ لَا يَحْمَدُكَ وَتَفْضِى إِلَىٰ مَنْ لَا يُعَذِّبُ سِوَاهُ وَالسَّلَامُ .

(فَصْلٌ) وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ فِى كُلِّ يَوْمٍ لِعِبَادِهِ وَظَائِفَ مُوَظَّفَةً عَلَيْهِمْ مِنْ وَظَائِفِ طَاعَتِهِ فَمِنْهَا مَاهُوَ فَرْضٌ كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَمِنْهَا مَا يُنْدَبُونَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ افْتِرَاضٍ كَنَوَافِلِ الصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَجَعَلَ لِلشُّهُورِ وَظَائِفَ مُوَظَّفَةً عَلَيْهِمْ كَالصِّيَامِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَمِنْهَا مَاهُوَ مَفْرُوضٌ عَلَيْهِمْ كَصِيَامِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْاسْلَامِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مَنْدُوبٌ كَصِيَامِ شَعْبَانَ وَشَوَّالَ وَغَيْرِهِ مِنَ التَّطَوُّعَاتِ وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِبَعْضِ الشُّهُورِ فَضْلًا عَلَى بَعْضٍ كَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَرَمَضَانَ وَعَشْرِ ذِى الْحَجَّةِ وَلَيْلَةِ الْقَدْرِ وَيَوْمِ عَرَفَةَ وَيَوْمِ

الجمعة وما من موسم من هذه المواسم إلا ولله فيها لطف من لطائف نفحاته يصيب بها من يشاء بفضله ورحمته فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات وتقرب بها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات فعسى أن تدركه نفحة من تلك النفحات فيسعد سعادة لا يشقى بعدها. وقد خرج ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعا اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم وفي مسند الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (ليس من عمل يوم إلا يختم عليه) وروى ابن أبي الدنيا باسناده عن مجاهد قال ما من يوم إلا يقول ابن آدم قد دخلت عليك ولن أرجع إليك إلى يوم القيامة فانظر ماذا تعمل في فإذا انقضى طواه ثم يختم عليه

فَلَا يُفَكُّ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِى يَفُكُّ ذَاكَ الْخَاتَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَقُولُ الْيَوْمُ حِينَ يَنْقَضِى الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَرَاحَنِى مِنَ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا وَلَا لَيْلَةٌ تَدْخُلُ عَلَى النَّاسِ إِلَّا قَالَتْ كَذَلِكَ وَقَدْ كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِزَانَتَانِ فَانْظُرُوا مَاذَا تَضَعُونَ فِيهِمَا وَكَانَ يَقُولُ اعْمَلُوا اللَّيْلَ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَاعْمَلُوا النَّهَارَ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَعَنِ الْحَسَنِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : لَيْسَ يَوْمٌ يَأْتِى مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا إِلَّا يَتَكَلَّمُ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى يَوْمٌ جَدِيدٌ وَإِنِّى عَلَى مَا يُعْمَلُ فِىَّ شَهِيدٌ وَإِنِّى لَوْ قَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ لَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَعَنْهُ أَنَّهُ قَالَ الْيَوْمُ ضَيْفُكَ وَالضَّيْفُ مُرْتَحِلٌ يَحْمَدُكَ أَوْ يَذُمُّكَ وَكَذَا لَيْلَتُكَ

(فَصْلٌ) قَالَ أَبُو طَارِقٍ شَهِدْتُ ثَلَاثِينَ رَجُلًا فِى مَجَالِسِ الذِّكْرِ يَمْشُونَ أَصِحَّاءَ وَأَجْوَافُهُمْ وَاللهِ قَرِيحَةٌ فَإِذَا سَمِعُوا الْمَوَاعِظَ تَصَدَّعَتْ

قُلوبهم فماتوا . قال خليل المِصري كُلُّنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملا وكُلُّنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفا فعلى م ترجون وما عسيتم تنظرون الموت أول وارد عليكم من الله تعالى إمَّا بخير وإمَّا بشر فسيروا إلى ربكم سيرا جميلا ويا أيها المشغول طول الليل في المنام وطول النهار في جمع الحطام أترضى بمشاركة الأنعام أما سمعت قول الملك العلام (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)

(فصل) يا ابن آدم كم أزعج المنون نفوسا من ديارها وكم أباد البلى من أجساد منعمة ولم يدارها وكم نقل إلى الحفر أرواحها بأوزارها وكم أذل في التراب خدودا بعد نضارتها وإسفارها فابك على نفسك قبل بكاء لا يفيد وانتبه لنفسك يا هذا فالدنيا أضغاث

أَحْلَامٍ وَدَارُ الْفَنَاءِ لَا تَصْلُحُ لِلْمُقَامِ فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ وَخُذْ فِي الْجِدِّ وَالْاهْتِمَامِ . وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي ذَمِّ الدُّنْيَا : الدُّنْيَا دَارُ غُرُورٍ وَفَنًى فَأَوَّلُهَا عَنَاءٌ وَآخِرُهَا فَنَاءٌ فَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ يَعْنِي بِمَا يَرَى مِنْ تَقَلُّبِهَا بِأَهْلِهَا وَيَنْظُرُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ وَمُنْتَهَى سَيْرِهِ ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ بَلِيَّةَ الْهَوَى لَا تُشْبِهِ الْبَلَايَا وَأَنَّ سَرِيَّةَ الْمَوْتِ لَا كَالسَّرَايَا وَأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ لَا يَقْبَلُ الْهَدَايَا فَخُذْ لِنَفْسِكَ حِذْرَهَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الْخَفَايَا فَالْعَجَبُ مِمَّنْ عَرَفَ رَبَّهُ ثُمَّ عَصَاهُ وَعَرَفَ الشَّيْطَانَ ثُمَّ أَطَاعَهُ قَالَ تَعَالَى (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي قَالَ (عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ) وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ لَقَدْ صَحِبْتُ أَقْوَامًا كَانُوا لِحَسَنَاتِهِمْ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ أَخْوَفَ مِنْكُمْ مِنْ

سَيِّآتِكُمْ أَنْ تَعَذَّبُوا بِهَا وَرَوَى الْبَزَّارُ وَأَبُو يَعْلَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (لَوْ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ مِائَةُ أَلْفٍ
أَوْ يَزِيدُونَ وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَتَنَفَّسَ فَأَصَابَهُمْ نَفَسُهُ لَاحْتَرَقَ
الْمَسْجِدُ وَمَنْ فِيهِ) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ
صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَوْ أَنَّ شَرَارَةً مِنْ شَرَارِ جَهَنَّمَ بِالْمَشْرِقِ لَوَصَلَ
حَرُّهَا مَنْ بِالْمَغْرِبِ) وَعَنْ مَالِكِ ابْنِ دِينَارٍ قَالَ: الْوَيْلُ وَادٍ فِي
جَهَنَّمَ فِيهِ أَلْوَانُ الْعَذَابِ وَقَالَ عَطَاءُ ابْنُ يَسَارٍ الْوَيْلُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ
فِيهِ أَلْوَانُ الْعَذَابِ لَوْ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ لَمَاعَتْ مِنْ حَرِّهِ

(فَصْلٌ) وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ قَدْ نَبَذُوا كِتَابَ اللّٰهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ
وَاشْتَرَوْا بِهِ الدُّنْيَا وَمَلَاذَّهَا وَشَهَوَاتِهَا حَتَّى أَعْرَضُوا عَنْ تَعَلُّمِهِ
وَتَعْلِيمِهِ وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (فَضْلُ كَلَامِ
اللّٰهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللّٰهِ عَلَى خَلْقِهِ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ

عثمان بن عفان رضى الله عنه لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم وقال ابن مسعود من أحب القرآن أحب الله ورسوله فمن أحب شيئا أكثر من ذكره وقال بعضهم إذا أردت أن تعرف قدرك عند ربك فانظر إلى قدر القرآن عندك وقال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) والذكر هو القرآن فمن أعرض عنه وأقبل على الملاهى والنغمات واتبع ما تشتهيه نفسه من الشهوات والشبهات التى زخرفها أعداء الله وزينوها لهم وفتحوا أبواب المنكرات من الخرافات والهذيان الساقط الذى شغلوا به هذا الجيل فصاروا متحذلقين بألسنتهم مفتخرين بأخذهم اللغة التى نهينا عنها قال صلى الله عليه وسلم (من تشبه بقوم فهو منهم حتى فى لين

الْكَلَامِ لَهُمْ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ) قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِيَّاكُمْ وَرَطَانَةَ الْأَعَاجِمِ فَلْيَتَّقِ اللهَ امْرُؤٌ فِي نَفْسِهِ وَفِي مَنْ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يُخْشَى عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَنْسَلِخَ مِنْ دِينِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ أَوْ لَا يُبَالِي فَمَا وَافَقَ أَغْرَاضَهُ قَبِلَهُ كُفْرًا أَوْ إِيمَانًا ذَلِكَ عِنْدَهُ سَوَاءٌ فَإِنَّ غَالِبَ الْخَلْقِ الْيَوْمَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ وَقَدْ يَكُونُ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَوْ يَعْلَمُ ذَلِكَ لَتَنَبَّهَ وَفَارَقَهُمْ وَأَبْغَضَهُمْ وَلَكِنْ لَهُ طَمَعٌ دُنْيَوِيٌّ مَعَ جَهْلٍ بِالْحُكْمِ وَأَيْضًا مُجَالَسَةُ أَهْلِ السُّوءِ يُحَسِّنُونَ لَهُ السَّيْرَ مَعَهُمْ فَعَسَى أَنْ يَنْتَبِهَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ جَاهِلٌ أَوْ يَتَذَكَّرَ بِهَا غَافِلٌ وَلْيَحْذَرِ الْإِنْسَانُ أَنْ يَنْقُضَ دِينَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ وَنَوَاقِضُ الْإِسْلَامِ تُقَارِبُ أَرْبَعَمِائَةِ نَاقِضٍ ذَكَرَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ رَحِمَهُ اللهُ مِنْهَا عَشَرَةَ نَوَاقِضَ الثَّالِثُ مِنْهَا مَنْ لَمْ يُكَفِّرِ الْمُشْرِكِينَ أَوْ شَكَّ فِي كُفْرِهِمْ أَوْ صَحَّحَ مَذْهَبَهُمْ وَاسْتَحْسَنَهُ كَفَرَ الثَّامِنُ مِنْهَا : مُوَافَقَةُ الْمُشْرِكِينَ وَمُعَاوَنَتُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَنْ

يتولهم منكم فانه منهم) قال بعض المفسرين يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فأعرض عنهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) فأمره الله تعالى بالاعراض عن المنافقين باغلاظ القول عليهم ولا يلقاهم بوجه طلق بل يلقاهم بوجه عابس مكفهر متغير من الغيظ فاذا كان هذا مع المنافقين الذين هم بين أظهر المسلمين يصلون ويصومون فكيف بمن يسافر إلى المشركين ويقيم عندهم الأيام والشهور مطمئنا بين ظهرانيهم مستأذنا عليهم فى بيوتهم متعلما منهم مسلما عليهم ملينا لهم الكلام وليس له عذر إلا طلب العاجلة فان هذا يخشى عليه أن تكون ردة عن الاسلام عافانا الله وإياكم من ذلك فيا أسفى على أهل التوحيد الذين عرفوه ونشأوا فيه ودانوا به زمانا طويلا كيف انحازوا عن ولاية رب العالمين إلى ولاية المشركين والملحدين ورضوا بها بئس للظالمين بدلا فالله الله

عِبَادَ اللهِ هُبُّوا مِنْ هٰذِهِ الْغَفْلَةِ وَالْمَنَامِ وَارْجِعُوا إِلَى طَاعَةِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ وَتَفَكَّرُوا فِى هٰذِهِ الْمُصِيبَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِى صَيَّرَتْ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَ الضَّلَالِ جَمَاعَةً وَاحِدَةً فَإِنَّ هٰذِهِ وَصْمَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى الدِّينِ فَعَلَى كُلِّ مَنْ يَنْصَحُ نَفْسَهُ أَنْ يَبْذُلَ جُهْدَهُ وَيُنَاصِحَ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ أَوْ يَرَى أَنَّهُ يَقْبَلُ النُّصْحَ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ فِى الْقَرَابَةِ وَكَانَ صَدِيقًا أَوْ غَيْرَهُ إِذَا رَآهُ يُخَالِطُ الْمُشْرِكِينَ أَوْ يَقُولُ بِقَوْلِهِمْ أَوْ فِعْلِهِمْ أَوْ يَمْدَحُهُمْ أَوْ يُثْنِى عَلَيْهِمْ فَإِنَّ هٰذَا مِمَّنْ تَوَلَّاهُمْ وَاللهُ يَقُولُ (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) فَلْيَرْدَعْهُ مَا اسْتَطَاعَ وَاللهُ وَلِىُّ التَّوْفِيقِ. وَتَمَسَّكُوا بِكِتَابِ رَبِّكُمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّ الْقَابِضَ عَلَى دِينِهِ فِى هٰذِهِ الْأَزْمَانِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ وَعَنْ عَلِىٍّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ أَتَانِى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ أُمَّتَكَ مُخْتَلِفَةٌ بَعْدَكَ قَالَ فَقُلْتُ لَهُ فَأَيْنَ الْمَخْرَجُ

يَا جِبْرِيلُ فَقَالَ كِتَابُ اللهِ تَعَالَى بِهِ يَقْصِمُ اللهُ كُلَّ جَبَّارٍ مَنِ اعْتَصَمَ بِهِ نَجَى وَمَنْ تَرَكَهُ هَلَكَ مَرَّتَيْنِ قَوْلُهُ فَصْلٌ وَلَيْسَ بِالْهَزْلِ لَا تَخْتَلِقُهُ الْأَلْسُنُ وَلَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَفَصْلُ مَا بَيْنَكُمْ وَخَبَرُ مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكُمْ وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَسَنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السُّنَنَ ثُمَّ قَالَ اتَّبِعُونَا فَوَاللهِ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا تَضِلُّوا

(فَصْلٌ) رُوِيَ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَرُوِيَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَوْجَبَ الثَّوَابَ وَاسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ خُلُقٌ يَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ وَوَرَعٌ يَحْجِزُهُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ وَحِلْمٌ يَرُدُّ بِهِ جَهْلَ الْجَاهِلِ) رَوَاهُ الْبَزَّارُ وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْفِقْهُ وَأَفْضَلُ الدِّينِ الْوَرَعُ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ وَرُوِيَ عَنْ نُعَيْمٍ أَنَّهُ قَالَ إِنَّ مِمَّا يُقَسِّي الْقَلْبَ وَيُحْدِثُ الْغَفْلَةَ كَثْرَةُ الْفُضُولِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَتَنْوِيقِ الْمَآكِلِ وَالْمَشْرَبِ فَإِنَّ هٰذِهِ الْأُمُورَ تُحْدِثُ ظُلْمَةَ الْقَلْبِ وَقَسْوَتَهُ خُصُوصًا إِذَا كَانَ الْمَالُ مَشُوبًا بِالْحَرَامِ أَوْ مِنْ شُبْهَةٍ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ إِسْرَافٌ وَمَنْعٌ لِمُسْتَحِقِّهِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَرَأَى شَيْئًا يَشْتَهِيهِ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ كَانَ

لَهُ خَيْرٌ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ يُنْفِقُهَا فِي سَبِيلِ اللهِ

(فَصْلٌ) جَمِيعُ الْخَلْقِ مُسَافِرُونَ إِلَى اللهِ فِي هٰذِهِ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ وَهِيَ أَعْمَارُهُمْ الَّتِي نِسْبَتُهَا لِلدُّنْيَا لَا تَكُونُ نَفَسًا مِنْ أَنْفَاسِهَا فَإِنَّ حَيَاةَ الْعَبْدِ قَلِيلَةٌ كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ) وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يُجَاوِزُ ذٰلِكَ فَإِذَا عَرَفْتَ نَفْسَكَ وَعُمُرَكَ الْقَلِيلَ الَّذِي لَا يَكُونُ نَفَسًا مِنْ أَنْفَاسِ الدُّنْيَا مَعَ أَنَّ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا لَا تَكُونُ نَفَسًا مِنْ أَنْفَاسِ الْآخِرَةِ فَكَيْفَ لَا تَرْعَوِي أَيُّهَا الْعَبْدُ وَتَتَأَمَّلُ مَصِيرَكَ بَعْدَ هٰذِهِ الْبُرْهَةِ الْيَسِيرَةِ الَّتِي فِيهَا تَمَتَّعْتَ بِأَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ مِنَ الْمَأْكُولَاتِ وَالْمَلْذُوذَاتِ وَالْمَنَاصِبِ وَغَيْرِهَا مِمَّا تَشْتَاقُ لَهُ النُّفُوسُ وَتَزَاحَمُ عَلَيْهِ فَإِذَا تَأَمَّلْتَ هٰذَا وَعَرَفْتَ أَنَّهُ زَائِلٌ لَا مَحَالَةَ فَحَقِيقٌ بِكَ أَنْ تَتُوبَ إِلَى رَبِّكَ وَتَجِدَّ فِي سَيْرِكَ وَتُهَاجِرَ بِقَلْبِكَ وَقَالَبِكَ وَجَوَارِحِكَ وَجَمِيعِ أَعْمَالِكَ فَإِنَّهُ

يُسَارُ بِكَ وَأَنْتَ عَلَى بِسَاطِكَ جَالِسٌ فَاتَّقِ اللهَ وَالْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَافِرْ إِلَيْهِ مَادَامَ فِى الْعُمُرِ فُسْحَةٌ لَعَلَّكَ تَسْتَعْتِبُ مَافَاتَ قَبْلَ الْوَفَاةِ

(فَصْلٌ) قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ وَأَمَّا الْهِجْرَةُ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعِلْمٌ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ سِوَى اسْمِهِ وَمَنْهَجٌ لَمْ تَتْرُكْ بُنَيَّاتُ الطَّرِيقِ سِوَى رَسْمِهِ وَمَحَجَّتُهُ سَفَتْ عَلَيْهَا السَّوَافِى فَطَمَسَتْ رُسُومَهَا وَغَارَتْ عَلَيْهَا الْأَعَادِى فَغَوَّرَتْ مَنَاهِلَهَا وَعُيُونَهَا فَسَالِكُهَا غَرِيبٌ بَيْنَ الْعِبَادِ فَرِيدٌ بَيْنَ كُلِّ حَىٍّ وَنَادٍ بَعِيدٌ عَلَى قُرْبِ الْمَكَانِ وَحِيدٌ عَلَى كَثْرَةِ الْجِيرَانِ مُسْتَوْحِشٌ فِيمَا بِهِ يَسْتَأْنِسُونَ مُسْتَأْنِسٌ مِنْ مَا بِهِ يَسْتَوْحِشُونَ مُقِيمٌ إِذَا ظَعَنُوا ظَاعِنٌ إِذَا قَطَنُوا مُنْفَرِدٌ فِى طَرِيقِ طَلَبِهِ لَا يَقِرُّ قَرَارُهُ حَتَّى يَظْفَرَ بِأَرَبِهِ فَهُوَ الْكَائِنُ مَعَهُمْ بِجَسَدِهِ الْبَائِنُ مِنْهُمْ بِمَقْصِدِهِ نَامَتْ عَنْ طَلَبِ الْهُدَى أَعْيُنُهُمْ وَمَا لَيْلُ مَطِيَّتِهِ بِنَائِمٍ وَقَعَدُوا عَنِ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَهُوَ فِى طَلَبِهَا مُشَمِّرٌ قَائِمٌ يَعِيبُونَهُ بِمُخَالَفَتِهِ آرَائَهُمْ

وَيَزْرُونَ عَلَيْهِ إِزْرَاءً عَلَى جَهَالَاتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ قَدْ رَجَمُوا فِيهِ الظُّنُونَ وَأَحْدَقُوا فِيهِ الْعُيُونَ وَتَرَبَّصُوا بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَـٰذِهِ الْهِجْرَةَ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَهِيَ مُقْتَضَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ كَمَا أَنَّ الْهِجْرَةَ الَّتِي هِيَ جِهَادُ الْكُفَّارِ هِيَ مُقْتَضَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَفِي هَاتَيْنِ الْهِجْرَتَيْنِ يُسْأَلُ كُلُّ عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي الْبَرْزَخِ وَيُطَالَبُ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَدَارِ الْبَرْزَخِ وَدَارِ الْقَرَارِ قَالَ قَتَادَةُ كَلِمَتَانِ يُسْأَلُ عَنْهُمَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ وَمَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ وَهَاتَانِ هُمَا مَضْمُونُ الشَّهَادَتَيْنِ

(فَصْلٌ) قَدْ أَخْبَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ لِإِبْلِيسَ طَاعَةٌ فِيمَا يَحْتَقِرُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَيَرْضَى بِهَا لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهَا سَتَكُونُ مِفْتَاحًا لِلشُّرُورِ عَظِيمَةً يُدْخِلُهَا عَلَيْهِمْ وَهُمْ مُسْتَصْغِرُونَ

لَهَا ومُعْظَمُ النَّارِ من مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ ومَنْ ذٰلِكَ المَعَازِفُ والمَغَانِي وَالمَلَاهِي ومَا يَتْبَعُ ذٰلِكَ مِنْ مَا يَجْعَلُهُ للمُسْلِمِينَ فِي قَالِبِ المُبَاحِ وَهُوَ أَسَاسُ الشَّرِّ وخَبِيثَةُ عَدُوِّ اللهِ لَهُمْ حَيْثُ حَسَّنَ لَهُمُ الشَّهَوَاتِ وَيَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ المُحَرَّمَاتِ وَالقُلُوبُ إذَا وَصَلَتْ إِلَى هٰذِهِ الغَايَةِ نَكَسَتْ عَلَى رُؤُوسِهَا فَصَارَ البَاطِلُ حَقًّا وَالحَقُّ بَاطِلًا وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ هَلَكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ يَعْرِفُ بِهِ المَعْرُوفَ وَيُنْكِرُ بِهِ المُنْكَرَ وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (إِنَّ الشَّيْطَانَ تَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِيمَا يُحَقِّرُهُ المُسْلِمُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ) فَيَرْضَى بِهَا لِأَنَّهَا تَكُونُ مِفْتَاحًا لِلشُّرُورِ وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ صِغَرِ الشَّرَرِ كَمَا تَقَدَّمَ وَمِنْ ذٰلِكَ مَا قَدْ فُتِنَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ اللَّهْوِ وَالغِنَاءِ وَأَشْبَاهِهِمَا مِمَّا قَدْ يُدْخِلُهُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِمْ فَيَجُرُّهُمْ بِهَا إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا فَإِنَّهُمْ قَدْ دَخَلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى وَهٰذِهِ وَصْمَةٌ عَظِيمَةٌ وَمُعْضِلَةٌ كَبِيرَةٌ وَقَدْ قَالَ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَلَا بِالنَّصَارَى فَانَّ سَلَامَ الْيَهُودِ بِالْاشَارَةِ وَسَلَامَ النَّصَارَى بِالْاَكُفِّ فَاذَا كَانَ هٰذَا النَّهْيُ فِى مُشَابَهَتِهِمْ فِى نَفْسِ التَّسْلِيمِ فَكَيْفَ الْحَالُ بِمَنْ وَافَقَهُمْ فِى كُلِّ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَهَيآتِهِمْ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ

(فَصْلٌ) وَمِمَّا فُتِنَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَا قَدْ حَسَّنَهُ الشَّيْطَانُ لَهُمْ مِنِ اسْتِمَاعِ الْمَلَاهِى وَالْمُحَرَّمَاتِ مِنَ السِّينَمَا وَالرَّادْيُو مَعَ مَا يُنْظَمُ إِلَى ذٰلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُحَرَّمَةِ الَّتِى تُلْهِى عَنْ طَاعَةِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتِ وَتُوجِبُ حُلُولَ النِّقَمِ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ وَالْمِحَنِ وَالْبَلِيَّاتِ الَّتِى لَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهَا إِلَّا بِطَاعَةِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ بِالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ وَالتَّضَرُّعِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالابْتِهَالِ إِلَيْهِ وَفِى حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ الَّذِى قَالَ لَهُ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِى الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِى الشِّدَّةِ) يَعْنِى تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِى

حَالَ صِحَّتِكَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْعَمَلِ يَعْرِفْكَ فِي حَالِ شِدَّتِكَ وَفَقْرِكَ
فَيَكْشِفُ عَنْكَ مَا أَهَمَّكَ فِي حَالِ الضِّيقِ بِأَنْ يَجْعَلَ لَكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا
مِنَ الْمَضَائِقِ كُلِّهَا وَأَمَّا تَضَرُّعُكَ فِي حَالِ الشِّدَّةِ وَإِعْرَاضُكَ عَنِ
امْتِثَالِ أَمْرِهِ فِي حَالِ رَخَائِكَ فَهَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَقَالَ قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الَّذِي
قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّهُ يُبْعَثُ أُمَّةً وَاحِدَةً) أَبْلَغُ الْعِظَاتِ
السَّيْرُ فِي الْفَلَوَاتِ وَالنَّظَرُ إِلَى الْأَمْوَاتِ وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
طُوبَى لِمَنْ كَانَ قِيلُهُ تَذَكُّرًا وَصَمْتُهُ تَفَكُّرًا وَنَظَرُهُ عِبَرًا وَقَالَ عُمَرُ بْنُ
عَبْدِ الْعَزِيزِ الْكَلَامُ بِذِكْرِ اللهِ حَسَنٌ وَالْفِكْرَةُ فِي نِعَمِ اللهِ أَفْضَلُ
الْعِبَادَةِ وَمَرَّ رَجُلٌ بِرَاهِبٍ عِنْدَ مَقْبَرَةٍ وَمَزْبَلَةٍ فَنَادَاهُ فَقَالَ يَا رَاهِبُ
إِنَّ عِنْدَكَ كَنْزَيْنِ مِنْ كُنُوزِ الدُّنْيَا لَكَ فِيهِمَا مُعْتَبَرٌ كَنْزُ الرِّجَالِ وَكَنْزُ
الْأَمْوَالِ انْتَهَى مِنْ كَلَامِ ابْنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ وَمَعْنَى كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ

للرّاهب ووصفه الكنزين من أنّ كنز الرّجال هي هذه المقبرة بعد القصور يعني أنّ هذا آخر أمرهم ومصيرهم وكنز الأموال هي هذه المزبلة الّتي هي فتنتهم هذا بقيت ما حصلوا منها فالّذي أنفقوا هذا عاقبته والّذي تركوا صار لغيرهم وصار الحساب عليهم ففنيت لذّاته وبقيت تبعاته وعن ابن عمر أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول أين أهلك ثمّ يرجع إلى نفسه فيقول كلّ شيء هالكٌ إلّا وجهه وعن ابن عبّاس أنه قال ركعتان مقتصدتان في تفكّر خيرٌ من قيام ليلة والقلب ساهي وقال الحسن البصريّ يا ابن آدم كل في ثلث بطنك واشرب في ثلثه ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة وقال بعض الحكماء من نظر إلى الدّنيا بغير الحكمة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة وقال بشر بن الحارث الحافي لو تفكّر النّاس في عظمة الله لما

عَضُو، وَقَالَ الْحَسَنُ عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْس قَالَ سَمِعْتُ غَيْرَ وَاحِد وَلَا اثْنَيْنِ وَلَا ثَلَاثَة مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُونَ أَنَّ ضِيَاءَ الْإِيمَانِ أَوْ نُورَ الْإِيمَانِ التَّفَكُّرُ وَعَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ يَا ابْنَ آدَمَ الضَّعِيفَ اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَكُنْ فِى الدُّنْيَا ضَعِيفًا وَاتَّخِذِ الْمَسَاجِدَ بَيْتًا وَعَلِّمْ عَيْنَيْكَ الْبُكَاءَ وَجَسَدَكَ الصَّبْرَ وَقَلْبَكَ الْفِكْرَ وَلَا تَهْتَمَّ بِرِزْقِ غَدٍ وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ بَكَى يَوْمًا بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ فَكَّرْتُ فِى الدُّنْيَا وَلَذَّتِهَا وَشَهَوَاتِهَا فَاعْتَبَرْتُ مِنْهَا بِهَا فَلَا تَكَادُ شَهَوَاتُهَا تَنْقَضِى حَتَّى تُكَدِّرَهَا مَرَارَتُهَا وَلَانْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا عِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ أَنَّ فِيهَا مَوَاعِظَ لِمَنِ ادَّكَرَ. وَعَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (الْعَارُ وَالْخِزْىُ يَبْلُغُ مِنِ ابْنِ آدَمَ فِى الْقِيٰمَةِ فِى الْمُقَامِ بَيْنَ يَدَىِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَا يَتَمَنَّى الْعَبْدُ أَنْ يُؤْمَرَ بِهِ إِلَى النَّارِ) يَعْنِي وَاللهُ أَعْلَمُ وَلَا يَسْمَعُ الْخَلَائِقُ بِهٰذَا الْخِزْيِ الْفَظِيعِ مِنْ نَشْرِ مَخَازِيهِ وَمَعَاصِيهِ بَيْنَ النَّاسِ عَلَانِيَةً

(فَصْلٌ) فِي التَّحْذِيرِ مِنَ التَّبَاهِي وَالتَّطَاوُلِ فِي الْبُنْيَانِ وَأَنَّهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَأَنَّهُ لَا يَتَطَاوَلُ فِيهَا وَلَا يَتَنَافَسُ فِيهَا إِلَّا أَسَاقِطُ الْخَلْقِ وَأَسَافِلُهُمْ وَأَنَّهُمُ الْعَالَةُ مِنَ النَّاسِ وَأَنَّهُ يُدَالُ لِأَسَافِلِ النَّاسِ وَضَعَفَتِهِمْ وَأَوْبَاشِهِمْ عَلَى أَشْرَافِهِمْ حَتَّى يَتَقَدَّمَ أَرَاذِلُهُمْ عَلَى أَشْرَافِهِمْ وَفِي بَيَانِ حَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَتَجَافِيهِمْ عَنِ الدُّنْيَا وَامْتِثَالِهِمْ لِأَمْرِ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ رَوَى أَبُو دَاوُودَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمًا وَنَحْنُ مَعَهُ فَرَأَى قُبَّةً مُشْرِفَةً فَقَالَ مَا هٰذِهِ قَالَ أَصْحَابُهُ هٰذِهِ لِفُلَانٍ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ

فَسَكَتَ وَحَمَلَهَا فِى نَفْسِهِ حَتَّى إِذَا جَاءَ صَاحِبُهَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِى النَّاسِ فَأَعْرَضَ عَنْهُ صَنَعَ ذٰلِكَ مِرَارًا حَتَّى عَرَفَ الرَّجُلُ الْغَضَبَ فِيهِ وَالْإِعْرَاضَ عَنْهُ فَشَكَا ذٰلِكَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ وَاللهِ إِنِّى لَأُنْكِرُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا خَرَجَ يَوْمًا فَرَأَى قُبَّتَكَ فَرَجَعَ إِلَى قُبَّتِهِ فَهَدَمَهَا حَتَّى سَوَّاهَا بِالْأَرْضِ فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَلَمْ يَرَهَا قَالَ مَا فَعَلَتِ الْقُبَّةُ قَالُوا شَكَا إِلَيْنَا صَاحِبُهَا إِعْرَاضَكَ عَنْهُ فَأَخْبَرْنَاهُ فَهَدَمَهَا فَقَالَ أَمَا إِنَّ كُلَّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ إِلَّا مَا لَا يُكَرِّرُهَا تَنْبِيهًا لَهُمْ عَلَى وَخِيمِ عَاقِبَةِ ذٰلِكَ وَأَنَّهُ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ فِى الْآخِرَةِ بِوِزْرِهِ وَفِى الدُّنْيَا بِهَمِّهِ وَغَمِّهِ وَمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْأَذَى فِى طَلَبِهِ وَكَسْبِهِ وَمِنْهَا أَنَّهُ إِسْرَافٌ وَتَبْذِيرٌ وَإِنْفَاقٌ لِلْمَالِ فِى غَيْرِ مَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ بِالْإِنْفَاقِ وَمِنْهَا أَنَّهُ حُرِمَ أَجْرَهُ وَمِنْهَا عِصْيَانُهُ لِرَبِّهِ حَيْثُ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَهِ عَمَّا نَهَاهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهٰذَا فِى الْحَدِيثِ الآخَرِ كُلُّ مَا كَانَ هٰكَذَا يَعْنِى الزِّيَادَةُ عَلَى الْكِفَايَةِ فَهُوَ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ وَفِى الْحَدِيثِ الَّذِى رَوَاهُ الطَّبَرَانِىُّ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ أَنَّ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِبَيْتٍ أَوْ قُبَّةٍ لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ مَا هٰذِهِ قَالُوا قُبَّةٌ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ بِنَاءٍ وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى رَأْسِهِ أَكْثَرَ مِنْ هٰذَا فَهُوَ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَعَنْ عَمَّارِ بْنِ (١) عَامِرٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ بِنَاءَهُ فَوْقَ سَبْعِ أَذْرُعٍ نُودِىَ يَا أَفْسَقَ الْفَاسِقِينَ إِلَى أَيْنَ رَوَاهُ ابْنُ أَبِى الدُّنْيَا مَوْقُوفًا عَلَيْهِ قَالَ بَعْضُهُمْ فِى قَوْلِهِ إِلَّا مَا لَا بُدَّ مِنْهُ أَىْ إِلَّا مَا لَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْهُ مِمَّا يَقِيهِ عَنِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالسِّبَاعِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ وَرَوَى الطَّبَرَانِىُّ أَيْضًا عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ

(١) لعله ابن ياسر

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ بُنْيَانٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ إِلَّا مَا كَانَ هٰكَذَا وَأَشَارَ بِكَفَّيْهِ وَكُلُّ عِلْمٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ بِهِ وَرَوَاهُ فِي الْأَوْسَطِ وَعَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ هَوَانًا أَنْفَقَ مَالَهُ فِي الْبُنْيَانِ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ بَنَى فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ كُلِّفَ أَنْ يَحْمِلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي سَنَدِهِ انْقِطَاعٌ وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ أَنَّ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَنَى غُرْفَةً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اهْدِمْهَا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَهْدِمُهَا وَأَتَصَدَّقُ بِثَمَنِهَا فَقَالَ اهْدِمْهَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَفِي الْمَرَاسِيلِ وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ يُؤْجَرُ الرَّجُلُ فِي نَفَقَتِهِ كُلِّهَا إِلَّا فِي التُّرَابِ أَوْ قَالَ الْبُنْيَانِ وَرُوِيَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّفَقَةُ كُلُّهَا فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا الْبِنَاءَ فَلَا خَيْرَ

فيه وعن عطية بن قيس رضى الله عنه قال كانت حجر أزواج
رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد النخل فخرج النبي صلى الله
عليه وسلم فى مغزى له وكانت أم سلمة موسرة فجعلت مكان الجريد
لبنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما هذا قالت أردت أن أكف
عنى أبصار الناس فقال يا أم سلمة إن شر ما ذهب فيه مال المسلم
البنيان رواه أبو داود وعن الحسن رضى الله عنه قال لما بنى رسول
الله المسجد قال ابنوه عريشا كعريش موسى قيل للحسن وما
عريش موسى قال إذا رفع يده بلغ العريش يعنى السقف

(فصل) ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (ما من خارج
يخرج من بيته إلا ببابه رايتان راية بيد ملك وراية بيد شيطان
فان خرج لما يحب الله عز وجل أتبعه الملك برايته وإن خرج
لما يسخط الله أتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان

حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالْبَيْهَقِيُّ وَالطَّبَرَانِيُّ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى (لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا) الآيَةَ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ وَفَضْلِهِ وَجَلَالِهِ وَأَنَّهُ لَوْ خُوطِبَ بِهِ صُمُّ الْجِبَالِ لَتَصَدَّعَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَاءِهِ فَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ حَالُ الْجِبَالِ وَهِيَ الْحِجَارَةُ وَهُوَ تَصَدُّعُهَا وَخَشْيَتُهَا وَتَدَكْدُكُهَا مِنْ جَلَالِ رَبِّهَا وَعَظَمَتِهِ فَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِنْ مُضْغَةِ لَحْمٍ كَانَتْ أَقْسَى مِنْ هٰذِهِ الْجِبَالِ الَّتِي تَتَصَدَّعُ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهَا وَهٰذِهِ الْقُلُوبُ الْقَاسِيَةُ الَّتِي لَا تَرْعَوِي وَلَا تَرْتَدِعُ وَهِيَ تَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهَا فَلَا تَخْشَعُ وَلَا تُنِيبُ فَلَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ عَلَى اللهِ أَنْ يُذِيقَهَا عَذَابَهُ وَعِقَابَهُ فَلَا يُخَالِفُ حِكْمَتَهُ أَنْ يَخْلُقَ لَهَا نَارًا تُذِيبُهَا إِذَا لَمْ تَلِنْ بِكَلَامِهِ وَزَوَاجِرِهِ وَمَوَاعِظِهِ فَمَنْ لَمْ يَلِنْ قَلْبُهُ للهِ فِي هٰذِهِ الدَّارِ وَلَمْ يَتُبْ إِلَيْهِ وَيَخْشَعْ لَدَيْهِ وَيَتَضَرَّعْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَالْيَتَمَتَّعْ قَلِيلًا فَإِنَّ أَمَامَهُ الْمُهْلِينَ

الأعظم كما قال تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) وقال تعالى (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) وقال صلى الله عليه وسلم (لو أن خازنا من خزان جهنم أشرف على الأرض لمات أهل الأرض مما يرونه من تشويه خلقه) وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه تلى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) وعنده بعض أصحابه وفيهم شيخ فقال الشيخ يا رسول الله حجارة جهنم كحجارة الدنيا فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا كلها فوقع الشيخ مغشيا عليه فوضع النبى صلى الله عليه وسلم يده على فؤاده فاذا هو حى فناداه يا شيخ قل لا إله إلا الله فقالها فبشره بالجنة وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (من ألف المسجد

أَلْفَهُ اللهُ) رَوَاهُ الطَّبَرَانِىُّ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ مَرِضَ بَعْضُ الْعِبَادِ فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ نَعُودُهُ فَجَعَلَ يَتَأَسَّفُ فَقُلْتُ لَهُ عَلَى مَاذَا أَنْتَ تَتَأَسَّفُ فَقَالَ عَلَى لَيْلَةٍ نِمْتُهَا وَيَوْمٍ أَفْطَرْتُهُ وَسَاعَةٍ غَفَلْتُ فِيهَا عَنْ ذِكْرِ اللهِ اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لِعِبَادِكَ وَأَنْظِمْنَا فِى سِلْكِ أَوْلِيَائِكَ الْمُقَرَّبِينَ الْأَبْرَارِ وَآتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ابْنَ آدَمَ يَا مَنْ كُلَّمَا زَانَ شَانَ يَا مَنْ أَكْثَرَ الذُّنُوبَ وَمَا تَابَ يَا مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ الْمَوْتُ وَالْحِسَابُ وَالتَّوْبِيخُ الشَّدِيدُ وَالْعِقَابُ وَكُلَّمَا عُوتِبَ خَرَجَ مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ، أَفِقْ فَقَدْ دَنَا الْمَوْتُ وَاقْتَرَبَ الْحِسَابُ وَأَنْتَ فِى لَهْوِكَ وَغَفْلَتِكَ كَالْمُرْتَابِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ

فَائِدَةٌ : الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ وَوَحْيُهُ وَالْغِنَاءُ وَحْىُ الشَّيْطَانِ وَهُمَا فِى قَلْبِ مُؤْمِنٍ لَا يَجْتَمِعَانِ وَقَدْ أَقْبَلَ النَّاسُ إِلَّا الْقَلِيلُ عَلَى الْمَجَلَّاتِ وَالْجَرَائِدِ وَالْمَلَاهِى مِنَ الرَّادْيُوَاتِ مَعَ مَا يَنْضَمُّ إِلَى ذَلِكَ مِمَّا يَصُدُّ

عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ فَهُمْ يَخْلِطُونَ عَلَى النَّاسِ وَيُلَبِّسُونَ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ فَتَارَةً بِاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ فِي الرَّادْيُو وَتَارَةً بِاللَّهْوِ بِالْاذَاعَاتِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا فَائِدَةٌ وَلَا تَعُودُ بِنَفْعٍ بَلْ رُبَّمَا تَصِيرُ فَتْحًا لِأَبْوَابِ الشَّرِّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ إِمَّا بِالْإِرْجَافِ أَوْ مَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ أَوْ تَخْذِيلٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَتَارَةً بِكَلَامِ أَهْلِ الْمُجُونِ وَالْفُسُوقِ وَمَرَّةً يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ بِالْأَلْحَانِ وَالتَّطْرِيبَاتِ وَمَرَّةً بِالْغِنَاءِ فَهَلْ هَذَا إِلَّا اسْتِهْزَاءٌ وَتَنَقُّصٌ لِكَلَامِ اللهِ وَسَفْسَطَةٌ عَلَى عُمْيِ الْبَصَائِرِ لِيُرَوِّجُوا عَلَيْهِمْ بِتَلْبِيسِهِمُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) فَقَدْ نَهَى سُبْحَانَهُ عَنِ الْقُعُودِ مَعَهُمْ وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ قَعَدَ مَعَهُمْ فَهُوَ مِثْلُهُمْ فِي الْإِثْمِ وَمِثْلُهُمْ فِي عَدَمِ تَنْزِيهِ

كَلَامَ اللهِ عَنْ مَزَامِيرِ الشَّيطَانِ وَإِنَّ هٰذَا مِنْ أَقْبَحِ الْأَفْعَالِ الذَّمِيمَةِ وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْعُلَمَاءُ بِهٰذِهِ الآيَةِ عَلَى أَنَّ الرَّاضِي بِالذَّنْبِ كَفَاعِلِهِ وَقَدْ قَالَ النَّوَوِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى وُجُوبِ صِيَانَةِ الْقُرْآنِ وَاحْتِرَامِهِ وَتَعْظِيمِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ انتهى فَالَّذِي يَجْعَلُ الْقُرْآنَ فِي آلَاتِ اللَّهْوِ مَعَ كَلَامِ الشَّيْطَانِ وَبِالْأَصْوَاتِ الْمُوسِيقِيَّةِ مَا عَظَّمَهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ وَلَا عَرَفَ حَقَّهُ وَحُرْمَتَهُ وَأَنَّ فَضْلَهُ عَلَى كَلَامِ الْخَلْقِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ وَكَثِيرٌ مِنَ السُّفَهَاءِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْمُجُونِ وَالْفِسْقِ وَقِلَّةِ الْمُبَالَاتِ بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ بَلْ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُدَّعِينَ لِلْمَعْرِفَةِ قَدْ يَشْتَاقُونَ لِهٰذِهِ الْقِرَاءَاتِ الْمُلَحَّنَةِ وَالْمُطْرِبَةِ وَيَرَوْنَهَا جَائِزَةً هٰذَا مِنْ بَعْضِ الْمُنْتَسِبِينَ لِلْمَعْرِفَةِ وَأَمَّا فُسَّاقُهُمُ الْمُتَمَرِّدُونَ فَهُمْ يَفْعَلُونَ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ الْتِفَاتٍ لِحِلِّهِ وَحُرْمَتِهِ بَلْ مَاقَدَرُوا عَلَيْهِ وَاشْتَهَتْ نُفُوسُهُمْ فَعَلُوهُ وَإِنْ كَانَ كُفْرًا وَقَدْ جَعَلَتْ

الأمة القضية أنموذجا من القرآن فى إذاعتها بل وجميع دول
الضلال يرغبون فساق أهل الإسلام فيما هم فيه من الكفر دعاية
إلى دينهم فالنصرانى إلى نصرانيته واليهودى إلى يهوديته وهكذا
طوائف أهل الضلال يدعون إلى دينهم بأى طريق يرونه يقبله كل
فاسق متسم بالإسلام ولم يأنف هذا الفاسق كما أنف هذا الكافر
لدينه وهو على الكفر وهذا الفاسق لم يكن له حمية دينية لدينه
المحمدى حتى ولا عصبية لما هو متسم به فالله المستعان ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا
وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب

(فصل) فى فضل الصدقة فى وجوه البر وبيان الإثم على من
سأل متكثرا بمسألة وأنها كد يكد بها الرجل وجهه روى الطبرانى
فى المعجم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (ما نقصت صدقة من مال

وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بعفوٍ إلَّا عزًّا وما تواضعَ أحدٌ للهِ إلا رفعه)
الحديث وفي حديث آخر وما مدَّ عبدٌ يده بصدقة إلَّا أُلقيتْ في
يد الله قبل أنْ تقع في يد السَّائل وما فتح عبدٌ باب مسألة له غنى
عنها إلَّا فتح الله له باب فقرٍ والعبدُ مأمورٌ بالتعفُّف عن النَّاسِ وما
في أيديهم فإنَّ المسألة كدٌّ يكدُّ بها الرجل نفسه والعبدُ مجبولٌ على
الميل إلى الدُّنيا ومطامعها إلَّا من عصمه الله ويقولُ العبدُ مالي مالي
وإنَّما له من ماله ما أكل فأفنى ولبس فأبلى أو أعطى فأبقى وما سوى
ذلك فهو ذاهبٌ وتاركه للنَّاس وفي بعض الأحاديث أنَّ رجلًا
قال يارسول الله أيُّ الصدقة أفضل قال سقيُ الماء وفي حديث آخر
سبع تجري للعبد بعد موته وهو في قبره من علَّم علمًا أو كرى نهرًا
أو حفر بئرًا أو غرس نخلًا أو بنى مسجدًا أو ورَّث مصحفًا أو
ترك ولدًا يستغفرُ له بعد موته وفي رواية أو غرس نخلًا أو بنى

بَيْتًا لابْنِ السَّبِيلِ وَاعْلَمُوا أَنَّ مِنَ الْكَبَائِرِ سُؤَالُ الْغَنِيِّ وَكَسْبُ الصَّدَقَةِ طَمَعًا وَتَكَثُّرًا وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ مَنْ سَأَلَ مِنْ غَيْرِ فَقْرٍ فَكَأَنَّمَا يَأْكُلُ الْجَمْرَ وَرُوِيَ مَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ مِنْ غَيْرِ فَاقَةٍ نَزَلَتْ بِهِ أَوْ عِيَالِهِ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَاقَةٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمِنَ الْكَبَائِرِ الْإِلْحَاحُ فِي السُّؤَالِ الْمُؤْذِي لِلْمَسْؤُولِ وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ فِي وَجْهِهِ خُدُوشٌ أَوْ كُدُوحٌ.

(فَصْلٌ) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيُّ فِي التَّبْصِرَةِ النَّاسُ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَوْتِ عَلَى ضَرْبَيْنِ أَحَدُهُمَا أَهْلُ الْغَفْلَةِ فَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَذْكُرُهُ فَإِنْ عَرَضَ لَهُ ذِكْرُهُ صَرَفَ ذَلِكَ عَنْ قَلْبِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا عَرَضَ لَهُ ذِكْرُهُ حَزِنَ لِفِرَاقِ الدُّنْيَا وَمَلْذُوذَاتِهَا فَهَذَانِ دَاخِلَانِ فِي حِزْبِ الْغَافِلِينَ الْجَاهِلِينَ وَالثَّانِي أَهْلُ الْيَقْظَةِ وَهُمْ مُنْقَسِمُونَ إِلَى خَائِفٍ مِنْهُ إِمَّا بِالطَّبْعِ وَإِمَّا

لأَنَّهُ لَا يَرْضَى عَمَلَهُ وَإِمَّا لِأَنَّهُ بَابُ جَزَاءِ الْأَعْمَالِ فَإِنَّ آدَمَ كَرِهَ الْمَوْتَ وَالْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَرِهَ الْمَوْتَ وَمُوسَى لَطَمَ عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ لِكَرَاهِيَتِهِ الْمَوْتَ وَكَانَ ابْنُ سِيرِينَ إِذَا ذُكِرَ الْمَوْتُ مَاتَ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُ عَلَى حِدَتِهِ وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِذَا ذُكِرَ الْمَوْتُ اضْطَرَبَتْ أَوْصَالُهُ وَانْتَفَضَ انْتِفَاضَ الطَّيْرِ وَكَانَ دَاوُدُ إِذَا ذُكِرَ الْمَوْتُ وَالْقِيَامَةُ بَكَى حَتَّى تَخْلَعَ أَوْصَالُهُ فَإِذَا ذُكِرَ الرَّحْمَةُ رَجَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَقَالَ حُذَيْفَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ لَا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِيُصَحِّحَ الْعَمَلَ فَالشِّدَّةُ الْأُولَى تَقْوَى فِي حَقِّ الْغَافِلِينَ وَهِيَ مُفَارَقَةُ الْمَالِ وَالْوَلَدِ وَهِيَ خَفِيفَةٌ عِنْدَ الْمُسْتَيْقِظِينَ لِاشْتِغَالِهِمْ بِمَا هُوَ أَهَمُّ وَالشِّدَّةُ الثَّانِيَةُ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْأَعْمَالِ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ لَيْسَ مِنْ مَيِّتٍ إِلَّا مُثِّلَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ أَعْمَالُهُ الْحَسَنَةُ وَأَعْمَالُهُ السَّيِّئَةُ فَيَشْخَصُ إِلَى حَسَنَاتِهِ وَيَطْرِقُ عَنْ

سَيِّئَاته وَقَالَ مُجَاهِدُ مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا عُرِضَ عَلَيْهِ جُلَسَاؤُه إِنْ كَانُوا أَهْلَ ذِكْرٍ وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ لَهْوٍ وَالشِّدَّةُ الثَّالِثَةُ حَسَرَاتُ الْفَوْتِ حِينَ لَا يُمْكِنُ الِاسْتِدْرَاكُ عَلَى مَافَاتَ وَهَذِه الشِّدَّةُ شِدَّةٌ عَلَى الْمُتَيَقِّظِينَ وَيُقَالُ إِنَّ الْمَيِّتَ يَقُولُ لِمَلَكِ الْمَوْتِ أَخِّرْنِي يَوْمًا فَيَقُولُ ذَهَبَتِ الْأَيَّامُ فَيَقُولُ أَخِّرْنِي سَاعَةً فَيَقُولُ ذَهَبَتِ السَّاعَاتُ قَالَ قَتَادَةُ وَاللهِ مَا يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلٍ وَلَا عَشِيرَةٍ وَلَكِنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ وَالشِّدَّةُ الرَّابِعَةُ مُعَايَنَةُ مَلَكِ الْمَوْتِ وَهِيَ حَالَةٌ عَظِيمَةٌ فَظِيعَةٌ وَإِنَّ الْحَكِيمَ الْعَلِيمَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ يَتَحَسَّرُ عِنْدَ احْتِضَارِ ذَلِكَ الْمَصْرَعِ وَأَنَّ إِبْلِيسَ عَدُوَّ اللهِ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعَبْدِ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ عِنْدَ فِرَاقِ الدُّنْيَا وَتَرْكِ الْأَحِبَّةِ قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ لَوْ أَنَّ الْمَيِّتَ نُشِرَ فَأَخْبَرَ أَهْلَ الدُّنْيَا بِأَلَمِ الْمَوْتِ مَا انْتَفَعُوا بِعَيْشٍ وَلَا لَذُّوا بِنَوْمٍ وَسُئِلَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ مَا بَالُ

الْمَيِّتِ تنزع نفسه وهو ساكت وابْنُ آدم يضطرب من الْقَرْصَة فقال إنَّ الْمَلَائكة توثقه والشدة السادسة رؤية المجرمين مواضعهم من النار ومقاعدهم فيها فتتقطع نفوسهم حسرات على ما فرطوا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم الاساء مايزرون وقال على رضى الله عنه ما تخرج نفس ابن آدم حتى يعلم مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار وبكى إبراهيم النخعى عند الموت فقيل ما يبكيك قال أنتظر رسل ربى هل يؤمر بى إلى الجنة أو إلى النار وقد روى أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله قالوا وكيف يستعمله قال يوفقه للعمل الصالح قبل موته وعن أنس أيضا قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على

رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ
اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا
كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ عَلَى الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ
السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ
الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ
مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ
اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ قَالَ فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ
الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ
عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ
وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قَالَ
فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذِهِ
الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا

يَمُرُّونَ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللهُ أَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى قَالَ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِيَ الإِسْلَامُ فَيَقُولَانِ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ اللهِ فَيَقُولَانِ وَمَا عِلْمُكَ فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوا لَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ قَالَ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ

تُوعَدُ فيقولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ فوجهكَ الَّذى يجىءُ بالخَير فيقولُ أَنَا عملكَ الصَّالح فيقولُ ربى أقم السَّاعة حتَّى أرجعَ إلى أهلى ومالى قال وإنَّ العبدَ الكافرَ إذا كانَ فى انقطاعٍ من الآخرة وإقبالٍ من الدُّنْيا نَزَلَ إليه من السَّماءِ ملائكةٌ سودُ الوجوه معهم المسوحُ فيجلسونَ منه مدَّ البصرِ ثمَّ يجىءُ مَلَكُ الموْت فيجلس عند رأسه فيقولُ أيَّتها النفسُ الخبيثةُ اخرجى إلى سَخَطٍ من الله وغضبٍ قال فتغرقُ فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفُّودُ من الصُّوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفةَ عينٍ حتَّى يجعلوها فى تلكَ المسوحِ ويخرج منها كأنتن ريحِ جيفةٍ وُجدت على وجه الأرضِ فيصعدون بها فلا يمرُّون بها على ملأ من الملائكةِ إلَّا قالوا ما هذه الرُّوحُ الخبيثة فيقولونَ هذا فلانُ بنُ فلانٍ بأقبحِ أسمائه الَّتى كانَ يسمَّى بها فى الدُّنيا حتَّى ينتهى بها إلى السَّماءِ الدُّنيا فيستفتحُ له فلا

يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) فيقول الله اكتبوا كتاب عبدى فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما دينك فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه حتى تختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول من أنت فوجهك الذى يجىء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول ربى لا تقم الساعة وفى الصحيحين من

حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ هٰذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَرَوَى الْحَاكِمُ مَنْ زَنَا أَوْ شَرِبَ الْخَمْرَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الْإِيمَانَ كَمَا يَخْلَعُ الْإِنْسَانُ الْقَمِيصَ مِنْ رَأْسِهِ .

(فَصْلٌ) وَمِنَ الْكَبَائِرِ تَرْكُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَهُوَ خَلِيفَةُ اللهِ وَخَلِيفَةُ رَسُولِهِ وَخَلِيفَةُ كِتَابِهِ ذَكَرَهُ فِي رُوحِ الْمَعَانِي .

وَرُوِىَ أَنَّهُ سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ قَالَ (آمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَتْقَاهُمْ وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ) وَفِى بَعْضِ الْأَحَادِيثِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ظَالِمًا لَا يُجِلُّ كَبِيرَكُمْ وَلَا يَرْحَمُ صَغِيرَكُمْ وَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ وَيَسْتَنْصِرُونَ فَلَا يُنْصَرُونَ وَفِى رِوَايَةٍ إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ. وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (إِنَّ لِلْإِسْلَامِ حَدًّا وَمَنَارًا كَمَنَارِ الطَّرِيقِ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِىَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ) الآيَةَ فَقِوَامُ الدِّينِ الْأَمْرُ

بالمعروف والنهى عن المنكر وهو أحد شعائر الاسلام الظاهرة فبحسب القيام به يقوم الدين وبحسب نقصه ينقص.

(فصل) فى فضل الذكر والاستغفار وتأكد ذلك فى كل وقت وكونه من أفضل الأعمال. روى البزار باسناد صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (قال الله تبارك وتعالى يا ابن آدم إذا ذكرتنى خاليا ذكرتك خاليا وإذا ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير من الذين ذكرتنى فيهم) وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الله يقول أنا مع عبدى إذا ذكرنى وتحركت بى شفتاه) رواه ابن ماجة وروى عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة قال (الذاكرون الله كثيرا) قال قلت يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله قال (لو ضرب بسيفه فى

الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَنْكَسِرَ وَيَخْتَضِبَ دَمًا لَكَانَ الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا أَفْضَلَ مِنْهُ دَرَجَةً) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ عَجَزَ مِنْكُمْ عَنِ اللَّيْلِ أَنْ يُكَابِدَهُ وَبَخِلَ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ وَجَبُنَ عَنِ الْعَدُوِّ أَنْ يُجَاهِدَهُ فَلْيُكْثِرْ ذِكْرَ اللهِ) رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ قِيلَ وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا أَنْ يَضْرِبَ بِسَيْفِهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ) الْآيَةَ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ أُنْزِلَتْ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ لَوْ عَلِمْنَا أَيُّ الْمَالِ خَيْرٌ فَنَتَّخِذَهُ فَقَالَ (أَفْضَلُهُ لِسَانٌ ذَاكِرٌ وَقَلْبٌ شَاكِرٌ

وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تعينه عَلَى إيمَانِه . وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَن ابْنِ عَبَّاس
رَضِىَ اللهُ عَنهُمَا أَنَّ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (أَرْبَعٌ مَنْ أُعْطِيَهُنَّ
فَقَدْ أُعْطِىَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قَلْبَاً شَاكِراً وَلِسَاناً ذَاكِراً وَبَدَناً عَلَى
الْبَلَاءِ صَابِراً وَزَوْجَةً لَاتَبْغِيه حَوباً فى نَفْسِهَا وَمَالِه) رَوَاهُ الطَّبَرَانِىُّ
بِاسْنَادٍ جَيِّدٍ وَالْحَوْبَةُ قِيلَ الْحَاجَةُ أَوِ الْاثْمُ . وَفِى الْحَدِيث الآخَرِ
(مَثَلُ الَّذِى يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِى لَا يَذْكُرُ اللهَ مَثَلُ الْحَىِّ وَالْمَيِّتِ) رَوَاهُ
الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنهُمَا قَالَ : قَالَ
رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
إِنَّكُمْ مُرَاؤُنَ) وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنهُ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسِيرُ فِى طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ
فَقَالَ سِيرُوا هَـٰذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ قَالُوا وَمَا الْمُفْرِدُونَ
يَارَسُولَ اللهِ قَالَ الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَفِى لَفْظٍ قَالُوا

يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْمُفْرِدُونَ قَالَ الْمُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ اللهِ يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ فَيَأْتُونَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِفَافًا وَالْمُسْتَهْتَرُونَ بِالْفَتْحِ هُمُ الْمُولَعُونَ بِالذِّكْرِ الْمُدَاوِمُونَ عَلَيْهِ لَا يُبَالُونَ مَا قِيلَ فِيهِمْ وَلَا مَا فُعِلَ بِهِمْ وَفِى الْحَدِيثِ الْآخَرِ مَنْ عَامَلَ الْاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَالذِّكْرُ يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ التَّسْبِيحُ وَالتَّهْلِيلُ وَالصَّلَاةُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَالْمُوَاظَبَةُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ تَعَلُّمِ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمِهِ وَجَمِيعُ التَّطَوُّعَاتِ مِنَ الْقُرَبِ الَّتِى تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ وَتَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ . وَرُوِىَ عَنْ أَبِى ذَرٍّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (مَا مِنْ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِلَّا وَلِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ صَدَقَةٌ يَمُنُّ بِهَا عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَى عَبْدٍ بِأَفْضَلَ مِنْ أَنْ يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ) رَوَاهُ ابْنُ أَبِى الدُّنْيَا وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ وَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ أَىُّ الْمُجَاهِدِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا قَالَ (أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا)

(فَصْلٌ) فِى ذِكْرِ مَا وَرَدَ مِنَ الْآثَارِ مِنْ نَقْضِ عُرَى الْإِسْلَامِ وَظُهُورِ الْبِدَعِ فِى آخِرِ الزَّمَانِ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَخَذَ حَجَرَيْنِ فَوَضَعَ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ هَلْ تَرَوْنَ مَا بَيْنَ هٰذَيْنِ الْحَجَرَيْنِ مِنَ النُّورِ قَالُوا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا نَرَى بَيْنَهُمَا مِنَ النُّورِ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتَظْهَرَنَّ الْبِدَعُ حَتَّى لَا يُرَى مِنَ الْحَقِّ إِلَّا قَدْرَ مَا تَرَوْنَ مِمَّا بَيْنَ هٰذَيْنِ الْحَجَرَيْنِ مِنَ النُّورِ وَاللَّهِ لَتَفْشُوَنَّ الْبِدَعُ حَتَّى إِذَا تُرِكَ مِنْهَا شَىْءٌ قَالُوا تُرِكَتِ السُّنَّةُ. وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ أَخَذَ حَصَاةً بَيْضَاءَ فَوَضَعَهَا فِى كَفِّهِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هٰذَا الدِّينَ قَدِ اسْتَضَاءَ إِضَاءَةَ هٰذِهِ ثُمَّ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَجَعَلَ يَذُرُّهُ عَلَى الْحَصَاةِ حَتَّى وَارَاهَا ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَيَجِيئَنَّ أَقْوَامٌ يَدْفِنُونَ الدِّينَ كَمَا دُفِنَتْ هٰذِهِ الْحَصَاةُ وَلَيَسْلُكُنَّ طَرِيقَ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ

حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ وَحَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَقَالَ ابْنُ وَضَّاحٍ الْخَيْرُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ يَنْقُصُ وَالشَّرُّ يَزْدَادُ وَقَالَ أَيْضًا: إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُوا إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدَيْ قُرَّائِهِمْ وَفُقَهَائِهِمْ وَسَتَهْلِكُ هَٰذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى يَدَيْ قُرَّائِهِمْ وَفُقَهَائِهِمْ وَعَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَقَ شَبَابُكُمْ وَطَغَتْ نِسَاؤُكُمْ وَكَثُرَ جُهَّالُكُمْ قَالُوا وَإِنَّ ذَٰلِكَ كَائِنٌ يَارَسُولَ اللهِ قَالَ وَأَشَدُّ مِنْ ذَٰلِكَ كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَرَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا. وَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ لَأَنْ أَرُدَّ رَجُلًا عَنْ رَأْيٍ سَيِّءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنِ اعْتِكَافِ شَهْرٍ وَقَالَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ لَأَنْ أَسْمَعَ بِنَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ نَارًا تَحْتَرِقُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَسْمَعَ فِيهِ بِدْعَةً لَيْسَ لَهَا مُغَيِّرٌ وَمَا أَحْدَثَتْ أُمَّةٌ فِي دِينِهَا بِدْعَةً إِلَّا رَفَعَ اللهُ بِهَا عَنْهُمْ سُنَّةً وَلَا ابْتَدَعَتْ بِدْعَةً إِلَّا ازْدَادَتْ مُضِيًّا وَلَا تَرَكَتْ سُنَّةً إِلَّا ازْدَادَتْ هَرَبًا وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ مَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ مِنْ عَامٍ إِلَّا

أَحدَثُوا فيه بدْعَة وأَماتوا فيه سنَّةً حَتَّى تحيَا الْبدَع وتَموتَ السُّنَن
وَقَالَ أَيْضا : مَا من عَامٍ إلَّا والنَّاس يحيُون فيه بدْعَة ويُميتُون فيه
سُنَّة حَتَّى تحيَا الْبدَعُ وتَموتَ السُّنن . وقَالَ عبد الله بن الْمُبَارَك إنِّى
أَرى الْمَوْت اليَوْم كرامَةً لكُلّ مُسْلِمٍ لَقِيَ الله عَلَى السُّنَّة فَانَّا لله وإنَّا
إلَيْه راجعُونَ فَالَى الله نَشكُوا وَحْشتَنَا وذَهَابَ الاخْوَان وَقلَّة
الأَعْوان وظُهُورَ البدَعِ وإلَى الله نَشكُوا عَظِيمَ مَا حَلَّ بهذه الأُمَّة
منْ ذَهَاب الْعُلَمَاءِ وأَهْلِ السُّنَّة وظُهُورِ الْبدَعِ انتهى . وعَنْ عَبْد الله
قَالَ إذَا اتَّسَمت الدُّنْيَا بعَمَل الآخرة وتفقه لِغَيْر الدِّين ظَهَرَت الْبدَعُ
وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاء لَوْ أَنَّ رَجُلا تَعَلَّمَ الاسْلَام وأَهَمَّه ثم تفقده مَا عرف
منه شيْئا وَقَالَ مَالك بلَغَنى أَنَّ أَبَا هُريرة تلَا (إذَا جَاءَ نَصْرُ الله والْفَتْح
وَرَأَيتَ النَّاسَ يَدْخلُونَ فى دين الله أَفْوَاجًا) ثُمَّ قَالَ : وَالَّذى نَفْسى
بيده إنَّ النَّاسَ لَيَخْرجُونَ الْيَوْمَ منْ دين الله أَفْوَاجًا كَمَا دَخَلُوا فيه

أَفْوَاجًا . وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ
(إِنَّكُمْ الْيَوْمَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُجَاهِدُونَ فِي اللهِ وَلَمْ تَظْهَرْ فِيكُمْ السَّكْرَتَانِ سَكْرَةُ الْجَهْلِ
وَسَكْرَةُ حُبِّ الْعَيْشِ وَسَتَحَوَّلُونَ عَنْ ذَلِكَ فَلَا تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَلَا تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَا تُجَاهِدُونَ فِي اللهِ وَتَظْهَرُ فِيكُمْ السَّكْرَتَانِ
فَالْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ قِيلَ مِنْهُمْ
يَارَسُولَ اللهِ قَالَ بَلْ مِنْكُمْ) وَعَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ
(سَيَنْقُضُ الْإِسْلَامُ فَالْمُتَمَسِّكُ بِدِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ أَوْ
خَبَطِ الشَّوْكِ)

(فَصْلٌ) فِي ذِكْرِ مَا يُدَالُ لِلنَّاسِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ حَتَّى لِلْبِقَاعِ
بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ عَنْ مُجَاهِدِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْأَشْعَثِ
يَقُولُ : مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُدَالُ حَتَّى إِنَّ النُّوكَ لَتَكُونُ لَهُ دَوْلَةٌ عَلَى

الْكَيْسُ وَالنُّوكَ بِالضَّمِ وَالْفَتْحِ الْحُمْقُ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ لِكُلِّ شَيْءٍ دَوْلَةٌ تَعِيبُهُ فَلِلْأَشْرَافِ عَلَى الصَّعَالِيكِ دَوْلَةٌ ثُمَّ لِلصَّعَالِيكِ وَسَفَلَةِ النَّاسِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَوْلَةٌ حَتَّى يُدَالَ لَهُمْ عَلَى أَشْرَافِ النَّاسِ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَرُوَيْدَكَ الدَّجَّالُ ثُمَّ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ كَانَ يُقَالُ إِنَّ الْبِقَاعَ لَيُدَالُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ حَتَّى إِنَّ الْمَسْجِدَ لَيُتَّخَذُ كَنِيفًا وَإِنَّ الْكَنِيفَ لَيُتَّخَذُ مَسْجِدًا . وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُوضَعَ الْأَخْيَارُ وَتُرْفَعَ الْأَشْرَارُ وَيَسُودَ كُلَّ قَوْمٍ مُنَافِقُوهُمْ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ أَنَا أَقُولُ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُعْبَدَ الْأَصْنَامُ فِي الْمَحَارِيبِ . وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَكُونَ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى بِضْعٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهَا فِي الْهَاوِيَةِ وَوَاحِدَةٌ فِي النَّاجِيَةِ . وَعَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كَيْفَ أَنْتُمْ

إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَتُتَّخَذُ سُنَّةً تَجْرِى عَلَيْهَا فَإِذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَىْءٌ قِيلَ غُيِّرَتِ السُّنَّةُ قِيلَ مَتَىٰ ذَٰلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ فَقَالَ إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ وَكَثُرَ أَمْوَالُكُمْ وَقَلَّ أُمَنَاؤُكُمْ وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ .

وَرُوِىَ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (وَيْحٌ لِهَٰذِهِ الْأُمَّةِ مَاذَا يَلْقَىٰ فِيهَا مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ كَيْفَ يُكَذِّبُونَهُ وَيُعَذِّبُونَهُ أَنَّهُ أَطَاعَ اللَّهَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَطَاعَ اللَّهَ) قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَارَسُولَ اللَّهِ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ عَلَى الْإِسْلَامِ قَالَ نَعَمْ يَا عُمَرُ قَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِمَ يُبْغِضُونَ مَنْ أَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَقَالَ يَا عُمَرُ تَرَكَ الْقَوْمُ الطَّرِيقَ فَرَكِبُوا الدَّوَابَّ وَلَبِسُوا لَيِّنَ الثِّيَابِ وَخَدَمَهُمْ أَبْنَاءُ فَارِسَ وَتَزَيَّنَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ بِزِينَةِ الْمَرْأَةِ لِزَوْجِهَا وَتَبَرَّجَ النِّسَاءُ وَتَزَيُّوا زِىَّ الْجَبَابِرَةِ وَيَتَسَمَّنُونَ كَالنِّسَاءِ فَإِذَا تَكَلَّمَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَأَمَرُوهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ قِيلَ لَهُ أَنْتَ قَرِينُ الشَّيْطَانِ

وَرَأْسُ الضَّلَالَةِ تُكَذِّبُ بِالْكُتُبِ وَتُحَرِّمُ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ تَأَوَّلُوا كِتَابَ اللهِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَاسْتَذَلُّوا بِهِ أَوْلِيَاءَ اللهِ. وَقَالَ ابْنُ وَضَّاحٍ حَدَّثَنِي أَبُو طَاهِرٍ عَنْ بِشْرٍ عَنْ أُمِّ عَبْدِ اللهِ ابْنَةِ خَالِدٍ قَالَ حَدَّثَتْنِي أُمُّ عَبْدِ اللهِ الْجُرَشِيَّةُ وَكَانَتْ تُكْثِرُ الاخْتِلَافَ إِلَى أَبِي تَقْتَبِسُ مِنْهُ فَقَالَتْ ذَاتَ يَوْمٍ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا وَيَصُومُونَ رَمَضَانَ وَيُصَلُّونَ الْخَمْسَ وَقَدْ سُلِبُوا دِينَهُمْ قُلْتُ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ يَا أُمَّ عَبْدِ اللهِ إِنَّ هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ فَقَالَتْ يَا بُنَيَّ إِذَا رَأَوُا الْحَقَّ فَتَرَكُوهُ فَلَا دِينَ لَهُمْ.

(فَصْلٌ) كَانَ الْإِسْلَامُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ غَرِيبًا كَمَا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ (بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَا) ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَعَزَّ وَصَارَ

أَهلهُ ظَاهِرِينَ كُلَّ الظُّهُورِ وَدَخَلَ النَّاسُ فى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا وَأَكمل اللهُ لهمُ الدِّينَ دَائِمًا عَلَيهِمُ النِّعْمَةَ وَتُوُفِّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ وَأَهْلُ الإِسْلَامِ فى غَايَةٍ مِنَ الاسْتِقَامَةِ فى دِينِهِمْ وَهُمْ مُتَعَاضِدُونَ مُتَنَاصِرُونَ وَكَانُوا عَلَى ذٰلِكَ فى زَمَنِ أَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنهُمَا ثُمَّ عَمِلَ الشَّيْطَانُ مَكَائِدَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَلْقَى بَأْسَهُم بَيْنَهُمْ وَأَفْشَى فِيهِمْ فِتْنَةَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ وَلَمْ تَزَلْ هَاتَانِ الْفِتْنَتَانِ تَتَزَايَدَانِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ مَكِيدَةُ الشَّيْطَانِ وَأَطَاعَهُ أَكْثَرُ الْخَلْقِ فَمِنْهُم مَنْ دَخَلَ فى طَاعَتِهِ فى فِتْنَةِ الشُّبُهَاتِ وَمِنْهُم مَنْ دَخَلَ فى فِتْنَةِ الشَّهَوَاتِ وَمِنْهُم مَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا وَكُلُّ ذٰلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوُقُوعِهِ فَأَمَّا فِتْنَةُ الشُّبُهَاتِ فَقَدْ رُوِىَ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ إِنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى أَزْيَدَ مِنْ سَبْعِينَ فِرْقَةً عَلَى اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ فى عَدَدِ الزِّيَادَةِ

عَلَى السَّبْعِينَ وَإِنَّ جَمِيعَ تِلْكَ الْفِرَقِ فِى النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً وَهِىَ مَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَأَمَّا فِتْنَةُ الشَّهَوَاتِ فَفِى صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ خَزَائِنُ فَارِسَ وَالرُّومِ أَىُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ ابْنُ عَوْفٍ نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ قَالَ أَوْغَيْرَ ذٰلِكَ تَتَنَافَسُونَ ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ الْحَدِيثُ وَلَمَّا فُتِحَتْ كُنُوزُ كِسْرٰى عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ بَكٰى فَقَالَ إِنَّ هٰذَا لَمْ يُفْتَحْ عَلَى قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الشَّهَوَاتِ الَّتِى فِى بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضِلَّاتِ الْفِتَنِ) وَفِى رِوَايَةٍ مُضِلَّةَ الْأَهْوَاءِ .

(فَصْلٌ) فِى ذِكْرِ غُرْبَةِ الدِّينِ وَأَهْلِهِ فِى آخِرِ الزَّمَانِ وَأَنَّهُمْ قَوْمٌ قَلِيلٌ فِى قَوْمِ سُوءٍ كَثِيرٍ مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ رَوَى

الطَّبَرَانِيُّ بإسْنَادٍ فيه نَظَرٌ من حديث أبي أُمَامَةَ عن النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِكُلِّ شيءٍ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ وَأَنَّ من إِقْبَالِ هَذَا الدِّينِ أَنْ تَفْقَهَ الْقَبِيلَةُ بِأَسْرِهَا حَتَّى لا يُوجَدَ فيها إلَّا الْفَاسِقُ وَالْفَاسِقَانِ فَهُمَا مَقْهُورَانِ ذَلِيلَانِ إِنْ تَكَلَّمَا قُمِعَا وَقُهِرَا وَاضْطُهِدَا وَإِنَّ من إِدْبَارِ هَذَا الدِّينِ أَنْ تَجْفُوَا الْقَبِيلَةُ بِأَسْرِهَا حَتَّى لَا يُرَى فيها إلَّا الْفَقِيهُ وَالْفَقِيهَانِ فَهُمَا مَقْهُورَانِ ذَلِيلَانِ إِنْ تَكَلَّمَا فَأَمَرَا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيَا عَنِ الْمُنْكَرِ قُمِعَا وَقُهِرَا وَاضْطُهِدَا فَهُمَا مَقْهُورَانِ ذَلِيلَانِ لَا يَجِدَانِ على ذَلِكَ أَعْوَانًا وَلَا أَنْصَارًا فوَصَفَ في هَذَا الْحَدِيثِ الْمُؤْمِنَ الْعَالِمَ بِالسُّنَّةِ الْفَقِيهَ في الدِّينِ بِأَنَّهُ يَكُونُ في آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ فَسَادِهِ مَقْهُورًا ذَلِيلًا لَا يَجِدُ أَعْوَانًا وَلَا أَنْصَارًا خَرَّجَهُ الطَّبَرَانِيُّ من حديث ابْنِ مَسْعُودٍ عن النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثٍ طَوِيلٍ في ذِكْرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَقَالَ وَإِنَّ من أَشْرَاطِ

السَّاعة أَنْ يَكُونَ المُؤْمن فى القَبيلَة أَذَلَّ من النَّقد وَالنَّقَدُ هى الْغَنم الصّغارُ وَفى مُسْند الامَام أَحمد عَنْ عبَادَة بن الصَّامت أَنَّهُ قَالَ لرجُل من أَصْحابه يُوشكُ إنْ طَالَتْ بكَ حيَاةٌ أَنْ ترَى الرَّجُلَ قَدْ قَرأَ الْقُرآنَ عَلَى لسَان مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيه وَسَلَّمَ فَأَعَادَهُ وَأَبدَهُ وَأَحلَّ حَلالَهُ وَحرَّمَ حرَامهُ وَنَزلَ عنْدَ منَازله لَا يَجُوزُ فيهمْ إلَّا كَمَا يَجُوزُ الحمَارُ المَيّتُ وَمثلهُ قَوْلُ ابْن مَسْعُود يَأْتى عَلَى النَّاس زَمَانٌ يَكُونُ المُؤْمنُ فيه أَذَلَّ من الْأَمَة وَإنَّمَا ذُلَّ الْمُؤْمنُ فى آخر الزَّمَان لغربته بَيْنَ أَهْل الْفَسَاد منْ أَهْل الشُّبُهَات وَالشَّهَوَات فَكُلّهم يَكْرَهُهُ وَيُؤْذيه لمُخَالَفَة طَريقَته لطَريقَتهمْ وَمَقْصُوده لمَقْصُودهمْ وَمُبَاينَته لمَا هُمْ عَلَيْه.

(فَصْلٌ) رُوىَ أَنَّ أَبَا بَكْر رَضىَ اللهُ عَنْهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْم فَاسْتَقْبَلَ النَّبىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ بِمَ بُعثْتَ يَارَسُولَ الله قَالَ

بِالْعَقْلِ قَالَ فَكَيْفَ لَنَا بِالْعَقْلِ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْعَقْلَ لَا غَايَةَ لَهُ وَلَكِنْ مَنْ أَحَلَّ حَلَالَ اللهِ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ سُمِّيَ عَاقِلًا فَانْ اجْتَهَدَ بَعْدَ ذٰلِكَ سُمِّيَ عَابِدًا فَانِ اجْتَهَدَ بَعْدَ ذٰلِكَ سُمِّيَ جَوَادًا انْتَهَى مِنَ الْحِلْيَةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ. وَقَالَ أَيْضًا حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ وَاللهِ إِنِّي لَوْ شِئْتُ لَكُنْتُ مِنْ أَلْيَنِكُمْ لِبَاسًا وَأَطْيَبِكُمْ طَعَامًا وَأَرَقِّكُمْ عَيْشًا وَاللهِ مَا أَجْهَلُ عَنْ كَرَاكِرَ وَأَسْنِمَةٍ وَعَنْ جَلَاءٍ وَصَبَابٍ وَحَلَائِقَ وَلٰكِنِّي سَمِعْتُ اللهَ عَيَّرَ قَوْمًا بِأَمْرٍ فَعَلُوهُ فَقَالَ (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) الْآيَةَ وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَاللهِ مَا نَعْبَأُ بِلَذَّاتِ الْعَيْشِ نَأْمُرُ بِصِغَارِ الْمِعْزَى فَتُسْمَطُ لَنَا وَنَأْمُرُ بِلُبَابِ الْحِنْطَةِ فَتُخْبَزُ لَنَا وَنَأْمُرُ بِالزَّبِيبِ فَيُهَيَّأُ لَنَا فِي الْأَسْعَانِ حَتَّى إِذَا صَارَ مِثْلَ عَيْنِ الْيَعْقُوبِ أَكَلْنَا هٰذَا وَشَرِبْنَا هٰذَا وَلٰكِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَسْتَبْقِيَ طَيِّبَاتِنَا لِأَنَّا سَمِعْنَا اللهَ تَعَالَى يَقُولُ (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ

فى حياتكم الدنيا) قال وقدم على عمر رضى الله عنه ناس من أهل العراق فرأى كأنهم يأكلون تعزيزا يعنى احتشاما فقال هذا يا أهل العراق لو شئت أن يدهمق لى كما يدهمق لكم ولكنا نستبقى من دنيانا بجدة فى آخرتنا أما سمعتم الله عز وجل يقول (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا) وقال أيضا حدثنا معاوية عن الأعمش فساقه عن عمر قال قدم عليه ناس من أهل العراق فيهم جابر بن عبد الله قال فأتاهم بجفنة قد صنعت بخبز وزيت فقال لهم خذوا فأخذوا أخذا ضعيفا فقال لهم عمر قد أرى ما تقرمون فأى شيء تريدون حلوا وحامضا وحارا وباردا ثم قذفا فى البطون وكان طلحة بن عبيد الله يقسم المال ولا يبقى لغد درهما وقالت امرأته تصدق طلحة يوما بمئة ألف درهم ثم حبسه عن الرواح للمسجد تصليح ثوبه قد تشقق ليس له ثوب غيره حتى أصلحته له وعن أبى

ابن كعب قال ما من عبد ترك شيئاً لله عز وجل إلا أبدله الله به ماهو خير منه من حيث لا يحتسب وما تهاون به عبد فأخذه من حيث لا يصلح إلا أتاه الله ماهو أشد عليه منه من حيث لا يحتسب وقال أيضا ألا إن طعام بن آدم ضرب للدنيا مثلا وإن ملحه وقزحه أى ماجمع فيه من أخلاط الأبازير وقد علم إلى ما يصير وعنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (بشر هذه الأمة بالسناء والنصر والتمكين ومن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا فليس له فى الآخرة من نصيب السناء بالمد والرفعة والظفر)

(فصل) قال ابن القيم رحمه الله اجتنب من يعادى أهل الكتاب والسنة لئلا يعديك خسرانه وهما عدوان هلك بهما أكثر الخلق صاد عن سبيل الله بشبهاته وزخرف قوله ومفتون بدنياه ورئاسته فمن خلق فيه قوة واستعداد لشىء كانت لذته

وسروره في استعمال تلك القوة فلذة من خلقت فيه قوة واستعداد للجماع استعمال قوته فيه ولذة من خلقت فيه قوة الغضب والتوثب استعمال قوته الغضبية في متعلقها ومن خلقت فيه قوة الأكل والشرب فلذته باستعمال قوته فيهما ومن خلقت فيه قوة العلم والمعرفة فلذته باستعمال قوته وصرفها إلى العلم ومن خلقت فيه قوة الحب لله والانابة إليه والعكوف بالقلب عليه والشوق إليه والأنس به فلذته ونعيمه استعمال هذه القوة في ذلك وسائر اللذات دون هذه اللذة مضمحلة فانية وأحمد عاقبتها أن تكون لا له ولا عليه «تنبيه» احذر فراسة المؤمن فانه يرى عورة عملك من وراء الستر اتقوا فراسة المؤمن حديث صحيح

(فصل) ما من نفس إلا وفيها كبر إبليس وحسد قابيل وعتو عاد وطغيان ثمود وجراة نمرود واستطالة فرعون وبغي

قَارُون وَقِحَةُ هَامَانَ وَهَوَى بَلْعَامِ وَحِيَلُ أَصْحَابِ السَّبْتِ وَتَمَرُّد الْوَلِيدِ وَجَهْلُ أَبِى جَهْلٍ وَفِيهَا مِنْ أَخْلَاقِ الْبَهَائِمِ حِرْصُ الْغُرَابِ وَشَرَهُ الْكَلْبِ وَرُعُونَةُ الطَّاوُوسِ وَدَنَاءَةُ الْجُعَلِ وَعُتُوُّ الضَّبِّ وَحِقْدُ الْجَمَلِ وَوُثُوبُ الْفَهْدِ وَصَوْلَةُ الْأَسَدِ وَفِسْقُ الْفَأْرَةِ وَخُبْثُ الْحَيَّةِ وَعَبَثُ الْقِرْدِ وَجَمْعُ النَّمْلِ وَمَكْرُ الثَّعْلَبِ وَخِفَّةُ الْفَرَاشِ وَنَوْمُ الضَّبُعِ غَيْرَ أَنَّ الرِّيَاضَةَ وَالْمُجَاهَدَةَ تُذْهِبُ ذٰلِكَ فَمَنِ اسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ فَهُوَ مِنْ هٰذَا الْجُنْدِ إِلَى أَنْ قَالَ سَلِّمِ الْبَيْعَ قَبْلَ أَنْ يَتْلَفَ فِى يَدِكَ فَلَا يَقْبَلُهُ الْمُشْتَرِى فَقَدْرُ السِّلْعَةِ يُعْرَفُ بِقَدْرِ مُشْتَرِيهَا وَالثَّمَنِ الْمَبْذُولِ فِيهَا وَالْمُنَادِى عَلَيْهَا فَاذَا كَانَ الْمُشْتَرِى عَظِيماً وَالثَّمَنُ خَطِيراً وَالْمُنَادِى جَلِيلاً كَانَتِ السِّلْعَةُ نَفِيسَةً شعر :

شَابَ الصِّبَا وَالتَّصَابِى بَعْدُ لَمْ يَشِبِ

وَضَاعَ وَقْتُكَ بَيْنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ

وَشَمْسُ عُمْرِكَ قَدْ حَانَ الْغُرُوبُ لَهَا

وَالْفَيْءُ فِي الْأُفُقِ الشَّرْقِيِّ لَمْ يَغِبِ

فَائِدَةٌ: عَلَّمْتَ كَلْبَكَ فَهُوَ يَتْرُكُ شَهْوَتَهُ لِأَجْلِكَ احْتِرَامًا لِنِعْمَتِكَ وَخَوْفًا مِنْ سَطْوَتِكَ وَكَمْ عَلَّمَكَ رَبُّكَ وَأَنْتَ لَا تَقْبَلُ فَمَا ظَنُّ الْجَاهِلِ الَّذِي أَعْمَالُهُ لِهَوَى نَفْسِهِ إِلَى قَوْلِهِ جَمَعَ فِيكَ عَقْلَ الْمَلَكِ وَشَهْوَةَ الْبَهِيمَةِ وَهَوَى الشَّيْطَانِ وَأَنْتَ لِلْغَالِبِ عَبْدٌ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِنْ غَلَبَتْ شَهْوَتَكَ وَهَوَاكَ زِدْتَ عَلَى مَرْتَبَةِ مَلَكٍ وَإِنْ غَلَبَكَ هَوَاكَ وَشَهْوَتُكَ نَقَصْتَ عَنْ مَرْتَبَةِ كَلْبٍ أُصُولُ الْمَعَاصِي كُلِّهَا كِبَارُهَا وَصِغَارُهَا ثَلَاثَةٌ تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِغَيْرِ اللهِ وَطَاعَةُ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالْقُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ وَهِيَ الشِّرْكُ وَالظُّلْمُ وَالْفَوَاحِشُ انتهى.

(فَصْلٌ) وَلْنَذْكُرْ هٰهُنَا مَا قَدْ عَمَّ فِي النَّاسِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي عَمَّتْ وَخَصَّتْ مِنْ هٰذَا الْجِيلِ مِنِ اسْتِحْسَانِهِمْ لِمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ

وَيَدْعُو إِلَيْهِ هٰؤُلَاءِ الْأَجَانِبُ مِنْ دَعَايَاتِهِمْ إِلَى سَفْسَطَتِهِمْ وَتَلْبِيسِهِمْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ لِيُرَوِّجُوا عَلَى هٰؤُلَاءِ الشَّبَابِ الَّذِينَ تَوَالَعَتْ قُلُوبُهُمْ بِمَحَبَّتِهِمْ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ حَتَّى أَنَّ بَعْضَهُمْ يُوصِي بَعْضًا بِالتَّشَبُّثِ بِهِمْ وَبِلُغَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَاسْتَنْقَصُوا دِينَهُمْ وَمَا وَجَدُوا عَلَيْهِ رَعِيلَهُمْ الْأَوَّلَ الَّذِينَ قَدْ عَرَفُوا قَبْلَ هٰذَا الْجِيلِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ أَهْلُ الضَّلَالِ وَمَا يُزَخْرِفُونَهُ لِصَعَافِقَةِ الْعُقُولِ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُونَ هَدْمَ الْإِسْلَامِ وَتَشْتِيتَ شَمْلِ أَهْلِهِ فَحَذَّرُوا مِنْ ذٰلِكَ وَأَبْدَوْا وَأَعَادُوا وَبَذَلُوا نُصْحَهُمْ عَنِ الدُّخُولِ مَعَهُمْ وَعَنْ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنَ التَّعَالِيمِ الْمُمَوَّهَةِ بِاسْمِ الْحَقِّ وَهِيَ بَاطِلٌ كُلُّهَا مُوَصِّلَةٌ إِلَى الِانْحِلَالِ مِنَ الدِّينِ لَكِنْ هٰؤُلَاءِ الشَّبَابُ لَا يُبَالُونَ بِالدِّينِ وَثَلْمِهِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ غَيْرَةٌ تُوزِعُهُمْ أَنْ يُقَلِّدُوا هٰؤُلَاءِ الْأَجَانِبَ وَمَا عَرَفُوا أَنَّهُمْ إِذَا قَلَّدُوهُمْ فِيمَا أَحْدَثُوهُ لَهُمْ أَنَّهُ نَقْصٌ فِي عُقُولِهِمْ وَسَمْتِهِمْ وَمَذْهَبِهِمْ وَأَنَّ أُولٰئِكَ

يَفْخَرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَنْتَقِصُونَهُمْ حَيْثُ كَانُوا بِتَعَالِيمِهِمْ أَيْنَمَا عَمُّوهُمْ قَبِلُوا فَلَمْ يَحْصُلْ مِنْ هَذَا الْجِيلِ حَتَّى الْأَنَفَةَ أَنْ لَا يَكُونُوا كَالْبَهَائِمِ وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُونَ هَذَا هُوَ التَّقَدُّمُ وَالرُّقِيُّ إِلَى الْمَعْرِفَةِ وَإِلَى الْحَضَارَةِ وَهَذَا وَاللهِ هُوَ التَّغْفِيلُ وَالْحُمْقُ الَّذِي يَأْنَفُ مِنْهُ مَنْ لَهُ أَدْنَى مَعْرِفَةٍ بِحَالِ الْعَرَبِ وَعَصَبِيَّتِهَا فَضْلًا عَنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالْعَقْلِ وَالْمُرُوءَةِ الَّذِينَ يَغَارُونَ لِدِينِهِمْ وَوَطَنِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفِطْرَةِ أَوِ السَّمْتِ الْحَسَنِ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَسَيَلِي «هَذَا الْكِتَابَ» رِسَالَةٌ مُوجَزَةٌ إِنْشَاءَ اللهُ تُنَبِّهُ مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَتَوَقُّظُهُ مِنْ سِنَتِهِ فِيهَا تَعْرِيفُ بِحَالِ مَنْ تَقَدَّمَ فِي تَعَصُّبِهِمْ وَحَمِيَّتِهِمْ لِأَسْلَافِهِمْ وَوَطَنِهِمْ وَإِنْ كَانُوا لَا يُحْمَدُونَ عَلَيْهِ حَيْثُ أَنَّهُ تَعَصُّبٌ لِلْآبَاءِ وَالْأَسْلَافِ وَمَا وَجَدُوهُمْ عَلَيْهِ مِمَّا تَرَاهُ فِي الرِّسَالَةِ الْمَذْكُورَةِ مُبَيَّنًا لَكِنَّ الْأَسَفَ كُلُّ الْأَسَفِ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَشَئُوا

عَلَى الْفِطْرَةِ وَالدِّينِ الْمُحَمَّدِيِّ الَّذِي وَجَدُوا عَلَيْهِ سَلَفَهُمُ الصَّالِحَ ثُمَّ
جَاءَهُمْ هَؤُلَاءِ الْأَجَانِبُ فَاجْتَالُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَفِطْرَتِهِمْ وَهَيْأَتِهِمْ
وَحَسَّنُوا لَهُمُ الْأَفْعَالَ وَالْأَقْوَالَ الْمُحْدَثَةَ الْمُنْكَرَةَ الَّتِي تُخَالِفُ الشَّرْعَ
الْمُطَهَّرَ فَاسْتَحْسَنُوهَا وَاسْتَقْبَحُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ أَوَّلًا وَرَأَوْا أَنَّ هَذَا هُوَ
الْحَيَاةُ وَأَنَّهُمْ وَأَسْلَافَهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَيَاةِ قَبْلَ هَذِهِ
الْمُحْدَثَاتِ فَضَلُّوا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَهَذَا آخِرُ مَا تَيَسَّرَ جَمْعُهُ وَاللهُ
الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ. ثُمَّ لِيَعْلَمِ الْقَارِئُ الْكَرِيمُ أَنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يَجِدَ خَلَلًا
فِي بَعْضِ الْعِبَارَاتِ وَذَلِكَ أَنِّي أَجِدُهُ وَفِيهِ خَلَلٌ إِمَّا مَطْبَعِيٌّ أَوْ غَيْرُهُ
فَنَنْقُلُهُ كَمَا هُوَ لِنَخْرُجَ مِنْ عُهْدَتِهِ بِنَقْلِهِ عَلَى حَالَتِهِ لَكِنْ طَلَبًا لِلْفَائِدَةِ
لِأَنَّ الْمَعْنَى ظَاهِرٌ فَلَا يَمْنَعُنَا رَكَاكَةُ اللَّفْظِ عَنْ أَخْذِ الْفَائِدَةِ وَأَمَّا كَوْنُ
بَعْضِ الْعِبَارَاتِ غَيْرَ مُتَنَاسِبَةٍ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ بِمَا
يُغْنِي عَنْ إِعَادَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مُتَكَرِّرٌ فَهَذَا مَا لِعِظَمِ فَائِدَتِهِ

أَوْ ذُهُولٌ لِتَبَاعُدِ الْوَقْتِ فِى جَمْعِهِ وَقَدْ جَمَعْتُ فِيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ الْجَمَّةِ وَالْفَوَائِدِ الْمُهِمَّةِ مَا يَسُوقُ أَهْلَ الْإِيمَانِ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَيَنْهَى أَهْلَ السُّوءِ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ لِمَنْ أَرَادَ اللهُ تَوْفِيقَهُ وَقَدِ اجْتَهَدْتُ فِيهِ بَاذِلًا نُصْحِى مُفَارِقًا فِيهِ أَهْلَ الْعَوَارِضِ وَالْعَوَائِقِ مُتَبَرِّءًا مِنَ الْمُسْتَنْطِعِينَ وَالْمُتَعَمِّقِينَ مِنْ أَهْلِ الدَّعَاوَى وَالْمُتَسَوِّفِينَ مِنَ الْكَسَالَى الْمُتَشَبِّهِينَ بِأَهْلِ الْخَيْرِ فِى الْهَيْآتِ وَالْمَقَالِ وَالْمُخَالِفِينَ لَهُمْ فِى الْعَقِيدَةِ وَالْفِعَالِ وَاللهُ الْمَسْؤُلُ أَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ لَنَا وَلِمَنْ سَعَى فِيهِ أَوْ قَرَأَهُ أَوْ سَمِعَهُ إِنَّهُ وَلِىُّ ذَٰلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ.

١٥ رجب سنة ١٢٧٦

رسالة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين وقيوم السموات والأرضين وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة وتسليما إلى يوم الدين وإلى من يراه من المسلمين وفقنا الله وإياهم لقبول النصائح وأعاذنا وإياهم من موجبات الندم والفضائح آمين. وبعد فالذى نوصيكم به تقوى الله تعالى التى وصى بها الأولين والآخرين كما قال تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) وقال عز من قائل (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) قال بعض السلف حقيقة اتقوا الله أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله

وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَخَافُ عِقَابَ اللهِ وَالْمُرَادُ بِالنُّورِ هٰهُنَا الْعِلْمُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) وَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَجِبُ التَّنْبِيهُ عَلَيْهَا مَا قَدْ حَصَلَ فِي النَّاسِ مِنَ الْخَلَلِ وَالْقُصُورِ وَالتَّوَانِي وَالْفُتُورِ فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ وَمَا خُلِقُوا لَهُ ثُمَّ إِقْبَالُهُمْ عَلَى جَمْعِ الْحُطَامِ الْفَانِي وَوُثُوبُهُمْ عَلَى الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاهِي مُتَنَافِسِينَ مُسْرِعِينَ وَلَيْسَ ذٰلِكَ خَاصًّا بِصِنْفٍ دُونَ آخَرَ بَلْ قَدْ عَمَّ وَطَمَّ وَصَارَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَكْبَرِ الْوَصْمِ حَتَّى ضَعُفَ جَانِبُ الْإِسْلَامِ وَصَارَ الْقَائِمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ عُرْضَةً مِنَ السِّهَامِ وَالْمُتَسَمَّى بِهِ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَنَامِ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَلٰكِنْ كُلَّمَا كَثُرَ الْإِحْسَاسُ قَلَّ الْإِحْسَاسُ أَعْنِي كُلَّمَا كَثُرَتِ الْمَعَاصِي وَعَمَّتْ وَتَنَوَّعَتْ قَلَّتِ الْمُبَالَاتُ بِهَا وَوَهَنَتِ الْقُلُوبُ وَكَثُرَ الْاِلْتِبَاسُ

وَمِنَ الْأَسْبَابِ فِى ذٰلِكَ مَا قَدْ فُتِحَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوا فِيهَا فَصَارَ الْحُبُّ وَالْبُغْضُ لِأَجْلِهَا فَلَهَا يُوَالُونَ وَعَلَيْهَا يُعَادُونَ وَبِهَا يَتَحَاسَدُونَ وَيَتَبَاغَضُونَ وَلِأَجْلِهَا يَتَنَافَسُونَ وَصَارَ هٰذَا الْأَمْرُ فِى الْخَاصَّةِ أَعْظَمَ مِنْهُ فِى الْعَامَّةِ فَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ ذِى عَقْلٍ وَدِينٍ عَرَفَ أَنَّ هٰذَا هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِى بِهِ تَفَاقَمَ أَمْرُ الدِّينِ وَوَهَى جَانِبُهُ وَانْبَتَّ حَبْلُهُ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ وَأَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ جُهْدَهُ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَسْبَ قُدْرَتِهِ وَالَّذِى لَا يُدْرَكُ كُلُّهُ لَا يُتْرَكُ كُلُّهُ وَاللّٰهُ يُثِيبُهُ عَلَى نِيَّتِهِ وَقَصْدِهِ إِذَا أَدَّى مَا عَلَيْهِ بِيَدٍ أَوْ لِسَانٍ وَآخِرُهُ الْقَلْبُ وَيُوَطِّنُ نَفْسَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللّٰهِ فِى عَمَلِهِ وَفِى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فَإِنَّ الْقَابِضَ عَلَى دِينِهِ فِى آخِرِ الزَّمَانِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ وَأَيْضًا فَيَجِبُ عَلَى مَنْ وَلِىَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ النُّصْحُ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا بِالْقِيَامِ بِمَا الْتَزَمَهُ حَقِيقَةً وَنُصْحًا

لَهُمْ بِمَا تَحَمَّلَهُ مِنْ أُمُورِهِمْ سَوَاءٌ كَانَتْ أُمُورًا مَالِيَّةً قَدْ تَوَلَّى عَلَيْهَا أَوْ غَيْرَهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ فِي ذَٰلِكَ وَلَا يَبْخَسْ ذَا حَقٍّ حَقَّهُ وَإِنْ كَانَ مُتَوَلِّيًا أَمْرَ دِينٍ أَوْ دُنْيَا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْحِسْبَةِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ بِمَا الْتَزَمَهُ لِوَلِيِّ الْأَمْرِ وَلَا يُدَاهِنُ فِي ذَٰلِكَ وَيَنْشُرُ أَعْذَارًا فَاسِدَةً لَا يُعْذَرُ بِهَا عِنْدَ اللهِ وَلَا عِنْدَ صَالِحِي خَلْقِهِ مِنْ أَخْذِ الْجُعْلِ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ عَدَمِ الْقِيَامِ بِمَا الْتَزَمَهُ لَهُمْ فِي وَظِيفَتِهِ الَّتِي تَحَمَّلَهَا وَأَيْضًا فَيَجِبُ عَلَى مَنْ قَامَ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ فَتْوَى أَوْ حُكْمٍ أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ مُؤْتَمَنٌ عَلَيْهِ أَنْ يَقِفَ وَيَتَأَمَّلَ وَيَنْظُرَ فِي أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ وَلَا يَغْتَرَّ بِنَفْسِهِ وَفَهْمِهِ فَإِنَّهُ مَسْؤُلٌ عَنْ مَا شَرَعَ فِيهِ وَالنَّاسُ يَتَّبِعُونَهُ فِي ذَٰلِكَ فَيَضِلُّ وَيُضِلُّ وَرُبَّمَا ابْتَدَعَ بِدْعَةً أَوْ فَتَحَ بَابَ رُخْصَةٍ لَا تَجُوزُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ لِأَجْلِ غَرَضِهِ أَوْ حَاجَتِهِ فَيَحْفَظُهَا مَنْ يَحْفَظُهَا حَتَّى تَكُونَ لِلْخَلَفِ عَنْ سَلَفٍ فَيَبْقَى

عَلَيْهِ إِثْمُهَا كُلَّمَا عُمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَكُونُ ذَلِكَ عُقُوبَةً لَهُ يَجْرِي عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَهُوَ إِنَّمَا وَافَقَ عَلَيْهَا إِمَّا لِأَجْلِ غَرَضٍ أَوْ مَرَضٍ فِي قَلْبِهِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ لِيَنْتَفِعَ بِهَا فَتَفْنَى اللَّذَّاتُ وَتَبْقَى التَّبِعَاتُ وَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَجِبُ التَّنْبِيهُ عَلَيْهَا أَيْضًا مَا قَدْ حَصَلَ فِي النَّاسِ مِنَ التَّهَاوُنِ بِالصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِشَأْنِهَا وَهِيَ عِمَادُ الدِّينِ وَقَدْ كَثُرَ هَذَا فِي النَّاسِ مِنْ خَاصَّةٍ وَعَامَّةٍ وَتَهَاوُنُ الْخَاصَّةِ يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ أَوْلَادِهِمْ وَخَدَمِهِمْ وَمُجَالِسِهِمْ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ حَصَلَ لَهُمْ إِثْمُهُمْ وَإِثْمُ مَنِ اقْتَدَى بِهِمْ وَإِذَا تَقَدَّمُوا لِلْجَمَاعَةِ تَقَدَّمَ مَنْ يَتَأَسَّى بِهِمْ مِمَّنْ ذُكِرُوا وَمِنْ غَيْرِهِمْ فَيَحْصُلُ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَأَجْرُ مَنِ اسْتَنَّ بِهِمْ كَمَا فِي الْحَدِيثِ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَنَّ فِي

الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده)
الحديث وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (لقد
هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا يصلى بالناس ثم
أخالف إلى رجال لا يشهدون الجماعة فأحرق عليهم بيوتهم)
الحديث وقد كثر التكاسل والتهاون بها فى جميع الأمكنة فى
هذه الأزمنة وهى عمود الإسلام وناهية عن الفحشاء والآثام
ومن حفظها حفظ دينه ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع وهى
من أوجب الواجبات وتركها مما يسخط رب الأرض والسموات
ويوجب حلول النقم من الأمراض والأسقام والمصائب والبليات
ويوجب أيضا الوحشة للعبد فيما بينه وبين ربه وفيما بينه وبين
نفسه وفيما بينه وبين الخلق والله يستعمل من يشاء فى سخطه كما
يستعمل من يحب فى مرضاته إنه بعباده خبير بصير ولا يظهر سر

هٰذه الأُمُور إلاّ عند الاحتضار فتجتمع عليه الحسرات على مافات مع السكرات عند الممات فلا يسأل عن حاله فى ذلك الآن والله المستعان . وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (من سمع النداء ثم لم يجب لم تقبل منه تلك الصلاة) والأحاديث والآثار فيها كثيرة وإنما المقصود التنبيه على هٰذه الأمور لأن المعاصى بريد الكفر وترك الصلاة فى الجماعة من المعاصى وفى بعض الآثار أن الله تعالى يقول خيرى إلى عبادى نازل وشرهم إلىّ صاعد أتحبب إليهم بالنعم ويتبغضون منى بالمعاصى والعبد لا يزال يعمل المعصية وهو يكرهها ثم يقسو قلبه فيستلذها ثم تكون عادة وطبعا سواء كانت قولا أو فعلا أو سماعا لملاهى أو غيرها فعلى العبد أن يجاهد نفسه عن الدخول فيها سواء كانت مأكلا أو مشربا أو غيرهما فانه إن دخل فيها لم يقدر على الخروج منها

وَلَوْ كَانَ أَعْقَلَ النَّاسِ وَأَرْوَعَهُمْ وَسَوَاءٌ كَانَتْ صَغِيرَةً أَوْ كَبِيرَةً وَالْإِدْمَانُ عَلَى الصَّغِيرَةِ يُصَيِّرُهَا كَبِيرَةً وَأَوَّلُ مَا يُجَاهِدُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ ثُمَّ أَهْلَ بَيْتِهِ وَذَوِيهِ مِمَّنْ لَهُ عَلَيْهِ اسْتِطَاعَةٌ مِنْ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْجِهَادُ ثَلَاثَةٌ فَجِهَادٌ بِيَدٍ وَجِهَادٌ بِلِسَانٍ وَجِهَادٌ بِقَلْبٍ فَأَوَّلُ مَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ يَدُكَ ثُمَّ لِسَانُكَ ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى الْقَلْبِ فَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا انْتَكَسَ فَجُعِلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ رَيْنِ الذُّنُوبِ وَانْتِكَاسِ الْقُلُوبِ وَمِنَ النَّاسِ هَمَجٌ هَامِجٌ وَرَعَاعٌ مُنْتَشِرٌ لَا انْضِمَامَ لَهُمْ وَلَا اخْتِبَارَ إِنْ أَخْصَبُوا طَغَوْا فِي الْبِلَادِ وَإِنْ أُجْدِبُوا آثَرُوا الْبَغْيَ وَالْعِنَادَ مُوَكَّلُونَ بِبُغْضِ أَهْلِ التُّقَى وَالسَّدَادِ يَشْمَتُونَ بِالْعَشِيرَةِ وَيَفْرَحُونَ بِالْجَوْلَةِ فَهَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِمْ وَفِي أَمْثَالِهِمْ (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

مَسْأَلَةٌ فِى ذِكْرِ الْغِنَاءِ وَمَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ قَالَ اللهُ تَعَالَى (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) لَمَّا نَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ جَلَسَ شُعَرَاءُ الصَّحَابَةِ فِى بُيُوتِهِمْ يَبْكُونَ وَهُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ كُلُّهُمْ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالُوا إِنَّ اللهَ ذَكَرَ الشُّعَرَاءَ بِأَسْوَءِ ذِكْرٍ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّا نَقُولُ الشِّعْرَ فَأَنْزَلَ اللهُ فِى أَثَرِهَا (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا) الآيَةَ فَهٰذِهِ صِفَتُهُمْ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَقَالَ تَعَالَى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) أَجْمَعَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِى الْغِنَاءِ وَاشْتِرَاءِ الْمُغَنِّيَاتِ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ عِنْدَ قَوْلِهِ (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ) الآيَةَ. وَاللهِ الَّذِى

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّهُ الْغَنِيُّ يُرَدِّدُهَا ثَلَاثًا وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا ذُكِّرَ بِآيَاتِ اللهِ وَلَّى مُسْتَكْبِرًا وَأَعْرَضَ عَنْهَا . وَقَالَ الْبَيْضَاوِي لَهْوَ الْحَدِيثِ هُوَ مَا يُلْهِي عَمَّا يَعْنِي كَالْأَحَادِيثِ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا وَالْأَسَاطِيرِ الَّتِي لَا اعْتِبَارَ فِيهَا وَالْمَضَاحِكِ وَفُضُولِ الْكَلَامِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) قَالَ عَنْ دِينِهِ أَوْ قِرَاءَةِ كِتَابِهِ انتهى قُلْتُ وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ فَإِنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَبْدَلُوا بِهِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ طَوَائِفُ الضَّلَالِ حَيْثُ أَشْغَلُوهُمْ بِالْمَجَلَّاتِ وَالْجَرَائِدِ وَمَا يَتْبَعُهَا مِمَّا يَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَإِنَّ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ الَّتِي رُبَّمَا مَزَجُوهَا بِشَيْءٍ مِنْ اسْمِ الْحَقِّ لِيُقْبَلَ ذَلِكَ الْبَاطِلُ مِنْهُمْ فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي ذَلِكَ : حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَاءِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ

أَحَدُكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا وَقَدْ سَمَّاهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِرْسَالَ الشَّيْطَانِ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ الْغِنَاءُ رُقْيَةُ الزِّمَانِ فَهَٰذَا الَّذِي يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنِ اسْتِعْمَالِ هَٰذِهِ الْمَلَاهِي وَمِنَ الْغِنَاءِ وَسَطَ الْبَلَدِ هَٰذَا فِي بُنْيَانِهِ وَهَٰذَا فِي شُغْلِهِ بِمِسْحَاتِهِ وَهَٰذَا فِي سَيَّارَتِهِ وَهَٰذَا عِنْدَ رَادُوهِ فَإِذَا كَانَ النِّسَاءُ يَسْتَمِعْنَ لِذَلِكَ فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ وَأَنْكَرِ الْمُنْكَرَاتِ. وَأَعْظَمُ مِنْ ذَٰلِكَ اخْتِلَاطُ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ فَعَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ الْمَنْعُ مِنْ ذَٰلِكَ وَجَعْلُ أَهْلِ حِسْبَةٍ يَقُومُونَ بِهِ وَيَهْتَمُّونَ بِهِ فَإِنَّ الْمُنْكَرَاتِ إِذَا لَمْ تُغَيَّرْ وَهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى إِزَالَتِهَا يُخْشَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَاتِ أَنْ تَحِلَّ بِهِمْ قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وَالْعُقُوبَاتُ تَتَنَوَّعُ تَارَةً بِالْأَمْرَاضِ وَتَارَةً بِالْفِتَنِ بَيْنَهُمْ وَتَارَةً بِتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ أَوْ بِالْقَتْلِ

بينهم كما فى حديث أبى موسى الأشعرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن بين يدى الساعة الهرج وفى رواية والكذب قالوا وما الهرج قال القتل قالوا ءأكثر مما نقتل إنا لنقتل كل عام أكثر من سبعين ألفا قال إنه ليس بقتلكم المشركين ولكن قتل بعضكم بعضا . وفى رواية حتى يقتل الرجل جاره وحتى يقتل أخاه ويقتل عمه ويقتل ابن عمه قالوا سبحان الله ومعنا عقولنا قال لا إنه ينزع عقول أهل ذلك الزمان حتى يحسب أحدهم أنه على شىء والذى نفسى بيده لقد خشيت أن تدركنى وإياكم تلك الأمور وما أجد لى ولكم منها مخرجا إلا أنا نخرج منها كما دخلناها وقال الحسن إن الله يمتع بالنعمة أقواما ما شاء فاذا لم يشكروا قلبها عليهم عذابا وقال أبو حازم كل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية

فائدة : كتب المنصور العباسى إلى جعفر الصادق يقول لم

لَا تَزُورُنَا كَمَا يَزُورُنَا النَّاسُ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ لَيْسَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا نَخَافُكَ عَلَيْهِ وَلَا عِنْدَكَ مِنَ الآخِرَةِ مَا نَرْجُوكَ لَهُ وَلَا أَنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَنُهَنِّيكَ بِهَا وَلَا نَعُدُّهَا نِقْمَةً فَنُعَزِّيكَ لَهَا فَقَالَ الْمَنْصُورُ تَصْحَبُنَا لِتَنْصَحَنَا فَقَالَ عَبْدُ اللهِ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا لَا يَنْصَحُكَ وَمَنْ يَطْلُبُ الآخِرَةَ لَا يَصْحَبُكَ وَحَلَاوَةُ الدُّنْيَا مَرَارَةُ الْأُخْرَةِ

(فَصْلٌ) فِي الْحَثِّ عَلَى الْعَمَلِ مَعَ الرَّجَاءِ قَالَ اللهُ تَعَالَى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ رَجَاؤُكَ رَحْمَةَ مَنْ لَا تُطِيعُهُ مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْحُمْقِ وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَطَعَ عُضْوًا مِنْكَ فِي الدُّنْيَا بِسَرِقَةِ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ لَا تَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ عُقُوبَتُهُ فِي الآخِرَةِ عَلَى نَحْوِ هَذَا قِيلَ لِلْحَسَنِ أَرَاكَ طَوِيلَ الْبُكَاءِ فَقَالَ أَخَافُ أَنْ يَطْرَحَنِي فِي النَّارِ وَلَا يُبَالِي. وَسَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ فَقَالَ يَا أَبَا سَعِيدٍ كَيْفَ نَصْنَعُ بِمُجَالَسَةِ

أَقْوَام يخوفُونَنا حَتَّى تَكَادَ قُلُوبُنا تَطِيرُ فَقَالَ وَاللهِ لَأَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُخَوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أَمْنًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُؤَمِّنُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَكَ الْمَخَاوِفُ وَذَكَرَ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِى الزُّهْدِ قَالَ أَصَابَ بَنِى إِسْرَائِيلَ بَلَاءٌ فَخَرَجُوا مَخْرَجًا فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَبِيِّهِمْ أَنْ أَخْبِرْهُمْ أَنَّكُمْ تَخْرُجُونَ إِلَى الصَّعِيدِ بِأَبْدَانٍ نَجِسَةٍ وَتَرْفَعُونَ إِلَىَّ أَكُفًّا قَدْ سَفَكْتُمْ بِهَا الدِّمَاءَ وَمَلَأْتُمْ بِهَا بُيُوتَكُمْ مِنَ الْحَرَامِ الآنَ حِينَ اشْتَدَّ غَضَبِى عَلَيْكُمْ وَلَنْ تَزْدَادُوا مِنِّى إِلَّا بُعْدًا وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ يَكْفِى مِنَ الدُّعَاءِ مَعَ الْبِرِّ مَا يَكْفِى الطَّعَامَ مَعَ الْمِلْحِ وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الإِمَامِ أَحْمَدَ حَدَّثَنِى أَبِى وَسَاقَهُ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِى رَضِىَ اللهُ عَنْهُ فَمَرَّ رَجُلٌ فَقَالَ أَخْبِرْنِى يَا عَبْدَ اللهِ يَوْمَ رَأَيْتُكَ تُكَلِّمُهُ بِالْحَرْفِ قَالَ قُلْتُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَقَّتْ مُضْغَتُكَ وَكَبِرَتْ سِنُّكَ وَجُلَسَاؤُكَ لَا يَعْرِفُونَ لَكَ حَقَّكَ

وَلَا شَرَفَكَ فَلَوْ أَمَرْتَ أَهْلَكَ أَنْ يجعلوا لكَ شَيْئًا يُلطِفُونَكَ بِهِ إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِمْ قَالَ وَيحكَ مَا شَبِعتُ مُنْذُ إِحْدٰى عَشْرَةَ سَنَةً أَوْ اثْنَتَى عَشْرَةَ سَنَةً وَلَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً وَلَا أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَلَا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَيْفَ بِي وَإِنَّمَا بَقِيَ مِنِّي كَظَمَأ الْحِمَارِ وَقَالَ أَيْضًا حَدَّثَنِي أَبِي حَدَّثَنَا مُوسٰى بْنُ دَاوُدَ قَالَ سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ قَالَ حُدِّثْتُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ نَزَلَ الْجُحْفَةَ فَقَالَ ابْنُ عَامِرٍ لِنَجَّارِهِ أَوْ لِخَادِمِهِ اذْهَبْ بِطَعَامِكَ إِلَى ابْنِ عُمَرَ قَالَ فَجَاءَ بِصَحْفَةٍ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ ضَعْهَا ثُمَّ جَاءَ بِأُخْرٰى وَأَرَادَ أَنْ يَرْفَعَ الْأُولٰى فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ مَالَكَ قَالَ أُرِيدُ أَنْ أَرْفَعَهَا قَالَ دَعْهَا صُبَّ عَلَيْهَا هٰذِهِ قَالَ وَكَانَ كُلَّمَا جَاءَ بِصَحْفَةٍ صَبَّهَا عَلَى الْأُخْرٰى قَالَ فَذَهَبَ الْخَادِمُ إِلَى ابْنِ عَامِرٍ فَقَالَ هٰذَا كُوفِيٌّ أَعْرَابِيٌّ قَالَ لَهُ بْنُ عَامِرٍ هٰذَا سَيِّدُكَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ

(فَصْلٌ) وَمِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي أَنَّهُ يُقَسِّي قَلْبَ صَاحِبِهَا

فينزع الحياء من وجهه فلا يستقبح فعلها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له وكلامهم فيه وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها فيقول يافلان عملت كذا وكذا وهذا الضرب من الناس لا يعافون ويسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها فى الغالب كما قال صلى الله عليه وسلم (كل أمتى معافى إلا المجاهرين) وإن من المجاهرة أن يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول يافلان عملت البارحة كذا وكذا فيهتك نفسه وقد بات يستره ربه ومنها أن كل معصية من المعاصى فهى ميراث عن أمة من الأمم التى أهلكها الله عز وجل فاللوطية ميراث عن قوم لوط وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب . والعلو فى الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون والتكبر والتجبر

ميراث عن قوم هود فالعاصى لابس ثياب بعض هذه الأمم وهم
أعداء الله وقد روى عبد الله بن الامام أحمد فى كتاب الزهد عن
أبيه عن مالك بن دينار قال أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل
أن قل لقومك لا يدخلوا مداخل أعدائى ولا يلبسوا ملابس
أعدائى فيكونوا أعدائى وقد تقدم الحديث بتمامه

(فصل) روى عبد الله بن الامام أحمد عن أبيه قال سمعت
بلال بن سعد يقول رب مسرور وهو مغبون لا يشعر يأكل
ويشرب ويضحك وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار
وقال أيضا حدثنى أبى عن كثير بن مرة أنه قال لا تحدث بالحكمة
عند السفهاء فيكذبوك ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك
ولا تمنع العلم أهله فتأثم ولا تحدثه غير أهله فتجهل وأن عليك فى
علمك حقا كما أن عليك فى مالك حقا حدثنا عبد الله قال حدثنى

أَبُو عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَزْرَمٍ أَنَّهُ كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنْ خُطْبَةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَأَرَادَ أَنْ يَهْبِطَ عَنِ الْمِنْبَرِ قَالَ اللهَ اللهَ فِي يَتَامَاكُمْ اللهَ اللهَ فِي أَرَامِلِكُمْ اللهَ اللهَ فِيمَنْ لَا أَحَدَ لَهُ إِلَّا اللهُ . وَرَوَى أَيْضًا عَبْدُ اللهِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ حَبِيبِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ الرَّحَبِيِّ قَالَ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَاعْقِلُوهُ وَانْتَفِعُوا بِهِ وَلَا تَعَلَّمُوهُ لِتَجَمَّلُوا بِهِ فَإِنَّهُ يُوشِكُ إِنْ طَالَ بِكُمْ عُمُرٌ أَنْ يَتَجَمَّلَ ذُو الْعِلْمِ بِعِلْمِهِ كَمَا يَتَجَمَّلُ ذُو الْبِزَّةِ بِبِزَّتِهِ . وَذَكَرَ أَيْضًا فِي كِتَابِ الزُّهْدِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ النَّضْرِ الْحَارِثِيِّ قَالَ قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ ابْنَ آدَمَ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مِنْكَ مَا أَعْلَمُ لَنَبَذُوكَ وَلٰكِنْ سَأَغْفِرُ لَكَ مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ عَمِّهِ حَنْبَلٍ قَالَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ قَوْمَكَ زَيَّنُوا مَسَاجِدَهُمْ وَأَخْرَبُوا قُلُوبَهُمْ وَتَسَمَّنُوا كَمَا تُسَمَّنُ الْخَنَازِيرُ لِيَوْمِ ذَبْحِهَا وَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ فَمَقَتُّهُمْ فَلَا أَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَلَا أُعْطِيهِمْ مَسْأَلَتَهُمْ وَقَالَ حَدَّثَنَا مَالِكٌ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا حُصَيْنٍ

يَقُولُ كَانَ يُقَالُ إِذَا سَاءَ عَمَلُ أُمَّةٍ زَيَّنُوا مَسَاجِدَهُمْ وَقَالَ بَعْضُهُمْ زَيَّنُوا مَسَاجِدَهُمْ بِالطِّينِ وَالآجرِ وَعَطَّلُوهَا عَنِ الْعَمَلِ وَرُوِىَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لَاتَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَرْجِعَ الْقُرْآنُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ فَيَكُونُ لَهُ دَوِىٌّ حَوْلَ الْعَرْشِ كَدَوِىِّ النَّحْلِ فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مَالَكَ فَيَقُولُ مِنْكَ خَرَجْتُ وَإِلَيْكَ أَعُودُ أُتْلَى فَلَا يُعْمَلُ بِى فَعِنْدَ ذَلِكَ يُرْفَعُ الْقُرْآنُ . وَأَخْرَجَ ابْنُ مَاجَةَ بِسَنَدٍ قَوِىٍّ وَالْحَاكِمُ وَالْبَيْهَقِىُّ وَأَيْضًا فِى الْمُخْتَارَةِ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْىُ الثَّوْبِ يَعْنِى كَمَا يَنْسَحِلُ الثَّوْبُ شَيْئًا فَشَيْئًا قَالَ حَتَّى مَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَا نُسُكٌ وَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ فِى لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى فِى الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ أَدْرَكْنَا أَبَانَا عَلَى هٰذِهِ الْكَلِمَةِ فَنَحْنُ نَقُولُهَا وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ

اللّهم لا تجعلني مصحّحا فتأنا فأبطر معيشتي وأكفر نعمتك وروى عنه أيضا أنه قال اللّهم لا مرضا يضنيني ولا صحّة تقسيني ولكن بين ذلك

(فصل) في قبض العلم في آخر الزّمان وتغيّر الأحوال من الرّسومات والتّعاليم المحدثة الّتي هي سبب قبضه وانقراضه . ثبت في الصّحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من النّاس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتّى إذا لم يبق عالم اتّخذ النّاس رؤساء جهّالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا قال في مختصر شعب الايمان على هذا الحديث أي أنّ حملة العلم تموت ويبقى المجال واسعا للجهلاء ويمكنك أن تطبقه على عصرنا هذا لأنّ العلم الشّرعيّ والمادّيّ قد وضعا في طريق أحاط بها عوائق كثيرة يشقّ العبور منها إليه

يزعمون أنهم يريدون بذلك تعظيم العلم وتحسين طريق تحصيله ثم
وضعوا رسومات ومصاريف وتقاليد تصد كثيراً من الناس عن
التعلم وتكون سبباً لحرمان طلب العلم النافع ولأنهم ما حضروا
التعاليم إلا بحسب البرنامج الذى قررته المدرسة فلا يحق لشخص
دراسة العلم المحتاج إليه إلا أن يدرس معه ما تشاء المدرسة إما
لمنفعة مخصوصة أو توهين عزيمة الطالب وذلك كله تعميم للجهل
ونشر للضلال بين الناس ولا سيما هذه العائقة الأخرى وهى أن
العلم منحصر فى الذين يحملون ما يسمونه شهادة أهلية أو عالمية أو
ابتدائية ونحو ذلك من الألقاب المصطلح عليها عندهم يمنحون فلاناً
أستاذاً وفلاناً دكتوراً فيتباها بالشهادة المذكورة وذلك اللقب
فيكون سبباً لحرمانه من العلم الحقيق ووسيلة لاضاعة ما تعلمه
فى أثناء التحصيل لأنه رأى نفسه أرفع من غيره لما أوتى من

لَقَب وَشَهَادَة وَهٰذَا بِالنَّظَر لتَقْدِيس النَّاس وَالْحُكُومَات لَهُ حَتَّى صَحّ قَوْلُ الْقَائِل مِنْهُمْ. شَهَادَةٌ بِلَا عِلْمٍ خَيْرٌ مِنْ عِلْمٍ بِلَا شَهَادَةٍ لِأَنَّ مَقْصدهُ التَّعَاظُمُ عَلَى النَّاسِ وَالتَّأْكُلُ بِهِ فَهُوَ عِلْمٌ صُورِيٌّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فَتَرَى الشَّخْص مِنْهُمْ بِهَيْئَتِهِ وَعَظَمَتِهِ يَحُفُّ بِهِ الْكِبْرُ وَيَحْتَاطُهُ التَّجَبُّرُ وَيَغُرُّهُ الْغُرُورُ هِمَّتُهُ تَزْيِينُ ثِيَابِهِ وَتَعْدِيلُهَا فَهُوَ حَسَنُ الظَّاهِرِ خَرَابُ الْبَاطِنِ وَهٰذَا الْفَرِيقُ هُمْ مِنَ الَّذِينَ جَعَلُوا دِينَهُمْ تَبَعًا لِهَوَاهُمْ فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ بِمَدَارِكِ الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ بَلْ غَرَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ فَأَنِفُوا مِنْ تَعَلُّمِ الْعِلْمِ الدِّينِيِّ الَّذِي تَسَمَّوْا بِهِ فِي الظَّاهِرِ وَهُمْ أَعْدَاؤُهُ فِي الْبَاطِنِ بِجَوَابِهِمْ وَفْقَ خَيَالِهِمُ الْفَاسِدِ فَضَلُّوا بِزَيْغِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَبُعْدِهِمْ عَنْ جَادَّةِ الصَّوَابِ وَأَضَلُّوا النَّاسَ الَّذِينَ يَقْتَدُونَ بِهِمْ مَخْدُوعِينَ مِنْهُمْ بِظَوَاهِرِهِمْ وَزَخْرَفَتِهِمُ الْبَاطِلَ لَهُمْ فَصَارَ لَهُمْ مِنَ النَّكَالِ وَالْعَذَابِ قِسْطًا وَافِرًا وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ

(فَصْلٌ) فِى ذِكْرِ شَىْءٍ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ يُرْوَى فِى الْحَدِيثِ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (مِنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ خَرَابُ الْعَامِرِ وَعِمَارَةُ الْخَرَابِ) قَالَ أَبُو السَّعَادَاتِ الْإِخْرَابُ أَنْ يَتْرُكَ الْمَوْضِعُ الْعَامِرُ خَرَابًا وَالْخَرَابُ الْهَدْمُ لِلْعَامِرِ وَالْمُرَادُ مَا تُخَرِّبُهُ الْمُلُوكُ مِنَ الْعُمْرَانِ وَتُعَمِّرُهُ مِنَ الْخَرَابِ بِشَهْوَةٍ لَا إِصْلَاحًا وَيَدْخُلُ فِيهِ مَا يَفْعَلُهُ الْمُتْرَفُونَ مِنْ تَخْرِيبِ الْمَسَاكِنِ الْعَامِرَةِ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ وَتُعَمِّرُهُ مِنَ الْخَرَابِ شَهْوَةً لَا إِصْلَاحًا وَهَذَا ضِدُّ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنَ الزُّهْدِ فِى الدُّنْيَا وَتَرْكِ التَّبَاهِى وَالتَّطَاوُلِ فِى الْبُنْيَانِ وَغَيْرِهِ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا رَوَى عَبْدُ اللهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ رُؤِىَ أَبُو بَكْرٍ وَعَلَى مَنْكِبِهِ عَبَاءَةٌ فَقَالَ رَجُلٌ وَأَوْمَأَ ابْنُ عَوْفٍ بِيَدِهِ كَأَنَّهُ يَقُولُ هَاتِهَا فَقَالَ إِلَيْكَ عَنِّى لَا تَغُرَّنِى أَنْتَ وَابْنُ الْخَطَّابِ مِنْ عِيَالِى قَالَ وَبَلَغَنِى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ وَدِدْتُ

أَنِّى خُضْرَةٌ تَأْكُلُنِى الدَّوَابُّ وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ حَدَّثَنِى أَبِى عَنْ أَبِى مِجْلَزٍ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِى سُفْيَانَ قَالَ إِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُرِدْ أَبَا بَكْرٍ وَلَمْ يُرِدْهَا وَأَرَادَتِ ابْنَ الْخَطَّابِ وَلَمْ يُرِدْهَا وَقَالَ أَيْضًا حَدَّثَنِى أَبِى وَسَاقَ الْحَدِيثَ عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ قَالَ سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ حَضَرَ بَابَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ سُهَيْلُ ابْنُ عَمْرٍو وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ وَأَبُو سُفْيَانَ ابْنُ حَرْبٍ وَنَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ تِلْكَ الرُّؤُسِ وَصُهَيْبٌ وَبِلَالٌ تِلْكَ الْمَوَالِى الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْرًا فَخَرَجَ إِذْنُ عُمَرَ فَأَذِنَ لَهُمْ وَتَرَكَ هٰؤُلَاءِ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ قَطُّ يَأْذَنُ لِهٰؤُلَاءِ الْعَبِيدِ وَيَتْرُكُنَا عَلَى بَابِهِ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْنَا قَالَ فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَكَانَ رَجُلًا عَاقِلًا أَيُّهَا الْقَوْمُ إِنِّى وَاللهِ قَدْ أَرَى الَّذِى فِى وُجُوهِكُمْ أَنَّكُمْ غِضَابًا فَاغْضَبُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ دُعِىَ الْقَوْمُ وَدُعِيتُمْ فَأَسْرَعُوا وَأَبْطَأْتُمْ فَكَيْفَ بِكُمْ إِذَا دُعُوا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَتُرِكْتُمْ أَمَا وَاللهِ لَمَا سَبَقُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْفَضْلِ

مما لا ترون أشد عليكم فوتا من بابكم هذا الذى تنافسهم عليه وقام ونفض ثوبه وانطلق قال الحسن وصدق والله سهيل لا يجعل الله عبدا أسرع إليه كعبد أبطأ عنه وقال سمع عمر رضى الله عنه رجلا يقول اللهم اجعلنى من الأقلين قال يا عبد الله وما الأقلون قال سمعت الله يقول (وما آمن معه إلا قليل) وقال (وقليل من عبادى الشكور) وذكر آيات أخرى فقال عمر رضى الله عنه كل أحد أفقه من عمر . وعن المسور بن مخرمة قال أتى عمر بمال فوضع فى المسجد فخرج إليه يتصفحه وينظر إليه فهملت عيناه فقال له عبد الرحمن بن عوف يا أمير المؤمنين ما يبكيك فوالله إن هذا لمن مواطن الشكر فقال عمر هذا والله ما أعطيه قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء حدثنا عبد الله قال حدثنى أبى عن الحسن قال مر عمر رضى الله عنه على مزبلة فاحتبس عندها وكأنه

شقّ على أصحابه وتأذّوا بها فقال لهم هذه دنياكم التي تحرصون
عليها قلت أراد عمر رضي الله عنه باحتباسهم عند هذه المزبلة حتى
وجدوا من الريح المنتنة ما تأذّوا به ليعرفوا قدر الدّنيا وأنّ آخر
أمرها إلى هذه الحال وأنّ هذه الأبدان التي تقوت بأصل هذه
المزابل ستكون أقبح من هذا وأنتن فكأنه قال هذا مآل دنياكم
التي تشاحنتم لأجلها وما بقي من آثامها في الآخرة أكثر ممّا ساءكم
في الدّنيا . وقد روى ابن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى
الله عليه وسلم قرأ (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)
فقال إنّ النّور إذا دخل القلب انفتح وانشرح فقيل هل له يا رسول
الله من علامة قال التّجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود
والتّزوّد لسكن القبور والاستعداد للموت قبل نزوله فانّ العبد إذا
أقبل على آخرته واستعدّ للموت وتزوّد قبل نزوله وتأهّب لرحيله

قَطَعَ عَنْهُ شَوَاغِلَ الدُّنْيَا وَانْشَرَحَ صَدْرُهُ وَانْفَسَحَ وَسَلِمَ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَغُمُومِهَا وَمُكَابَدَةِ أَهْلِهَا وَتَشَاحُنِهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّحَاسُدِ وَالتَّبَاغُضِ فَهُمْ فِي وَادٍ وَهُوَ فِي وَادِي وَصَارَ فِي رَاحَةٍ وَسُرُورٍ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ لَذَّةِ الطَّاعَةِ وَخُلُوِّهِ بِمُنَاجَاتِ رَبِّهِ وَخَلْوَتِهِ بِذِكْرِهِ وَأُنْسِهِ وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَ أَهْلِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالتَّقَلُّلِ مِنْهَا وَرَأَى سِيرَةَ الْقَوْمِ وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ وَمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِمَّا يَجِدُونَ مِنْ لَذَّةِ الطَّاعَةِ وَحَلَاوَةِ الْمُنَاجَاتِ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ هذه هِيَ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي تُوَصِّلُ إِلَى مَرْضَاتِ اللهِ. وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ

(فَصْلٌ) فِي أَنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى أَخْوَفُ مَا يُخَافُ عَلَى الصَّالِحِينَ

قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَتَيْنِ طُولَ الْأَمَلِ وَاتِّبَاعَ الْهَوَى فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ مُدْبِرَةً وَالْآخِرَةَ أَتَتْ

مُقبلة ولكلّ واحدة منها بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فانّ اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل وروى الامام أحمد عن عمرو بن قيس قال قيل لعليّ رضي الله عنه لم ترقع قميصك قال يخشع القلب ويقتدى بي المؤمن وعنه أيضا رضي الله عنه قال جئت إلى حائط أو بستان فقال لي صاحبه دلوا وتمرة فدلوت كل دلو بتمرة حتّى ملأت كفي ثم شربت من الماء ثم جئت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بملء كفي فأكل بعضه وأكلت بعضه وعن عليّ بن زيد قال كنا مع عليّ بالرحبة فدعى بسيف فسلّه فقال من يشتري هذا فوالله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته . وحدثنا عبد الله ابن الامام أحمد قال حدثني شريح بن يونس قال حدثنا عليّ بن هشام عن صالح بيّاع الأكسية عن أمه أو جدّته قالت رأيت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه اشترى تمرا

بدرهم فحمله فى ملحفة فقالوا نحمله عنك يا أمير المؤمنين قال لا أبو العيال أحق أن يحمله وقال لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنى لأربط الحجر على بطنى من الجوع وإن صدقتى اليوم لأربعون ألفا وقال أبو الدرداء رضى الله عنه لولا ثلاث لصلح الناس شح مطاع وهوى متبع وإعجاب كل ذى رأى برأيه وقال العالم والمتعلم فى الأجر سواء ولا خير فى سواهما وقال أيضا اطلبوا العلم فان لم تطلبوه فحبوا أهله فان لم تحبوهم فلا تبغضوهم وكل من دعى إلى خير فلا بد له من مخالف ومبغض لكن إذا صبر واحتسب فاجره على الله أطيع أمره واتبعت سنته وكان له من الأجر بقدر اجر من أطاعه واتبع سنته وقال صلى الله عليه وسلم (ومن دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شىء) قال تعالى (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون

وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) أَىْ ابتَلى الْغَنِىَّ بِالفقِيرِ وَالصَّحِيحَ بِالْمَرِيض وَالشَّرِيفَ بِالْوَضِيعِ وقَالَ تعالى (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وَقَالَ بعضُ الْمُفَسِّرِين أى نُجْزِيكُمْ بِالْمَصَائِب تَارَةً وَبِالنِّعَم أُخْرَى فننظُرُ من يَشْكُرُهُ ومن يَكْفُرُهُ ومن يَصْبِرُ ومن يَقْنَطُ . قَالَ ابنُ عبَّاسٍ نَبْتَلِيكُمْ بالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ وَالصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ أى فَنُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

(فَصْلٌ) قَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا يَكُونُ فِى آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ وَالْعُكُوفِ عَلَيْهَا وَمَا هُوَ مُوشِكٌ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ فقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبِيتُ قَوْمٌ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى طَعَمٍ وَشُرْبٍ وَلَهْوٍ وَلَعِبٍ فَيُصْبِحُونَ وَقَدْ مُسِخُوا قِرَدَةً

وَخَنَازِير وَيُصِيبهم خَسْف وَقَذْف حَتَّى يُصْبِحَ النَّاس فَيَقُولُون خُسِفَ اللَّيْلَةَ بِبَنِى فُلَان وَخُسِفَ اللَّيْلَةَ بِدَار فُلَان وَلَتُرْسَلَنَّ عَلَيْهِم الرِّيح حِجَارَةً مِنَ السَّمَاء كَمَا أُرْسِلَتْ عَلَى قَوْمِ لُوط عَلَى قَبَائِل فِيهَا وَعَلَى دُورِهِمْ وَلَتُرْسَلَنَّ عَلَيْهِم الرِّيح الْعَقِيم الَّتِى أَهْلَكَتْ عَادًا عَلَى قَبَائِل فِيهَا وَعَلَى دُورِهِمْ بِشُرْبِهِم الْخَمْرَ وَلُبْسِهِمُ الْحَرِير وَاتِّخَاذِهِمُ الْقَيْنَات وَأَكْلِهِمْ الرِّبَا وَقَطِيعَتِهِمْ الرَّحِم وَهَذَا الْحَدِيث قَدْ يَقْرَأُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاس فَيَشُكُّ فِيه لِجَهْله بِمَعْنَاهُ وَعَدَمِ فَهْمِ الْمُرَاد مِنْهُ فَلَا يَتَصَوَّرُ الْمَسْخ وَيَسْتَدِلُّ بِالْحَدِيث الآخر إِنَّ اللهَ لَمْ يَمْسَخْ أُمَّةً فَيَبْقَى لَهَا نَسْلًا وَنَحْوِه مِنَ الْأَحَادِيث الَّتِى لَا تُعَارِضُه فَقَدْ يَتَصَوَّرُ ذَلِكَ فِى أَخْلَاقِهِمْ فَيَظْهَر عَلَى وُجُوهِهِمْ شَبَه بَيِّنٌ بِبَعْض الْحَيَوَانَات وَقَدْ يَكُونُ الْمَسْخُ فِى طِبَاعِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ عَافَانَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَف وُجِدَ أَسَاسُ الْكَعْبَة حَجَرٌ مَكْتُوبٌ فِيه تَعْمَلُونَ السَّيِّآت وَتَرْجُون

الحسنات أجل كما يجتنى من الشوك العنب المعنى إن الذى يعمل السيئات ويصر عليها ويرجوا الحسنات كمثل من يسقى الشوك الماء العذب ويرجوا أن يجتنى منه عنباً انتهى من كلام ابن كثير وذكر أيضاً عن ابن عباس أنه أتاه رجل فقال يا أبا العباس أرأيت قول الله تعالى (فما بكت عليهم السماء والأرض) الآية فهل تبكى السماء والأرض أحداً قال رضى الله عنه نعم إنه ليس أحد من الخلق إلا له باب فى السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله فاذا فقده بكى عليه وإذا فقده مصلاه من الأرض التى كان يصلى فيها ويذكر الله فيها بكت عليه وقال سفيان الثورى عن ابن عباس قال كان يقال تبكى الأرض على المؤمن أربعين صباحاً قال فقلت له أتبكى الأرض فقال أتعجب وما للأرض لا تبكى على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود وما للسماء لا تبكى على

عَبْدٍ كَانَ تَكْبِيرُهُ وَتَسْبِيحُهُ فِيهَا لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ

(فَصْلٌ) فِي أَنَّ النِّظَامَاتِ الْأَجْنَبِيَّةَ لَا تَزِيدُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ إِلَّا نَقْصًا وَأَنَّ النِّظَامَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ فِيهَا إِصْلَاحُ الْأَحْوَالِ كُلِّهَا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنَّهَا فِي اسْتِغْنَاءٍ عَنِ النِّظَامَاتِ الْمُحْدَثَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ فَمِنْ أَكْبَرِ الْأَغْلَاطِ وَأَعْظَمِ الْخَطَأِ اسْتِمْدَادُ الْحُكُومَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْجَمَاعَاتِ وَالْأَفْرَادِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّنْظِيمَاتِ وَالْقَوَانِينِ الْأَجْنَبِيَّةِ وَهٰذَا فِي غَايَةِ الْخَلَلِ وَالنَّقْصِ بِتَقْلِيدِهِمْ فِيمَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ وَتَرْكِهِمُ الِاسْتِمْدَادَ مِنْ دِينِهِمُ الَّذِي فِيهِ الْكَمَالُ وَالتَّكْمِيلُ وَدَفْعُ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ فَاللّٰهُ الْمُسْتَعَانُ مَا بَقِيَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ نَتَسَمَّى بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ وَنَتْرُكُ مَقَامَاتِ دِينِنَا وَأُسُسَهُ وَأَعْمَالَهُ وَنَذْهَبُ نَسْتَمِدُّهَا مِنَ الْأَجَانِبِ وَسَبَبُ ذٰلِكَ الْجَهْلُ بِالدِّينِ وَإِحْسَانُ الظَّنِّ بِالْأَجَانِبِ وَتَقْلِيدُهُمْ فَذَهَبَ الْإِسْلَامُ

وَانفَصَمَتْ عُرَاهُ فَمَنْ تَدَبَّرَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ وَمَا انْتَحَلُوهُ مِنَ الأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مُدَّةٍ قَرِيبَةٍ عَرَفَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخَلَلِ وَالضَّعْفِ فِى جَمِيعِ مَوَادِّ الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ مِنْ تَوْجِيهِ الْوُجُوهِ إِلَى الاسْتِمْدَادِ وَالاعْتِقَادَاتِ وَالأَعْمَالِ وَالْقَوَانِينِ أَمْرٌ كَبِيرٌ وَإِلَّا فَلَوْا عَلِمْنَا حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ مَاجَاءَنَا بِهِ الأَجَانِبُ مِنَ الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ أَنَّهَا مُصَادِمَةٌ لِدِينِنَا وَأَخْلَاقِنَا وَمُرُوءَتِنَا لَرَأَيْتَ لَنَا حَالَةً غَيْرَ هٰذِهِ الْحَالَةِ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ

(فَصْلٌ) لَمَّا تَأَخَّرَ النَّاسُ عَنِ الْمَسَاجِدِ وَاشْتَغَلُوا عَنْهَا بِالأَنْدِيَةِ وَالْقَهَاوِى وَدُورِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَمَجَالِسِ الْبَاطِلِ تَرَاهُمُ الْيَوْمَ عَلَى حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا مِنَ التَّفَرُّقِ وَاخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ وَاسْتِعْمَارِ أَوْطَانِهِمْ وَالتَّحَكُّمِ فِى مَصَالِحِهِمْ يَفْرِضُ عَلَيْهِمُ الأَجْنَبِىُّ الْمُتَغَلِّبُ عَلَيْهِمْ بِتَشَدُّقِهِ وَتَقَعُّرِهِ وَأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ الأَمْرُ إِلَّا بِكَذَا وَيَتَزَعَّمُ فِيهِمُ الْجَاهِلُ

وَالسَّفِيهُ وَعَبْدُ الْهَوَى بِإِرَادَتِهِ وَتَقْلِيدَاتِهِ وَشَطَحَاتِهِ وَنَتَائِجِهِ الْخَبِيثَةِ حَتَّى اسْتَحْكَمَ هٰذَا الدَّاءُ فِي الْعَرَبِ وَصَارُوا آلَةً لِغَيْرِهِمْ يُدِيرُونَهُمْ كَيْفَ شَاؤُا وَيُحَكِّمُونَ فِيهِمُ الْقَوَانِينَ وَالرُّسُومَ الْمُخَالِفَةَ لِشَرْعِنَا قَالَ تَعَالَى (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ) الآيَةَ فَقَدْ وَهَى أَمْرُ الدِّينِ وَانْبَتَّ حَبْلُهُ وَصَارَتِ الْغَلَبَةُ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَائِدَةٌ كَبِيرَةٌ مُهِمَّةٌ تَمَسُّ الْحَاجَةُ إِلَى التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا وَهِيَ: مَا أَحْدَثَهُ النَّاسُ فِي هٰذِهِ الْأَزْمَانِ مِنَ الْمَدَارِسِ وَالْمَعَاهِدِ الَّتِي تُنَافِي ظُهُورَ الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ كَمَا هُوَ الْجَارِي فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ مِنْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانَتْ تَعَالِيمُهُمْ لِأَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ فِي أَحْكَامِهِمْ وَدُرُوسِهِمْ فِي الْمَسَاجِدِ وَأَنَا أُلَخِّصُ لَكَ كَلَامًا لِبَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ حَيْثُ ذَكَرُوا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْمَسَاجِدُ هِيَ مَحَلَّ دُرُوسِ

العلم لأنه لا يتحجر العلم على الراغبين فى استماعه من وعظ وأحكام مما يحتاج إليه الحاضر والبادى فانه إذا خزن العلم وصار عليه بوابون يمنعون من يريد الاستماع والانتفاع بالكتاب والسنة وما يتبعهما من الآداب والحكم فماذا يصير عوام المسلمين ومتى يجدون العلم مشروعا لهم والحالة هذه. وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال إذا خزن العلم فقد كسد ومعنى كلامه ظاهر رحمه الله

(فصل) نذكر فيه كبار العلماء فمن دونهم المتخرجين فى المساجد فى الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى الذى بورك حوله فان المتخرجين فيها لا يحصون كثرة قديما وحديثا وما كانت المدرسة الأولى بل ما كانت الجامعة العلمية للمهاجرين والأنصار إلا فى المسجد حيث يلقى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوحى

إِلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ فَهُمْ يَقْتَدُونَ بِهِ فِى أَفْعَالِهِ الْعَالِيَةِ وَخِصَالِهِ الْحَمِيدَةِ وَهُمْ يَأْخُذُونَهَا سَمَاعًا بِآذَانٍ وَرُؤْيَةً بِالْعَيْنِ وَيَقُولُ لَهُمْ صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِى أُصَلِّى وَتُؤْخَذُ عَنْهُ تَعَالِيمُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمَسْجِدِ كَمَا فِى حَدِيثِ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الَّذِى قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَأَنَاخَ بَعِيرَهُ فِى نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ وَأَخَذَ يُلْقِى عَلَى رَئِيسِ تِلْكَ الْجَامِعَةِ أَسْئِلَتَهُ الْكَثِيرَةَ وَيَسْتَفِيدُونَ بِالْأَجْوِبَةِ النَّافِعَةِ الْمُفِيدَةِ وَيَقُولُ أَخِيرًا إِنَّهُ رَسُولُ مَنْ وَرَاءَهُ وَيَنْصَرِفُ رَاشِدًا وَمُعَلِّمًا وَالْوُفُودُ الْقَادِمُونَ مِنْ مُخْتَلَفِ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ لِتَعَلُّمِ الدِّينِ وَأَحْوَالِهِ وَقَوَاعِدِهِ الَّتِى يَقُومُ عَلَيْهَا فِى أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ يَقْضُونَهَا فِى الْمَسْجِدِ مُتَعَلِّمِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمُ السَّابِقِينَ فِى الْإِسْلَامِ وَمِنَ الْأُسْتَاذِ الْأَكْبَرِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَوَفْدِ ثَقِيفٍ وَالْأَشْعَرِيِّينَ وَعَبْدِ الْقَيْسِ وَغَيْرِهِمْ وَالتَّعْلِيمُ يُلْقَى عَلَى الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ بِأَسَالِيبِ الْحِكْمَةِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ عَقْلِهِ وَعِلْمِهِ

وَاستعدَادِهِ كُلُّ ذَلِكَ فِي الْمَسْجِدِ وَرُبَّمَا جَلَسَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ صَامِتِينَ لَا يَتَكَلَّمُونَ حَيَاءً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسْأَلُونَهُ وَيَأْتِيهِمُ الْأَعْرَابِيُّ يَسْأَلُ عَنْ أَشْيَاءَ يَسْتَفِيدُونَ بِالسُّؤَالِ عَنْهَا وَرُبَّمَا جَاءَ جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ غَرِيبٍ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ وَأَمَارَاتِ السَّاعَةِ فَيَسْتَفِيدُونَ مِنَ الْجَوَابِ عَلَيْهِ وَيَنْقُلُونَ الْعِلْمَ إِلَى مَنْ وَرَاءَهُمْ وَفِي الْحَدِيثِ نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ امْرِئٍ سَمِعَ كَلِمَةً مِنَ الْخَيْرِ وَبَلَّغَهَا إِلَى الْغَيْرِ وَمِنْ هُنَاكَ كَانَتِ الْبُعُوثُ وَالسَّرَايَا وَدُعَاةُ الْإِسْلَامِ وَرُسُلُهُ تُبْعَثُ قِبَلَ الشَّامِ وَالْيَمَنِ وَنَجْدٍ وَإِلَى الْقُرَى الْقَرِيبَةِ وَالْبَعِيدَةِ فَقَدْ كَانَ أَبُو مُوسَى وَمُعَاذٌ يَذْهَبَانِ إِلَى الْيَمَنِ مُعَلِّمِينَ وَلَهُمَا وَلِأَمْثَالِهِمَا يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا) وَأَبُو عُبَيْدَةَ الْمَالِي يَذْهَبُ إِلَى نَجْرَانَ وَالْبَحْرَيْنِ وَيَأْتِي بِأَمْوَالِ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ وَمِثْلُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَأْخُذُ مَا وَقَعَتْ

عَلَيْهِ الْمُسَاقَاتُ فِى خَيْبَرَ مَعَ الْيَهُودِ وَخَالِدٌ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ
وَالْمُهَاجِرُونَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِىّ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ
وَإِخْوَانُهُمْ كَثِيرُونَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْمَسَاجِدِ مُدَرَّبِينَ تَدْرِيبًا عَسْكَرِيًّا
صَالِحِينَ لِلْقِيَادَةِ وَإِمَارَةِ الْجَيْشِ وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِى مَسْجِدِهِ الشَّرِيفِ يَجْلِسُونَ لِلتَّعْلِيمِ وَالشُّورَى
وَالْإِصْلَاحِ وَالْقَضَاءِ وَالْفُتْيَا وَتَنْظِيمِ بَيْتِ الْمَالِ وَاسْتِقْبَالِ الْوُفُودِ
وَكِتَابَةِ الرَّسَائِلِ وَفِى الْحَرَمِ الْمَكِّىّ يَجْلِسُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ
رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ فِى الْمَسْجِدِ وَحَوَالَيْكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ
وَمَكْحُولٌ وَمَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ وَعِكْرِمَةُ وَمِقْسَمٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ
فَهٰذَا يُعَلِّمُ النَّاسَ تَفْسِيرًا وَحَدِيثًا وَفِقْهًا وَأَدَبًا وَهٰذَا أَخُوكَ عَبْدُ اللهِ
يَفْتَحُ دَارَهُ لِلْأَضْيَافِ وَالْقَادِمِينَ إِلَى مَكَّةَ وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ وَهٰذَا
لِشُئُونِ النَّاسِ وَالْآخَرُ لِدِينِهِمْ وَكَمْ تَعَاقَبَ الْعُلَمَاءُ وَالْمُتَعَلِّمُونَ مِنَ

التَّابعينَ وَتَابعِ التَّابعينَ بَعْدَ الصَّحَابَةِ فى مَسَاجِدِ الْأَنْصَارِ كَسَالِمٍ وَعُرْوَةَ وَخَارِجَةَ وَالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَزَيْنِ الْعَابِدِينَ وَأَبُو بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ ثُمَّ ابْنُ شِهَابٍ وَالزُّهْرِىُّ وَهِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ وَعُبَيْدَةُ السَّلْمَانِى وَابْنُ سِيرِينَ كُلُّ أُولَئِكَ يُدَرِّسُونَ النَّاسَ فى الْمَسَاجِدِ وَيَتَخَرَّجُ عَلَى أَيْدِيهِمُ الْأُلُوفُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِىِّ كَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَابْنِ جُرَيْجٍ وَعَبْدِ الرَّزَّاقِ الصَّنْعَانِىِّ وَشَيْخِهِ مَعْمَرٍ وَقَبْلَهُمْ وَبَعْدَهُمْ مِمَّنْ لَا يَأْتِى عَلَيْهِمُ الْحَصْرُ وَفى مَسْجِدِ دِمَشْقَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَامِرٍ مِنَ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ الَّذِى قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ خَطَبَ فى الْمَسْجِدِ عِشْرِينَ سَنَةً وَمَا سَمِعُوا مِنْهُ خُطْبَةً مُعَادَةً وَلَا كَلَامًا مُكَرَّرًا وَفى الْكُوفَةِ عَبْدُ اللهِ ابْنُ مَسْعُودٍ وَتَلَامِيذُهُ مِنْ أَمْثَالِ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثِىِّ وَبَعْدَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَبِيبٍ السَّلَمِىِّ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ وَمِنَ الْقُرَّاءِ

حَمْزَةَ وَالْكِسَائِيُّ وَعَاصِمُ بْنُ أَبِي النُّجُودِ وَفِي الْبَصْرَةِ الْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ وَشَيْخُهُمْ أَنَسُ ابْنُ مَالِكٍ ثُمَّ وَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ وَالنَّظَّامُ وَجَمْعٌ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ. وَسَلْ بَغْدَادَ وَالْمَوْصِلَ وَالْقَاهِرَةَ وَقُرْطُبَةَ وَأَشْبِيلِيَةَ وَالْقَيْرَوَانَ وَسَلْ أَنْطَاكِيَةَ وَحَلَبَ وَحِمْصَ وَحَمَاه وَسَلِ الطَّائِفَ وَالْاحْسَاءَ وَصَنْعَاءَ وَزَبِيدَ وَحَضْرَمَوْتَ وَغَيْرَهَا مِنَ الْأَقْطَارِ الْاسْلَامِيَّةِ كَيْفَ كَانَتْ مَسَاجِدُهَا وَعُلَمَاؤُهَا وَكَيْفَ كَانَ الشَّافِعِيُّ يَقْضِي نَهَارَهُ فِي مَسْجِدِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِالْفُسْطَاطِ وَأَيْنَ كَانَتِ الْأَئِمَّةُ وَرِجَالُ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ يُلْقُونَ دُرُوسَهُمْ فِي شَتَّى الْعُلُومِ وَهَلْ كَانَ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ وَلَوْ بَعَثَ اللهُ مَعْمَرًا وَابْنَ الْمُثَنَّى وَالْقَاسِمَ بْنَ سَلَامٍ وَالْفَرَّاءَ وَالزَّجَّاجَ وَالْمُبَرِّدَ وَالْمَازِنِيَّ وَأَبَا عَمْرِو بْنَ الْعَلَاءِ لَوْ بُعِثَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْجِيلِ الْأَوَّلِ وَبَعْدَهُمُ الرَّازِي وَالْفَرَّاءُ وَالزَّمَخْشَرِيُّ وَالنَّوَوِيُّ وَالرَّافِعِيُّ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَقِيلَ لَهُمْ

مِنْ أَيْنَ تَخَرَّجْتُمْ وَفِى أَىِّ مَدْرَسَةٍ تَعَلَّمْتُمْ لَقَالُوا جَمِيعًا بِلِسَانٍ وَاحِدٍ فِى الْمَسْجِدِ تَعَلَّمْنَا . أَمَّا الْمُجَاهِدُونَ وَرِجَالُ الْعِلْمِ أَيْضًا فَسَلْ عَنْهُمُ الْمَسَاجِدَ لِتُحَدِّثَكَ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ وَالْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ وَأَبِى مُسْلِمٍ الْخُرَسَانِىِّ وَطَارِقِ بْنِ زِيَادٍ وَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِى وَالْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِى صُفْرَةَ وَطَاهِرِ بْنِ حُسَيْنٍ وَابْنِهِ عَبْدِ اللهِ ثُمَّ جَوْهَرٍ الصِّقِلِّى وَمَنْصُورِ بْنِ أَبِى عَامِرٍ الْمُعَامِرِى الْيَمَنِى وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْقُوَّادِ وَالْجُنُودِ وَنُوَّابِ الْخِلَافَةِ وَوُكَلَاءِ الشَّرِيعَةِ فِى الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ كَانَتِ الْمَسَاجِدُ أَبْحُرًا تَدْفَعُ بِالْأَمْوَاجِ مِنْ أَبْطَالِ الْغَزْوِ وَعُلَمَاءِ الدِّينِ وَتَقْذِفُ بِالْجَوَاهِرِ وَاللَّآلِىءِ الْكِبَارِ مِنْ هٰذَا النَّوْعِ فِى مُخْتَلَفِ الْعُصُورِ وَمِنْهَا يَخْرُجُ أَبْطَالٌ أَعْلَامٌ مِنْ قَادَةِ الْفِكْرِ وَانْظُرْ فِى الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ مِنْ كُلِّ عَلَّامَةٍ فَهَّامَةٍ يُمْلِى الْأَحَادِيثَ إِمْلَاءَ الْفَتَى اللَّسِنِ وَمِنْ هٰذَا الْمَعْنَى يَقُولُ بَعْضُهُمْ مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ

وَاضْرِبْ لَنَا الْمَثَلَ الأَعْلَى لِمَنْ خَرَجُوا

مِنَ الْمَسَاجِدِ كَالنَّظَّامِ وَالْحَسَنِ

وَخَالِدٍ وَالْمُثَنَّى وَالأُلَى هَدَمُوا

مَعَالِمَ الشِّرْكِ مِنْ صَرْحٍ وَمِنْ وَثَنِ

وَمَا تَزَالُ بِحَمْدِ اللهِ مَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ مُحْتَفِظَةٌ بِكَرَامَتِهَا وَشَرَفِهَا وَإِعْدَادِهَا لِلْمُصَلِّينَ إِعْدَادًا طَيِّبًا لَوْلَا تَأَخُّرِ النَّاسِ عَنْ حُضُورِ الْجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ وَلَوْلَا اسْتِكْفَائُهُمْ بِالْمَدَارِسِ الْعَصْرِيَّةِ الَّتِي وَضَعَتْ بَرَامِجَ التَّعْلِيمِ مُخَالِفَةً لِمَنَاهِجِ الْمَسَاجِدِ نَازِعَةً عَنِ الْقُرْآنِ مُتَعَلِّمَةً لِلْمَنَاهِجِ وَالتَّعَالِيمِ الأَجْنَبِيَّةِ مُتَبَاعِدِينَ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ فَبَعْدَ مَا صَارَ هَذَا دَعَوْا إِلَى تَرْكِهَا بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَكُلَّمَا كَانَ بَحْثُ الْعِلْمِ وَطَلَبُهُ فِي الْمَسْجِدِ كَانُوا إِلَى صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ أَقْرَبَ وَلِهَذَا لَمَّا فَشَتْ هَذِهِ الْمَدَارِسُ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ آلَاتِ اللَّهْوِ وَالْمَجَلَّاتِ وَالْجَرَائِدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ

رَأَيْتُ هٰذَا الشَّبَابَ قَدْ شَغَفَتْ قُلُوبَهُمْ بِهَا وَتَعَلَّقَتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَجَمِيعُ جَوَارِحِهِمْ ثُمَّ أَعْرَضُوا عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَصَارَ بَدَلُ دِرَاسَةِ الْقُرْآنِ دِرَاسَةَ جُيُوشِ أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَيْنَا الَّتِي هِيَ رُسُلُهُمْ وَبُرُدُهُمْ لَا يَفْتُرُونَ سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا كَرِهَ ضِدَّهُ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ

(فَصْلٌ) لَوْ أَخَذْنَا نُعَدِّدُ أَسْمَاءَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُتَعَلِّمِينَ وَالْمُحَذِّرِينَ مِنْ هٰذِهِ الْمُحْدَثَاتِ وَرُسُومِهَا وَعَادَاتِهَا لَطَالَ بِنَا تَعْدَادُهَا فَالْعُلُومُ كُلُّهَا يَوْمَ رِيَاضِيَّةٌ وَصِحِّيَّةٌ وَدُنْيَوِيَّةٌ وَجُغْرَافِيَّةٌ مَعَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ كَانَتْ تُدَرِّسُ فِيهَا بَعْضَ هٰذِهِ الْعُلُومِ لٰكِنَّهَا دِينِيَّةٌ وَلُغَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَتَارِيخِيَّةٌ قَالَ وَلَا أَكْتُمُكَ الْحَقَّ إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَوْمِ قَدْ أَعْرَضُوا عَنِ الْمَسَاجِدِ وَقَصَّرُوا فِي الْوَاجِبِ وَحَصَرُوا تَعَالِيمَهُمْ فِي الْمَبَادِىءِ الْعَصْرِيَّةِ وَجَعَلُوا مِنْ تَعَالِيمِ الدِّينِ شَيْئًا يَسِيرًا لِيُرَوِّجُوا

عَلَى النَّاسِ عسى انْ يؤْخذ ذلِكَ التعَلّيم منهم ويقبل فأصبح كثيرٌ من النَّاسِ مُقبلين عَلَى تعَاليمهم وصاروا عالَةً عَلَى النَّاسِ يتكففون مافى أيديهم ويحرصون عَلَى رضاء فلان وفلان ولا يقولون بالحق حيث كانوا قد اعتمدوا عَلَى التسول وخرجوا من ميادين العمل وظنوا أنهم ممن تجب النفقة عليهم مع قدرتهم على الاكتساب ولقلة الوظائف الدينية زهد الناس فى هذا النوع من العلم وأصبح أولاد القضاة والمدرسين يلتمسون الرزق بتعلم اللغات الأجنبية متأثرين بما تنقله إليهم المدارس والكتب والأساتذة الذين لاخير فيهم تأثرا يصرفهم عن المساجد وتعاليمها ومن ينكر الفضل على جنوب الجزيرة العربية فى رباط تريم ومسجد الجامع هناك ومسجد طاهر ابن عمر وكذلك مساجد جبلة وزبيد وآب ومن يتخرج منها من الفقهاء والنحويين والفرضيين عددا لايحصون كثرة ولو نظرت

إلى مشاهير اليمن لوجدتهم أبناء المساجد وهل كان الراعى وجمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول إلا من تلاميذ المسجد فى مصر ومحمد بن عبد الوهاب فى نجد والأمير الصنعانى والقاضى الشوكانى بصنعاء وكذلك علوى بمكة والشيخ سليمان بن سحمان والشيخ محمد بن إبراهيم وجماعة من علماء عدن والقائمون بالتدريس والتأليف وخدمة العلم فى صنعاء اليمن كل أولئك متخرجون فى المسجد ومازالت الدنيا عامرة والأمصار زاهرة والمساجد مؤيدة لما بنيت له ومثل هذه الأمة كمثل الغيث لا يدرى الخير فى أوله أم فى آخره ولا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله ولا تقوم الساعة حتى يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويجاهر بالمعاصى ولا سبيل إلى محاربة ذلك والقضاء عليه إلا بالعمل بما كان عليه السلف من

الهُدى والسمت والاقتداء بهم وعلى أيدى الذين يقول الله فيهم (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) وقال تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآت الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وقال تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال) واختلف العلماء فى معنى عمارتها فقيل بناؤها وتشييدها وإصلاحها وترميم ماخرب فيها وأن تسرج وتنظف وتبخر وتنصب فيها المحاريب والمنابر وتتخذ لها المآذن وقيل عمارتها بالصلاة فيها وكثرة التردد إليها وملازمتها للاعتكاف والتلاوة وذكر الله وتعلم العلم وتعليمه وغير ذلك من سائر

العبادات والكل صحيح لا تتم عمارتها إلا به وله شواهد لا تحصى من الكتاب والسنة قال تعالى (وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) وقال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)

فائدة: ليس من عمارة المساجد زخرفتها وتزيينها بالنقوش والتلوين من حمرة وصفرة مما يشغل المصلين ويلفت أنظارهم حتى يصرفهم عن الخشوع والتدبر لما يتلى من آيات الله فان ذلك مما يشغل المصلين ومعلوم أنه ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها ولما سترت عائشة رضي الله عنها جانب بيتها بقرام لها فيه نقش وتصاوير قال لها النبي صلى الله عليه وسلم (أميطي عنا قرامك

هٰذَا فَانَّه لَاتَزَالُ تَصَاوِيرُه تَعْرِضُ لِى فِى صَلَاتِى وَالنَّبِىُّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ صَلَّى مَرَّةً فِى خَمِيصَةٍ ذَاتِ أَعْلَامٍ فَلَمَّا فَرَغَ (قَالَ أَلْهَتْنِى هٰذِه اذْهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِى جَهْمٍ وَأْتُونِى بِأَنْبِجَانِيَّتِه) وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ أَيْضًا أَنَّهُ مَعَ كَمَالِه الَّذِى لَا يُدَانَى فِيه صَلَّى فِى خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلَامٌ فَنَزَعَهَا وَقَالَ أَلْهَتْنِى أَعْلَامُ هٰذِه وَفِى رِوَايَةٍ كَادَتْ أَنْ تَفْتِنَنِى أَعْلَامُهَا وَلَأَنْ كَانَ هٰذَا فِى الْمَلَابِسِ وَالسَّتَائِرِ فَكَيْفَ بِه ثَابِتًا فِى نَفْسِ الْمَسْجِدِ وَسَقْفِه وَجِدَرَانِه وَالْأَخْبَارُ وَالآثَارُ فِى النَّهْىِ عَنْ زَخْرَفَةِ الْمَسَاجِدِ وَنَقْشِهَا وَتَلْوِينِهَا كَثِيرَةٌ جِدًّا قَالَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِى الْمَسَاجِدِ) وَقَالَ أَيْضًا (مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ الْمَسَاجِدِ وَالتَّشْيِيدُ طِلَاءُ الْجُدْرَانِ بِالْجِصِّ وَالْاسْمَنْت مُلَوَّنًا وَنَحْوِهَا وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ لَتُزَخْرِفُنَّهَا كَمَا زَخْرَفَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ وَقَالَ الْإِمَامُ الْمَهْدِىُّ فِى الْبَحْرِ الزَّخَّارِ إِنَّ تَزْيِينَ

الْحَرَمَيْنِ لَمْ يَكُنْ عَنْ رَأْيِ ذِي حَلٍّ وَعَقْدٍ وَلَا سُكُوتٍ عَنْ رِضَى مِنَ الْعُلَمَاءِ وَإِنَّمَا فَعَلَهُ أَهْلُ الدَّوْلَةِ الْجَبَّارَةِ مِنْ غَيْرِ مُؤَاذَنَةٍ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ وَإِنَّمَا عِمَارَتُهَا فِعْلُ الْعِبَادَةِ فِيهَا كَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِ الْعِلْمِ وَالِاعْتِكَافِ فِيهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي ذَمِّ مَنْ يُشَيِّدُهَا وَيُعَطِّلُهَا مِنَ الطَّاعَاتِ

أَمَّا الْمَسَاجِدُ فَهِيَ الْيَوْمَ عَامِرَةٌ
كَأَنَّهَا مِنْ قُصُورِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ

تَرَى عَلَى الْبَابِ وَالْمِحْرَابِ زَخْرَفَةً
تُلْهِيكَ عَنْ كُلِّ مَنْطُوقٍ وَمَفْهُومِ

وَمَا يُصَلِّي بِهَا إِلَّا مُؤَذِّنُنَا
أَوِ الْإِمَامُ وَلَكِنْ دُونَ مَأْمُومِ

وَإِنْ رَأَيْتَ صُفُوفًا فِي مَسَاجِدِنَا
فَمِنْ فَقِيرٍ وَمِسْكِينٍ وَمَحْرُومِ

وَأَوَّلُ مَنْ زَخْرَفَ الْمَسَاجِدَ وَبَالَغَ فِى ذٰلِكَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنِ مَرْوَانَ حِينَ بَنَى الْمَسْجِدَ الْمَعْرُوفَ بِمَسْجِدِ بَنِى أُمَيَّةَ بِدِمَشْقَ وَمَا زَالَ مُحْتَفِظًا بِآثَارِهِ وَلَا بُدَّ أَنَّ لِبِنَائِهِ لَتَأْوِيلَاتٍ أُخَرَ وَلِبِنَائِهِ وَاسْتِعَانَةِ الْوَلِيدِ بِالْأَفْرَنْجِ عَلَى ذٰلِكَ قِصَّةٌ فِى التَّارِيخِ مَعْرُوفَةٌ ذَكَرَهَا ابْنُ كَثِيرٍ وَغَيْرُهُ . وَمَا كَانَ مِنْ عِمَارَتِهَا وَتَنْظِيفِهَا وَتَبْلِيطِهَا مِنْ غَيْرِ تَشْيِيدٍ فَهَذَا جَائِزٌ بَلْ يَجِبُ تَنْظِيفُهَا وَصِيَانَتُهَا عَنْ مَا يُؤْذِى الْمُصَلِّينَ وَالْمَلَائِكَةَ مِنَ الرَّوَائِحِ الْكَرِيهَةِ وَمِنَ الْأَصْوَاتِ الْمُزْعِجَةِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ وَمِنَ الْمُنْكَرِ فِيهَا الزِّيَادَةُ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ فِى الْأَنْوَارِ وَأَعْظَمُهَا الْقَنَادِيلُ الْمُذَهَّبَةُ وَالثُّرَيَّاتُ الْفَاتِنَةُ الْمُشْغِلَةُ فَكُلُّ هٰذَا دَاخِلٌ فِى الْمَكْرُوهِ أَوِ الْمُحَرَّمِ فِى بَعْضِهَا إِلَّا إِذَا قَصَدَ بِهِ إِرْغَامَ الْكَفَرَةِ وَأَعْدَاءِ الدِّينِ إِذَا كَانَ فِى الْبَلَدِ أَحَدٌ مِنْهُمْ فَهَذَا مَحَلُّ نَظَرٍ وَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ بَعْضٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ

(فَصْلٌ) تَصْلِيحُ الْمَسَاجِدِ مَطْلُوبٌ كَمَا تَقَدَّمَ لَكِنْ عِمَارَتُهَا الْحَقِيقِيَّةُ هِيَ مُوَاصَلَةُ الطَّاعَاتِ فِيهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ) الْآيَةَ فَهَذِهِ هِيَ عِمَارَتُهَا الَّتِي بُنِيَتْ لِأَجْلِهَا وَأَئِمَّتُهَا وَمُؤَذِّنُوهَا هُمْ مِنْ أَهْلِ إِصْلَاحِهَا وَهُمْ قَادَةُ الْمُصَلِّينَ وَدُعَاتُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ قَالَ تَعَالَى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) قِيلَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْمُؤَذِّنِينَ وَهُمُ الْمَسْؤُولُونَ عَنْ مُرَاقَبَةِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَوْقَافِ الَّتِي تُصْرَفُ عَلَيْهَا بِأَمْرِ وَلِيِّ الْأَمْرِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا وَصِيٌّ مِنَ الْوَقْفِ وَعَلَيْهِمُ الدَّعْوَةُ إِلَى الصَّلَاةِ مَهْمَا أَمْكَنَ وَانْتِظَارُ الْمُحَافِظِينَ عَلَى الْجَمَاعَةِ بِقَدْرٍ لَا يُخِلُّ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الْمَسْجِدِ قَبْلَهُمْ بِقَدْرٍ مُتَوَسِّطٍ مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرَّجُلِ الَّذِي كَانَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ اجْعَلْ بَيْنَ أَذَانِكَ وَإِقَامَتِكَ قَدْرَ مَا يَفْرُغُ

الآكِلِ مِنْ أَكْلِهِ وَشُرْبِهِ وَعَلَيْهِمُ الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ يَجْعَلْ إِلَيْهَا لِأَنَّهُ فِي حَزْمٍ آكِدٍ وَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ) وَكَذَلِكَ الأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي وُجُوبِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ ثُمَّ لَمْ يُجِبْ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ تِلْكَ الصَّلَاةُ) وَفِي رِوَايَةٍ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا صَلَاةَ لِجَارِ الْمَسْجِدِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ وَجَارُ الْمَسْجِدِ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ النِّدَاءَ) وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ ثُمَّ أُخَالِفُ إِلَى رِجَالٍ لَا يَشْهَدُونَ الْجَمَاعَةَ فَأُحَرِّقُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ) وَفِي لَفْظٍ لَوْلَا مَا فِيهَا مِنَ النِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ لَأَحْرَقْتُهَا عَلَيْهِمْ وَالإِمَامُ وَالْمُؤَذِّنُ الْمُحْتَسِبَانِ الأَجْرَ مِنَ اللهِ لَا بِجُعْلٍ وَلَا غَيْرِهِ هُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ وَأَخْلَصُ

عملا ممن لهم وظائف تجرى ووظائف معدة بالشهر أو بالسنة أو غير ذلك فإن كانا محتاجين فلا بأس بجعل رزق من بيت المال لمؤنتهما من نفقة وكسوة ونحوها مما هو من ضروريات مؤنتهما وعليهما الورع والقناعة والزهد فيما فى أيدى الناس ويحافظ المؤذن على قدر استطاعته على أول الوقت ويكون عارفه به صيتا أمينا على الجيران لا ينظر ولا يلتفت إليهم وأن يكون متطهرا مستقبل القبلة فى الأذان والإقامة لا يلحن فيها لحنا يحيل المعنى كمد الباء فى الله أكبر أو الألف التى مع الجلالة فيها أو الألف التى قبل الكاف فى أكبر أو نصب اللام فى أن محمدا رسول الله فلا يعتد بأذانه ولا إقامته ومنه أيضا حى على الصلاة وفى قوله حيال الفلاح بل لا بد أن يقول حى على الفلاح وكذلك قبلها حى على الصلاة وينبغى أن يترسل فى الأذان ويحدر فى الإقامة وأن يحافظ

عَلَى السُّنَّةِ وَيَتَجَنَّبَ الْبِدَعَ الَّتِي لَمْ تَرِدْ عَنِ السَّلَفِ فِي الْأَذَانِ مِمَّا لَيْسَ مَأْثُورًا عَنِ السَّلَفِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَلَا مَشْرُوعًا. أَمَّا التَّنَحْنُحُ فِي الْمَنَارَةِ لِيَنْتَبِهَ الْجِيرَانُ فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ مَصْلَحَةٌ فَلَا بَأْسَ وَأَنْ يَكُونَ عَلَى شَيْءٍ مُرْتَفِعٍ كَالْمَنَارَةِ إِذَا أَمْكَنَ لِيَكُونَ النِّدَاءُ لِصَوْتِهِ عَلَى حَسَبِ الِاسْتِطَاعَةِ وَالْقُدْرَةِ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (لَا يَسْمَعُ صَوْتَ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ) وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (يُغْفَرُ لِلْمُؤَذِّنِ مُنْتَهَى صَوْتِهِ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ) وَلَا تُقَامُ الصَّلَاةُ إِلَّا بِإِذْنِ الْإِمَامِ لِمَا فِي الْحَدِيثِ الْمُؤَذِّنُ أَمْلَكُ بِالْأَذَانِ وَالْإِمَامُ أَمْلَكُ بِالْإِقَامَةِ وَهُوَ يُسَوِّي الصُّفُوفَ وَيُخَفِّفُ الصَّلَاةَ غَيْرَ مُخِلٍّ بِالْأَرْكَانِ وَالْوَاجِبَاتِ مِنْ غَيْرِ سُرْعَةٍ تَمْنَعُ مَأْمُومًا مِنْ فِعْلِ مَا يُسَنُّ لِيَكُونَ فِي صَلَاتِهِ خَاشِعًا مُطْمَئِنًّا لِأَنَّ

الخُشُوعَ هُوَ لُبُّ الصَّلَاةِ وَيَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ مِنْ قِصَارِ الْمُفَصَّلِ وَالْبَقِيَّةَ مِنْ أَوْسَاطِهِ وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْ طُوَالِهِ وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فِي الْفَجْرِ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَقْرَؤُنَ بِالنَّحْلِ وَيُونُسَ وَهُودٍ وَغَيْرِهِمَا مِنَ السُّوَرِ فَقَدْ قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَغْرِبِ بِالْأَعْرَافِ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ فِيهَا وَيُسْتَحَبُّ لِلْإِمَامِ أَيْضًا انْتِظَارُ الدَّاخِلِ لِيُدْرِكَ الرَّكْعَةَ أَوِ الْجَمَاعَةَ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ عَلَى الْمُصَلِّينَ وَلَا يُفَاضِلُ بَيْنَ الدَّاخِلِينَ وَلَا يَنْتَظِرُ الَّذِي يَخِلُّ بِتَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ وَلَا يَحْتَسِبُ الْمَسْبُوقُ الرَّكْعَةَ الَّتِي شَكَّ هَلْ أَدْرَكَ الْإِمَامَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ بَلْ إِنْ تَيَقَّنَ دُخُولَهُ مَعَهُ قَبْلَ رَفْعِهِ وَإِلَّا فَلَا يَحْتَسِبُهَا وَمَعَ الشَّكِّ يَأْتِي بِالرَّكْعَةِ بَعْدَ سَلَامِ إِمَامِهِ وَيَسْجُدُ لِلسَّهْوِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُسَبِّحَ الْإِمَامُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ حَتَّى يَسْتَرِيحَ مَنْ خَلْفَهُ وَيَأْتُونَ بِالْوَاجِبِ مِنَ

التسبيح بتؤدة وسكون وفى الحديث من أم قوما فليتق الله وليعلم أنه مسؤل وأنه ضامن وأنه إن أحسن كان له من الأجر مثل أجر من صلى خلفه من غير أن ينقص من أجورهم شىء وما كان من نقص من جهته فهو عليه والله الموفق

(فصل) فى فضل صلة الرحم والقرابة وتعظيم حقهم وإن جفوك قال الله تعالى (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) قال بعض المفسرين فى هذه الآية أولئك إشارة إلى المذكورين الذين لعنهم الله لإفسادهم وقطعهم الأرحام فأصمهم عن استماع الحق وأعمى أبصارهم فلا يهتدون سبيله وصراطه المستقيم فبصلة الأرحام تقوى المودة وتزيد المحبة وتشتد عرى القرابة وتزول العداوة والبغضاء ويحن ذو الرحم إلى رحمه وأهله فتجد منهم

الأَنْصَارَ وَالْأَعْوَانَ وَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا صِلَةَ لِمَنْ لَا يَصِلُ أَرْحَامَهُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الدِّينِ أَمْرٌ بِهَٰذَا لَكَانَ فِي الطِّبَاعِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَيَمِيلُ بِالْإِنْسَانِ إِلَيْهِ فَكَيْفَ وَقَدْ حَضَّ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ وَمَنِ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَلْبَسُ فِي تَرَفٍ وَرَفَاهِيَةٍ وَأَهْلُهُ عُرَاةٌ أَوْ جِيَاعٌ إِلَّا الَّذِي لَا شُعُورَ لَهُ يَنْتَفِعُ بِهِ وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي تَطِيرُ بِهِ فَإِنَّكَ بِهِمْ تَصُولُ وَتَطُولُ وَهُمُ الْعُدَّةُ عِنْدَ الشِّدَّةِ أَكْرِمْ كَرِيمَهُمْ وَعُدْ سَقِيمَهُمْ وَأَشْرِكْهُمْ فِي أُمُورِكَ وَيَسِّرْ عَلَى مُعْسِرِهِمْ وَمِنْ حَقِّ أَرْحَامِكَ عَلَيْكَ أَنْ تَعُودَ مَرِيضَهُمْ وَتُوَاسِيَ فَقِيرَهُمْ وَتَرْحَمَ صَغِيرَهُمْ وَتَكْفُلَ يَتِيمَهُمْ وَتُوَقِّرَ كَبِيرَهُمْ وَتُؤْثِرَهُمْ بِالْخَيْرِ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَإِنْ جَفَوْكَ وَتَصِلَهُمْ وَإِنْ قَطَعُوكَ وَفِي الْحَدِيثِ لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِيءِ وَلَٰكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا وَقَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونَنِي وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ وَأَحْلُمُ عَلَيْهِمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ مَادُمْتَ عَلَى ذَلِكَ) وَمَعْنَى تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ أَيْ تَضَعُ فِي أَفْوَاهِهِمُ الرَّمَادَ الْحَامِي وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْطَعُ عَوَاطِفَهُ وَيَذْهَبُ عَنْهُ رُشْدُهُ فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى أَهْلِهِ وَلَا يَسْأَلُ عَنْهُمْ وَلَا يُجِيبُهُمْ وَلَا يُرِيدُ الْاتِّصَالَ بِهِمْ إِنْ قَرُبُوا مِنْهُ أَقْصَاهُمْ وَإِنْ بَعُدُوا عَنْهُ تَنَاسَاهُمْ وَقَدْ يَكُونُ فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ وَأَصْدِقَاؤُهُ كُلُّهُمْ أَجَانِبُ يُوَسِّعُ لَهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَيَلِينُ لَهُمْ فِي حَدِيثِهِ بَلْ وَيُقِيمُ لَهُمُ الْوَلَائِمَ وَيُطْعِمُهُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَأَحَدُ أَقَارِبِهِ جَائِعٌ عَارٍ وَمُحْتَاجٌ وَفِي الْحَدِيثِ أَسْرَعُ الْخَيْرِ ثَوَابًا الْبِرُّ وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَأَسْرَعُ الشَّرِّ عُقُوبَةً الْبَغْيُ وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ وَهَذِهِ الْأُمُورُ الْمُبْتَدَعَةُ الْهَمَجِيَّةُ الَّتِي يُسَمُّونَهَا مَدَنِيَّةً قَدْ أَبْطَلَتِ الْأَخْلَاقَ الْعَرَبِيَّةَ وَأَفْسَدَتِ الْأُمُورَ

الدينية الشرعية فعقوا الآباء وقطعوا الأرحام وفعلوا الفواحش وارتكبوا الآثام قال تعالى (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا) الآية وقال تعالى (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) الآية

(فصل) فى ذم المزاح والنهى عنه روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كتب إلى عماله أن امنعوا الناس من المزاح فانه يذهب بالمروءة ويوغر الصدر. وروى عنه أيضا أنه قال من كثر ضحكه قلت هيبته ومن مزح استخف به ومن أكثر من شىء عرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله اتقوا الله وإياكم والمزاح فانه يورث الضغينة ويجر إلى القبيح من القول والفعل وكان يقول تحدثوا بالقرآن

فَانْ ثقلَ عليكمْ فحديثٌ حسنٌ وَقالَ حكيمٌ لولَده يا بنىّ لا تمازحِ الشريفَ فيحقدَ عليكَ ولا الدنىء فيتجرأ عليكَ وقالَ بعضُ الحكماء لكلّ شىء بذرٌ وبذرُ العداوة المزاحُ وإيَّاكَ إيَّاكَ المزاحَ فانَّهُ يجرىءُ عليكَ الطفلَ والرجلَ النذلَ وربَّما أورثَ العداوةَ والبغضاءَ وكمْ وجدَ من سبابٍ وقتلٍ بسببِ هذا النوعِ ومنْ ذلكَ أنْ يصرخَ فى وجهِ آمنٍ أوْ يزعجهُ بصياحٍ أوْ ترويعٍ بأىّ شىء كانَ ويدخلُ فى ذلكَ السوقُ العنيفُ بالسيَّاراتِ والدابَّة الجموحِ وما يفعلهُ السفلةُ من الصواريخِ المفرقعةِ فى الأعيادِ ونحوها وما يطرحونهُ من صورِ الحيَّاتِ والثعابينِ على بعضِ الناسِ وهمْ لا يعرفونها فيتوهمُ المطروحةُ عليهِ الشرَّ فينزعجُ منْ ذلكَ فربَّما أعقبها مرضٌ مخوفٌ وما أكثرَ ضحايا المزاحِ المذمومِ وقدْ وردَ فى ذمّه أحاديثُ تقدمَ بعضها ومنهُ قولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المزاحُ استدراجٌ من الشيطانِ

وَاخْتِلَاسٌ مِنَ الْهَوَى وَقَوْلُهُ أَيْضًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا تُمَارِى أَخَاكَ وَلَا تُمَازِحْهُ وَلَا تَعِدْهُ مَوْعِدًا فَتُخْلِفَهُ) نَعَمْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْزَحُ وَلٰكِنْ لَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا وَكَانَ يُدَاعِبُ أَصْحَابَهُ أَحْيَانًا بِمَا يُذْهِبُ وَحْشَتَهُمْ وَيَجْلِبُ مَا يُؤْنِسُهُمْ

(فَصْلٌ) قَدْ تَرَى كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ضَعِيفًا فِى عِبَادَةِ رَبِّهِ نَشِيطًا فِى هَوَى نَفْسِهِ مُقْبِلًا عَلَى الشَّهَوَاتِ مُعْرِضًا عَنِ الطَّاعَاتِ وَلِهٰذَا تَجِدُ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَمَنْ تَنْتَابُهُ الْأَمْرَاضُ سَهْلَةً عَلَيْهِ الْعِبَادَةُ فِى الْغَالِبِ وَتَجِدُ الرَّجُلَ الْجَلْدَ صَحِيحَ الْبَدَنِ مَرِيضَ الْقَلْبِ ثَقِيلَةً عَلَيْهِ الطَّاعَةُ بِطُولِ أَمَلِهِ وَاسْتِبْعَادِهِ لِحُلُولِ أَجَلِهِ وَقَدْ قِيلَ:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَهْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَىَّ مَفْسَدَهْ

وَفِى الْأَثَرِ اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ اغْتَنِمْ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ

وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ فَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الشَّبَابَ ضَيْفٌ لَا يَعُودُ وَفُرْصَةٌ إِذَا مَرَّتْ فَلَا رُجُوعَ لَهَا فَحَقِيقٌ بِهِ أَنْ يَشْغَلَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ وَأَنْ يَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى مَصَالِحِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ فَمَنِ اعْتَادَ شَيْئًا فِي صِغَرِهِ فَقَدْ يَعْتَادُهُ فِي كِبَرِهِ

(فَصْلٌ) مَنْ تَهَاوَنَ بِالْعَمَلِ الْمَنْدُوبِ إِلَيْهِ فَقَدْ يَتْرُكُ الْعَمَلَ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَسَاهَلَ بِالْمَكْرُوهِ قَادَهُ إِلَى الْمَحْظُورِ وَقَدْ تَجِدُ بَعْضًا مِنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ يَتَعَمَّقُ وَيَتَكَلَّفُ فِي مَا هُوَ مُبَاحٌ فَيَقُولُ هَذَا لَا يَصِحُّ فِعْلُهُ وَيُبِيحُ أَشْيَاءَ مَحْظُورَةً فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ مُوَافَقَةُ الْأَغْرَاضِ وَشَهَوَاتِهِ أَوْ خَوْفًا عَلَى شَيْءٍ يَفُوتُهُ لَوْ لَمْ يُوَافِقْ عَلَيْهِ مِنْ رِيَاسَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَمَنْ تَهَاوَنَ بِارْتِكَابِ الْمَكْرُوهِ قَادَهُ ذَلِكَ إِلَى ارْتِكَابِ الْمَحْظُورِ وَمَنْ تَزَيَّنَ بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَهُوَ لَا يُرِيدُهَا وَلَا يَطْلُبُهَا لُعِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَابُ

بالرِّيَاء إلَّا الَّذين يَعملُونَ الخَيْرَ بظَوَاهرهِم وَهُمْ بالله وَآيَاته يَسْتَهْزِؤُنَ فَمَنْ تَأَمَّلَ أَحوَالَ هَذا الجيل وَانقلابَهُ وَاسْتحْسَانَهُ مَا جَاءَ به هؤُلاَء الصَّعَافقة العُقول من تَغَيُّر الدِّين وَالفطَر وَالعقُول وَالآدَاب وَالشِّيمَة العَربيَّة وَجدهم قد نبذُوا أَمْرَ الله وَرَاءَ ظُهُورهم فَاستَحْسَنُوا القَوانينَ الافرَنجيَّة وَمَا يَتْبَعهَا من قَوْل أَوْ فعل قَدْ غَيَّرتهُمْ المُخَالطَاتُ وَالتَّقليدَاتُ فَلَم يلتزمُوا مَاكَانَ عَلَيْه سَلَفهم وَأَهَاليهِمْ الَّذينَ أَقَامُوا الدِّين بعدَ اعوجَاجه فَنَصَبُوا أَعْلاَمَهُ وَرَايَاته شعْرًا

يَسيرُ الوَالدَان عَلَى طَرَيق ... وَيَنْتَقدَان سَيرَ الوَلَد فيهَا

وَمَاذَا أَنْتَ قَائله لشَخْص ... يَقُولُ سَبيلُ أَهْلي أَقْفيهَا

وَفَضْلُ المَرْء يُولده رَشيدٌ ... وَجَهْلُ المَرْء يُولدهُ سَفيهَا

يُشيرُ فى البَيْت الأَوَّل إلَى أَنَّ الوَالدَيْن يَهْديَان وَلَدَهمَا عَلَى مَا كَانَا عَلَيْه منَ السَّمْت وَيَدلَّانه عَلَى طَريقهمَا وَفى الثَّاني يُشير

إِلَى أَنَّ الْوَلَدَ يَقُولُ سَبِيلُ أَهْلِي أَقْفِيهَا فَتَعَذَّرَ فِي ذَٰلِكَ لِأَنَّ هَٰذَا هُوَ الَّذِي هَذَّبَانِي عَلَيْهِ وَدَلَّلَانِي عَلَيْهِ فَلِي عُذْرٌ فِيمَا قَلَّدْتُهُمْ بِهِ وَفِي الثَّالِثِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الرَّشِيدَ يُولَدُ رَشِيدًا وَالْجَاهِلُ يُولَدُ سَفِيهًا فَمِنْ ذَٰلِكَ تَعْجَبُ فَمَنْ كَانَ عَلَى الْجَادَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ هُوَ وَأَهْلُهُ وَأَهْلُ وَطَنِهِ ثُمَّ يَخْرُجُ وَيَرْتَكِبُ التَّعَاسِيفَ فَيَسْتَحِلُّ الدِّينَ وَأَهْلَهُ وَيُضْعِفُ رَأْيَهُمْ وَعُقُولَهُمْ وَمَعْرِفَتَهُمْ وَيَنْتَقِدُ عَلَيْهِمْ وَيُفَنِّدُ رَأْيَهُمْ فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ رَيْنِ الذُّنُوبِ وَانْتِكَاسِ الْقُلُوبِ فَإِذَا لَمْ يَشْغَلِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ بِذِكْرِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ مَعَ صِحَّتِهِ وَفَرَاغِهِ وَجَدَتْهُ أَشْغَلَتْهُ نَفْسُهُ بِمَا لَا يَعْنِي وَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يُرْضِي. فَهَنِيئًا لِشَابٍّ تَقِيٍّ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالْمَسَاجِدِ وَجَالَسَ أَهْلَ الْخَيْرِ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ وَاغْتَنَمَ شَبَابَهُ قَبْلَ هَرَمِهِ وَصِحَّتَهُ قَبْلَ سَقَمِهِ وَغِنَاهُ قَبْلَ فَقْرِهِ فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ بِأَضْدَادِهَا فَحُبُّ الْمَرْءِ لِأَهْلِ الدِّينِ عِبَادَةٌ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى طِيبِ نَفْسِهِ وَطَهَارَةِ قَلْبِهِ وَأَنَّهُ عِنْدَ اللهِ بِمَنْزِلَةِ

عَالِيَةٍ حَيْثُ يُحِبُّ فِى اللهِ لَا لِأَجْلِ حَظٍّ دُنْيَوِىٍّ وَأَمَّا سَائِرُ مَحَبَّةِ النَّاسِ فَهِىَ لِحُظُوظِهِمْ وَأَغْرَاضِهِمْ وَقَدْ تَكُونُ الرَّابِطَةُ بَيْنَهُمْ مِنْ نَسَبٍ أَوْ صَدَاقَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ وَهَـٰذِهِ قَدْ تَكُونُ مُسْتَحَبَّةً أَوْ مُبَاحَةً وَضِدُّ هَـٰذَا مَنْ يُبْغِضُ أَهْلَ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ فَلَا يُوَالِيهِمْ وَلَا يُدَانِيهِمْ وَلَا يَسْتَأْنِسُ بِهِمْ بَلْ هُوَ مُسْتَوْحِشٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُسْتَوْحِشُونَ مِنْهُ فَهَذَا هُوَ النِّفَاقُ الَّذِى لَا يُرْجَى لِصَاحِبِهِ نَجَاةٌ وَقَدْ كَثُرَ هَـٰذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ لَا كَثَّرَهُمُ اللهُ وَقَدْ تَجِدُ مِنْهُمْ مَنْ يُبْغِضُ أَقَارِبَهُ وَرَحِمَهُ الَّذِى هُوَ مِنْهُمْ إِذَا لَمْ يُوَافِقُوهُ عَلَى أَخْلَاقِهِ بَلْ يَنْهَوْنَهُ عَنْ ذَٰلِكَ فَيَنْفِرُ مِنْهُمْ وَمِنْ مُجَالَسَتِهِمْ حَتَّى يَصِيرَ عَدُوًّا لَهُمْ أَمَّا الْمُتَحَابُّونَ فِى اللهِ فَهُمُ الَّذِينَ تَدُومُ أُخُوَّتُهُمْ وَتَبْقَى مَوَدَّتُهُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا لِكَوْنِهَا خَالِصَةً مِنَ الْإِثْمِ وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ قَالَ تَعَالَى (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) وَفِى الْحَدِيثِ ابْدَءِ الْمَوَدَّةَ لِمَنْ وَادَّكَ فَإِنَّهَا أَثْبَتُ

(فَصْلٌ) فى ذَمِّ الشِّبَعِ وَالتَّنَعُّمِ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَيْسُوا عِبَادَ اللهِ بِالْمُتَنَعِّمِينَ) وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنَ قَالَ بَعْضُهُمْ ظُهُورُ السِّمَنِ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ وَكُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ وَلَا سِيَّمَا إِذَا انْشَغَلَ عَنِ الطَّاعَاتِ وَالتَّشْمِيرِ فِى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ وَإِذَا غَرِقَ النَّاسُ فِى التَّرَفُّهِ وَاشْتَغَلُوا بِتَنْمِيَةِ أَجْسَامِهِمْ لَمْ يُبَالُوا بِمَا أَكَلُوا مِنَ الْحَرَامِ أَمْ مِنَ الْحَلَالِ فَهِمَّتُهُمُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَدَأْبُهُمُ الاشْتِغَالُ بِطَيِّبَاتِ الْعَيْشِ وَمَلَاذِّهِ غَيْرَ شَاكِرِينَ للهِ عَلَى نِعَمِهِ وَلَا جَادِّينَ فِى طَاعَتِهِ فَهُمُ الَّذِينَ ضَعُفَتْ قُلُوبُهُمْ وَقَوِيَتْ شَهَوَاتُهُمْ وَتَضَخَّمَتْ أَجْسَامُهُمْ فَأَثْقَلَهُمُ السِّمَنُ عَنِ الْخَيْرِ وَأَبْطَأَ بِهِمْ عَنْ لُحُوقِ الْقَافِلَةِ وَالرَّكْبِ شِعْرٌ :

وَمَنْ هِمَّتُهُ مَا يَلِجُ فَمِنْ بَطْنِهِ قِيمَتُهُ مَا يَخْرُجُ

وَمِنَ الْمَأْثُورِ أَنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْحَبْرَ السَّمِينَ إِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ

منه أن تبرئه العبادة وأن يقل لحمه لكثرة الصيام والقيام وعلى كل فالسمن لا يستوجب صاحبه المقت ودخول النار إلا إذا كان صاحبه من الذين تعجلوا طيباتهم فى الحياة الدنيا بالمآكل والمشارب فلا يبالى ما أخذه من حلال أو حرام بأى وجه حصل

(فصل) النفاق دخول المرء من باب وخروجه من آخر وفى الشرع وصف لقوم أظهروا الإسلام ليحرزوا به حقوقهم وقلوبهم كافرة وقد لعن الله المنافقين وذمهم وتوعدهم بأليم العقاب دأبهم الغش والمكر والخداع وسعيهم فى الأرض بالفساد والغيبة والنميمة وشهادة الزور وإخلاف الوعد ونقض العهود والخيانة فى الأمانة وإغراء العداوة بين المسلمين وهم بخلاء أذلاء سفهاء ظواهرهم جميلة وأبدانهم سمينة يغتر بهم السامع لنظافة ثيابهم وحلاوة حديثهم وبواطنهم قبيحة بالكبر والمكر والحسد والرياء

وَسَائِر الأَمْرَاض النَّفْسِيَّة وَهُمْ مِنَ الَّذِين قَالَ الله فِيهِمْ (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) فَالْمُنَافِقُ الْمُخَامِرُ أَضَرُّ عَلَى الإِسْلَامِ مِنَ الْعَدُوِّ الْمُهَاجِمِ مِنَ الْخَارِجِ لِأَنَّهُ قَدْ يُعْرَفُ بِعَدَاوَتِه وَإِظْهَارِ الْكُفْرِ فَيُتَحَذَّرُ مِنْهُ وَالْمُنَافِقُ قَدْ أَبْطَنَ خِلَافَ مَا أَظْهَرَ فَهَذَا صَارَ شَرًّا مِنَ الْكَافِرِ

(فَصْلٌ) إِذَا تَعَلَّقَتِ النَّفْسُ بِشَيْءٍ وَتَخَلَّقَتْ بِهِ عُرِفَتْ بِهِ حَقًّا كَانَ أَوْ بَاطِلًا وَصَارَ صَاحِبُهَا مَمْدُوحًا بِهِ أَوْ مَذْمُومًا عَلَيْهِ وَخَيْرُ مَا يُمْدَحُ بِهِ الْمَرْءُ هُوَ الصِّدْقُ فِى الْحَدِيثِ وَتَجَنُّبُ الْكَذِبِ وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ لَفْظُ الصِّدْقِ يُسْتَعْمَلُ فِى سِتَّةِ مَعَانٍ صِدْقٌ فِى الْقَوْلِ وَصِدْقٌ فِى النِّيَّةِ وَالإِرَادَةِ وَصِدْقٌ فِى الْعَزْمِ وَصِدْقٌ فِى الْوَفَاءِ بِالْعَزْمِ وَصِدْقٌ بِالْعَمَلِ وَصِدْقٌ فِى تَحْقِيقِ مَقَامَاتِ الدِّينِ كُلِّهَا فَمَنِ اتَّصَفَ بِالصِّدْقِ

فِى جَمِيعِ ذٰلِكَ فَهُوَ صِدِّيقٌ لِأَنَّهُ مُبَالَغَةٌ فِى الصِّدْقِ وَعَكْسُهُ الْكَذِبُ الْمَمْقُوتُ صَاحِبُهُ الْمَوْصُوفُ بِالْفُجُورِ وَالْفُجُورُ يَهْدِى إِلَى النَّارِ رُوِىَ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ وَجَدْتُ عَلَى حَاشِيَةِ التَّوْرَاةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ حَرْفًا كَانَ صُلَحَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ يَجْتَمِعُونَ فَيَقْرَأُونَهَا وَيَتَدَارَسُونَهَا وَهِىَ لَا كَنْزَ أَنْفَعُ مِنَ الْعِلْمِ وَلَا مَالَ أَرْبَحُ مِنَ الْحِلْمِ وَلَا حَسَبَ أَوْضَعُ مِنَ الْغَضَبِ وَأَزْيَنُ مِنَ الْعَمَلِ وَلَا رَفِيقَ أَشْيَنُ مِنَ الْجَهْلِ وَلَا شَرَفَ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوٰى وَلَا كَرَمَ أَوْفَى مِنْ تَرْكِ الْهَوٰى وَلَا عَمَلَ أَفْضَلُ مِنَ الْفِكْرِ وَلَا حَسَنَةَ أَعْلَا مِنَ الصَّبْرِ وَلَا سَيِّئَةَ أَخْزٰى مِنَ الْكِبْرِ وَلَا دَوَاءَ أَلْيَنُ مِنَ الرِّفْقِ وَلَا دَاءَ أَوْجَعُ مِنَ الْكَذِبِ وَلَا رَسُولَ أَعْدَلُ مِنَ الْحَقِّ وَلَا دَلِيلَ أَنْصَحُ مِنَ الصِّدْقِ وَلَا فَقْرَ أَذَلُّ مِنَ الطَّمَعِ وَلَا غِنَى أَشْقٰى مِنَ الْجَمْعِ وَلَا حَيَاةَ أَطْيَبُ مِنَ الصِّحَّةِ وَلَا مَعِيشَةَ أَهْنٰى مِنَ الْعِفَّةِ وَلَا عِبَادَةَ أَحْسَنُ مِنَ

الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أفضل من الصمت ولا غائب أقرب من الموت وليس الدين محض صلاة وصيام وتلاوة وتسبيح وحج وصدقة وغير ذلك من عبادة بدنية أو مالية فقط ولكن طاعة الله بهذه الأمور وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر وترك الذنوب واجتناب المعاصى أحب إلى الله من عبادة الطائفين والعاكفين والركع السجود والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ولا شك أن الانسان قد يعتدى على غيره بعينه وأذنه ورجله وفرجه ويده ولكن أكثر ما يكون الأذى باليد التى هى آلة الفعل واللسان الذى هو آلة القول (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) وشر الناس من ظلم الناس للناس فلا ينبغى للمسلم أن يسلم أخاه المسلم لمكروه يحل به أو مصيبة تنزل به

وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ

(فَصْلٌ) فى ذَمِّ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ وَالْحَسَدِ رُوِىَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبْلَ الْحِسَابِ بِسَنَةٍ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هُمْ قَالَ الْأُمَرَاءُ بِالْجَوْرِ وَالْعَرَبُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَالدَّهَاقُونَ بِالتَّكَبُّرِ يَعْنِى أَهْلَ التَّرَأُّسِ عَلَى النَّاسِ وَالتُّجَّارُ بِالْخِيَانَةِ وَأَهْلُ الرَّسَاتِيقِ بِالْجَهَالَةِ وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ وَلَا تَرَى حَاسِدًا إِلَّا كَئِيبًا حَزِينًا مُعَارِضًا لِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ .

(فَصْلٌ) قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ بِضَاعَةُ الشَّيْطَانِ خَمْسَةُ أَصْنَافٍ وَعُمَلَاؤُهُ خَمْسَةٌ وَهِىَ الْحَسَدُ وَيَشْتَرِيهِ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَالْكِبْرُ وَيَشْتَرِيهِ الْأَرَاذِلُ وَالْجَوْرُ وَيَشْتَرِيهِ الْأُمَرَاءُ وَالْخِيَانَةُ وَيَشْتَرِيهَا التُّجَّارُ وَالصُّنَّاعُ وَالْكَيْدُ وَيَشْتَرِيهِ النِّسَاءُ وَسَائِرُ الضُّعَفَاءِ وَإِنَّمَا يَتَحَاسَدُ الْعُلَمَاءُ إِذَا كَانَ عِلْمُهُمْ لِغَيْرِ اللهِ وَأَرَادُوا بِهِ صَرْفَ وُجُوهِ النَّاسِ

إليهم فهناك يحصل التحاسد بينهم والتزاحم عند الوظائف ويصير كل يطلب الرفعة على الآخر ويرى أنه هو العالم وأن غيره دونه فيطلب نقص غيره برفعة نفسه وليس هذا من سيما العلماء العاملين بعلمهم ولا من الانصاف كما قال بعضهم

وليس من الانصاف أن يدفع الفتى
يد النقص عنه بانتقاص الأفاضل

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من عمل الرياء والسمعة وأن يعمل العبد عملا يبتغي به الشهرة وثناء الناس عليه لأنه لا يصنع الخير حبا له ولا يترك الشر كراهية له بل ربما إذا خلا بنفسه ارتكب العظائم واقترف الجرائم وقصر في الواجبات والمندوبات ومن أحسن الصلاة حين يراه الناس وأساءها حين يخلوا فتلك استهانة استهان بها ربه تبارك وتعالى واتصف فيها

بصفات المنافقين (الذين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) وقال صلى الله عليه وسلم (يخرج فى آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله عز وجل أبى يفترون أم على يجترؤن فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيرانا ومن تزين بعمل الآخرة وهو لا يريدها ولا يطلبها لعن فى السموات والأرض لأنه إنما عمل ما عمل تصنعا أو طلبا لأغراضه وشهواته فصار ممقوتا مطرودا من مظان الرحمة وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال إن فى جهنم واديا تستعيذ منه فى كل يوم أربعمائة مرة أعد ذلك الوادى للمرائين من أمة محمد لحامل

الْقُرْآنِ وَالْمُتَصَدِّقِ فِى غَيْرِ ذَاتِ اللّٰهِ وَالْحَاجِ إِلَى بَيْتِ اللّٰهِ وَالْخَارِجِ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ يَعْنِى الْمُرَائِينَ وَكُلُّ عَمَلٍ فِيهِ رِيَاءٌ مَعْدُودٌ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَإِنْ كَانَ صَالِحًا فِى ظَاهِرِهِ . وَعَلَى الإِخْلَاصِ وَعَدَمِهِ يَتَرَتَّبُ حُسْنُ الْخَاتِمَةِ وَسُوءُهَا

(فَصْلٌ) وَيَدْخُلُ فِى مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللّٰهُ بِهِ) الَّذِينَ يُشَقِّقُونَ الْخُطَبَ وَيُنَسِّقُونَ الأَلْفَاظَ وَيَتَقَعَّرُونَ فِى الأَلْفَاظِ وَيُمَطِّطُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالتِّلَاوَةِ لِيُقَالَ أَصْوَاتُهُمْ حَسَنَةٌ وَأَلْسِنَتُهُمْ فَصِيحَةٌ وَمَالَهُمْ مِنْ بَلَاغَةِ الْقَوْلِ إِلَّا مَا تَسْتَحْسِنُهُ الآذَانُ وَلَا يَنْفُذُ مِنْهَا إِلَى الْقُلُوبِ شَىْءٌ وَلِهٰذَا لَا يَخْشَعُ لَهَا قُلُوبُ الْمُسْتَمِعِينَ وَلَا يَجِدُونَ لَهَا رِقَّةً وَلَا حَلَاوَةً لِأَنَّهَا صَدَرَتْ مِنَ اللِّسَانِ وَلَمْ يُطَابِقْ قَلْبُهُ لِسَانَهُ فَلَا يَكُونُ لَهَا تَأْثِيرٌ فِى الْقُلُوبِ وَاللّٰهُ الْمُوَفِّقُ

فَائِدَةٌ : قَدْ كَانَ فِى قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ مَنْ يَنْشَأُ عَلَى طَاعَةِ اللّٰهِ

وفى قلبه من الرقة واللين ما لا يكون لغيرهم فهم أرق قلوبا وألين أفئدة ينشأون فى طاعة الله ويشبون عليها كما قد حكى سبحانه عن أهل الكهف فى قوله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) فبين سبحانه وتعالى أنهم فتية وأنه زادهم إيمانا مع إيمانهم بقوله (وزدناهم هدى) وبين أنهم من شبابهم ليسوا من شيوخهم وقال تعالى عن قوم موسى (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين) وقد روى فى بعض الآثار أن قوم نوح أشياخهم يحذرون شبابهم من متابعة نوح عليه السلام وآخر هذه الأمة صار شبابهم هم أكبر سلاح على دينهم وعلى أمتهم فلا يعلم فى الأجيال السالفة أن أحدا منهم اتفق شبابهم جملة فسفهوا أحلام شيوخهم وأهل بلدهم ووطنهم وأخذوا بفعل

الْأَجَانِبِ وَلُغَاتِهِمْ وَتَرَكُوا دِينَهُمْ أَبَدًا حَتَّى وَلَوْ كَانُوا عَلَى الْبَاطِلِ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ إِلَّا أَهْلَ هٰذِهِ الْأَزْمَانِ فَإِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ اهْدِ ضَالَّ الْمُسْلِمِينَ شَبَابَهُمْ وَشُيُوخَهُمْ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَعَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَسْعَى إِلَى الْخَيْرِ جُهْدَهُ وَيَعْلَمَ أَنَّ الشَّبَابَ ضَيْفٌ لَا يَعُودُ وَفَرْحَةٌ لَا رُجُوعَ لَهَا. فَعَلَيْهِ أَنْ يَشْغَلَهُ بِطَاعَةِ اللهِ وَأَنْ لَا يَتَّبِعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَلَا يَغْتَرَّ بِكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ هٰذِهِ الْأَزْمَانِ الَّذِينَ لَا رِوَايَةَ وَلَا دِرَايَةَ قَدْ غَرَّتْهُمُ النِّعَمُ فَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ذٰلِكَ السَّفَرُ إِلَى بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ وَمُخَالَطَتُهُمْ وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (أَنَا بَرِيءٌ مِنْ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ ظَهْرَانَيِ الْمُشْرِكِينَ) وَهٰؤُلَاءِ أَقَامُوا عِنْدَهُمْ وَسَكَنُوا فِي بَلَدِهِمْ فَقَلَّدُوهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَفِي شُؤُنِهِمْ كُلِّهَا فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. قَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى

النَّاسَ أَنْ يُؤْثِرُوا مَا يَرَوْنَ عَلَى مَا يَعْلَمُونَ وَأَنْ يَضِلُّوا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

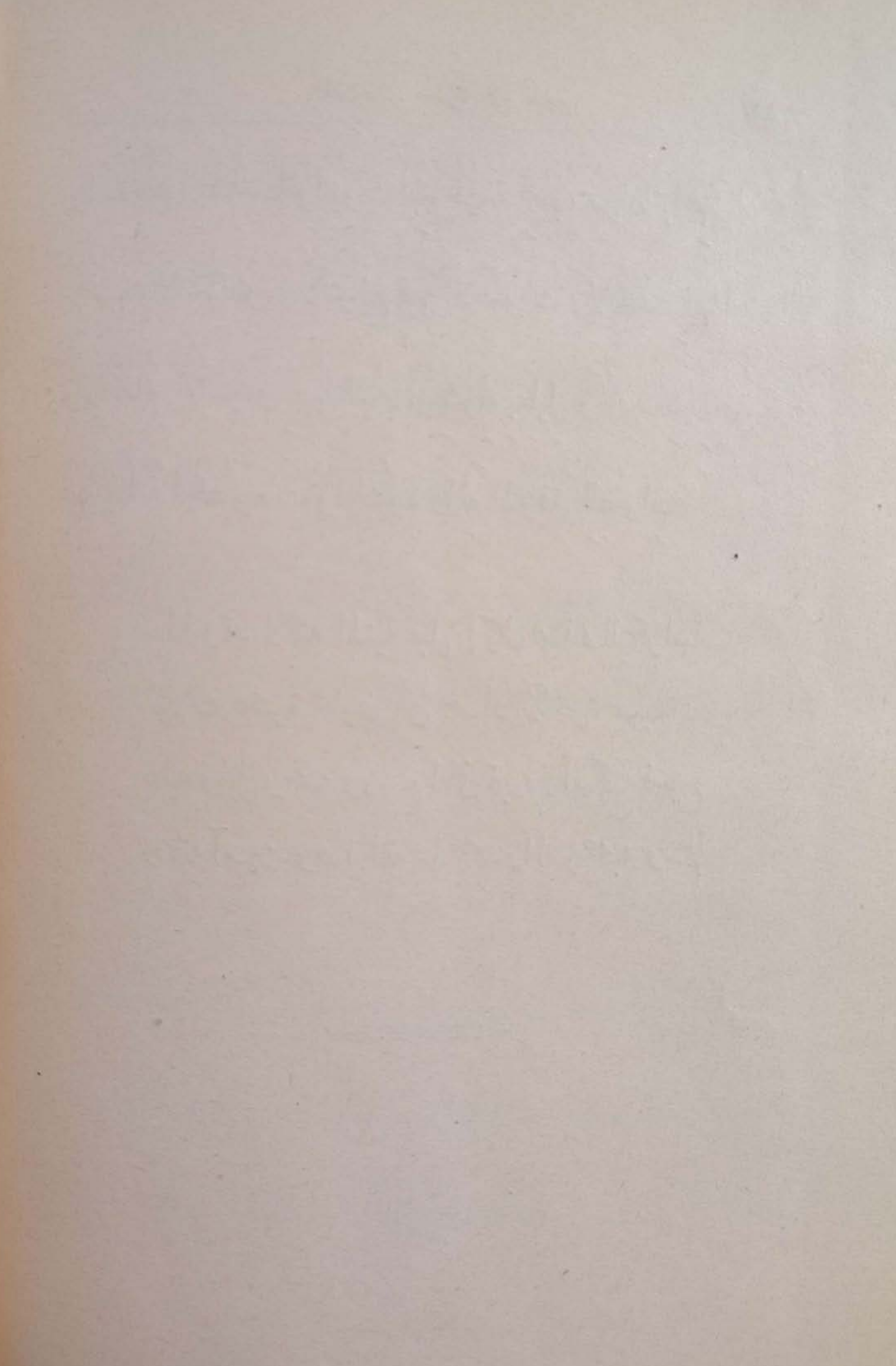
(فَصْلٌ) قَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ قَدْ أَعْطَوْا الْمَسَاجِدَ حَقَّهَا مِنَ الْعِنَايَةِ بِهَا وَاحْتِرَامِهَا مِنْ تَرْمِيمِهَا وَتَعْمِيرِهَا بِالصَّلَاةِ فِيهَا وَالذِّكْرِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ مَا كَانَ لَهُمْ مَعَاهِدُ وَلَا مَدَارِسُ عَلَى النِّظَامَاتِ الْحَادِثَةِ وَمَا كَانَ لَهُمْ أَنْدِيَةٌ إِلَّا الْمَسَاجِدَ وَفِيهَا يَقُومُونَ بِشُؤُونِ الدِّينِ قَدْ عَمَّرُوهَا بِالطَّاعَاتِ وَتَعَلَّقَتْ قُلُوبُهُمْ بِهَا وَاقِفِينَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ مُذْعِنِينَ بِالْعُبُودِيَّةِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ جَمِيعًا قَدْ أَلْصَقَ الشَّرِيفُ مِنْهُمْ كَتِفَهُ بِالضَّعِيفِ وَيَحْتَكُّ جِسْمُهُ بِجِسْمِهِ قِيَامًا وَرُكُوعًا وَسُجُودًا لَا يَتَقَدَّمُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَسْتَأْثِرُ مُسْلِمٌ عَلَى آخَرَ بِمَكَانٍ أَوْ نِظَامٍ يَخُصُّهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ وَأُولُوا الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى فَيَتَقَدَّمُونَ لِمُرَاجَعَةِ الْإِمَامِ وَالْأَخْذِ عَنْهُ وَلِمَا يَقَعُ قَبْلَ الصَّلَاةِ

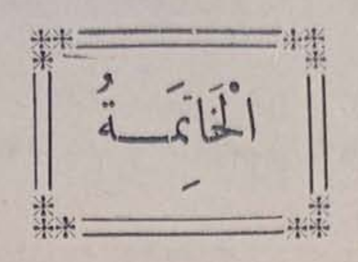
أو بعدها من مبادلة الرأى والشورى التى جعلها الله صفة المؤمنين كما قال تعالى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) وقد كان للمساجد عند أهلها من التقدير ما نشاهد اليوم آثاره باقية فينا فكم أكثروا منها فى جميع الحارات وزينوها بالطاعات وحبسوا عليها الأوقاف العظيمة تعظيما لشأنها ولمن يقوم بعنايتها من الأئمة والمؤذنين وبأنفسهم بالصلاة فيها والذكر وأنواع العلوم من المتعلمين فهى عامرة ظاهرا وباطنا وأما اليوم فقد أهملوها وتركوها معرضين عن عمارتها المعنوية وظنوا أنها لا تبنى إلا للضعفاء والمرضى والشيوخ والعميان ومن لا حاجة له بالدنيا ناسين أن آباءهم الأولين أوفى أول عصرهم هذا وأهل الصلاح ما كانوا يبايعون الأئمة إلا بها ولا يخرجون الجيوش الاسلامية إلا منها ولا يطلبون العلم إلا بين

جدرانها وكانوا إذا حزبهم الأمر اجتمعوا له فى المسجد وتشاوروا فيه من غير صخب ولا إيذاء بل يعطون المسجد حقه وتعظيمه وللعلماء المجالس العامرة فى كل أمر من أمور الدين ويدرس فيها القرآن وتفسيره والسنة المطهرة والفقه واللغة العربية وجميع أصول الدين وفروعه ولم يجعلوها مهجورة إنما يقرأ فيها اسم ورسم كما فى هذه الأزمان بعد ما كانت العلوم كلها تخرج فيسمع المستمع ويسأل السائل ويتلوا التالى فتجدهم فيها حلقاً حلقاً وزمراً زمراً فأين كان الحسن البصرى وطبقته والإمام أبو حنيفة ومالك بن أنس والخليل بن أحمد ونظائرهم ما كانوا يعلمون الناس ويلقون عليهم الدروس فى الوعظ والإرشاد والتوحيد والأحكام إلا فى المسجد فلو رد لبيوت الله ما كانت عليه من إقامة الشعائر واجتماع المسلمين فيها لتعلقت بها قلوب كثير من الذين أعرضوا عنها

وَاسْتَخَفُّوا بِشَأْنِهَا وَلِبُيُوتِ اللهِ حُرْمَةٌ تَجِبُ مُرَاعَاتُهَا فَهِيَ لَا تَحِلُّ لِجُنُبٍ وَلَا حَائِضٍ وَلَا تُرْفَعُ فِيهَا الْأَصْوَاتُ وَلَا تُنْشَدُ فِيهَا الضَّوَالُّ وَلَا تُقَامُ الْأَسْوَاقُ فِيهَا لِبَيْعٍ أَوْ شِرَاءٍ بِقَلِيلٍ وَلَا بِكَثِيرٍ وَتُكْرَهُ فِيهَا إِقَامَةُ الْخُصُومَاتِ وَالْحُدُودِ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ

هذا وقد لاقته المنية قبل إكمال هذه الكراسة لثلاث عشرة خلون من جماد الآخرة صب الله عليه وابل رحمته ووسع له فى قبره وأسكنه فسيح جنانه آمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم





الخاتمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد وآله وصحبه وبعد فقد قال تعالى (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) الآية. قال بعض المفسرين فلا عليك إن لم ينظروا ولم يذكروا إذ ما عليك إلا البلاغ لست عليهم بمسلط إلا من تولى وكفر لكن من تولى فيعذبه الله العذاب الأكبر يعني عذاب الآخرة.

وقيل متصل فان جهاد الكفار وقتلهم تسلط وكأنه أوعدهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة وقد رأيت ما حدث من الناس في هذه الأزمان من الجفا والاعراض عن الله والدار الآخرة

وَعَنْ مَا خُلِقُوا لَهُ مِنْ تَغَيُّرِ الأَحْوَالِ فِى الأَعْمَالِ وَالأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ وَالْهَيْئَاتِ مَا يُوجِبُ مَقْتَهُمْ وَمُبَاينَتَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَقْبَلُوا عَلَى دُنْيَاهُمْ وَلَذَّاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ بِجُمْلَتِهِمْ وَأَعْرَضُوا عَنْ آخِرَتِهِمْ وَمَا خُلِقُوا لَهُ وَاسْتَقْبَحُوا مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ الَّذِى هُوَ دِينُ الإِسْلَامِ الَّذِى قَدْ جَدَّدَهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ فَإِنَّهُ بَذَلَ نَفْسَهُ وَصَبَرَ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ مِنَ الأَذَى مُتَأَسِّيًا بِمَنْ سَلَفَ قَبْلَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ الدَّاعِينَ إِلَى اللهِ فَإِنَّهُمْ قَدْ أُوذُوا فِى اللهِ وَهَكَذَا حَالُ الرَّسُولِ قَبْلَهُمْ يَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى ثُمَّ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) وَهَؤُلَاءِ اسْتَحْسَنُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ أَهْلُ الأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ مِنَ الأَجَانِبِ أَهْلِ التَّفَرْنُجِ فِى الأَفْعَالِ وَالأَقْوَالِ وَاللُّغَاتِ وَالأَخْلَاقِ وَالْهَيْئَاتِ وَالْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَجَالِسِ وَغَيْرِهَا مِمَّا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ فَكُلَّمَا

استغربوا شيئاً منهم قبلوه وتركوا لغاتهم العربية والوطنية ولم يبق معهم حتى الأنفة لدينهم ووطنهم ولسانهم العربى وأن الله أنزل القرآن عربياً وقد كان عمر رضى الله عنه ينهى عن رطانة الأعاجم وهؤلاء يفتخرون بتعلمهم اللغات الأجنبية وبعضها حرام لا يجوز تعلمه كرطانة الأعاجم وما يشاكلها وهؤلاء المتعلمون لها قد استهجنوا أهلهم وأقرباءهم من خاص وعام وهذا من مبادىء الشر ووسائله فانهم قد يهزؤن بأهلهم وأهل وطنهم أعنى هؤلاء المتعلمين لها وقد ذكر لنا أن منهم من يقرأ القرآن بغير العربية وهذا محرم باجماع أهل العلم وأنه لا يجوز قراءة القرآن بغير العربية إلا أن يجىء رجل حديث عهد بالاسلام فيترجم له شىء منه لحاجة فهذا محل خلاف والأصح أنه لا يجوز

(فصل) ومن هؤلاء الضعافة العقول من أهل نجد وغيرهم

مَنْ قَدْ عَرَفُوا الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ وَنَشَأُوا فِيهِ فَانْحَازُوا إِلَىٰ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْبِدَعِ وَأَحَبُّوهُمْ وَأَبْغَضُوا أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَنَافَرُوهُمْ وَتَنَقَّصُوهُمْ فَصَارُوا عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَشَدَّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَتَرَكُوا فِطْرَتَهُمْ وَدِينَهُمْ وَسَمْتَهُمْ وَاسْتَبْدَلُوا بِذَٰلِكَ لُغَاتِ الْأَجَانِبِ وَاتَّبَعُوهُمْ وَاسْتَحْسَنُوا أَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ وَلَمْ يَأْنَفُوا عَنْ كَوْنِهِمْ تَبَعًا لِلْأَجَانِبِ فَعَكَسُوا الْقَضِيَّةَ فَإِنَّ الْعَادَةَ الْمَعْرُوفَةَ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنَّ الْقَادِمَ يَسْلُبُ مِمَّنْ قَدِمَ عَلَيْهِمْ وَهٰؤُلَاءِ الصَّعَافِقَةُ الْعُقُولِ قَدْ تَنَكَّسُوا وَانْتَكَسُوا فِي أَمْرِهِمْ كُلِّهِ فَلَا لِدِينِهِمْ الْتَزَمُوا وَلَا لِشِيمَةِ الْعَرَبِ أَخَذُوا بَلْ يَطْعَنُونَ عَلَى مَنِ الْتَزَمَ شِيمَتَهُ وَأَخْلَاقَهُ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا فَهُمْ مُذَبْذَبُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ (هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُقُولٌ يُمَيِّزُونَ بِهَا وَيَتَعَصَّبُونَ لَهَا فَإِنَّ أَبَا جَهْلٍ وَأَضْرَابَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ حَارَبُوا وَجَاهَدُوا عَلَى دِينِ آبَائِهِمْ

الْبَاطِلِ وَهُوَ كُفْرٌ يُوَصِّلُ إِلَى النَّارِ فَشَاقُّوا الرَّسُولَ حَمِيَّةً لِآبَائِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ وَمَا وَجَدُوا عَلَيْهِ أَسْلَافُهُمُ الْمَاضِينَ أَفَلَمْ يَكُنْ لِهَؤُلَاءِ حَمِيَّةٌ وَلَوْ عَصَبِيَّةٌ أَعُوذُ بِاللهِ مِنْهَا لَوْ كَانَتْ وَحْدَهَا لِلُغَاتِهِمْ وَأَنْ يَأْنَفُوا أَنْ يَأْخُذُوا اللُّغَاتِ الْأَجَانِبَ الْوَافِدِينَ لَهُمْ فَإِنْ كَانَ لَهُمْ عُقُولٌ غَرِيزِيَّةٌ دِينِيَّةٌ غَارُوا عَلَى دِينِهِمْ وَفِطَرِهِمُ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا وَالْتَزَمُوا دِينَ الْحَقِّ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ أَبُو جَهْلٍ أَعْقَلَ مِنْهُمْ يَغَارُ لِدِينِ الْكُفْرِ لِأَجْلِ الْحَمِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةِ هُوَ وَأَضْرَابُهُ وَأَنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ وَلَا تَغَارُونَ لِدِينِكُمُ الْقَوِيمِ وَوَطَنِكُمْ كَمَا غَارَ هَؤُلَاءِ لِدِينِ آبَائِهِمْ وَأَنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا شِيمَةُ الْعَرَبِ لَكُنْتُمْ إِلَى ذَلِكَ وَأَنْتُمْ عَكَسْتُمْ قَضِيَّةَ الْعَرَبِ وَشِيمَتَهَا فَلَا لِدِينِكُمْ غِرْتُمْ وَلَا لِشِيمَةٍ الْتَزَمْتُمْ سَلَبَكُمُ الْعَدُوُّ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فَالْمُتَحَذْلِقُ مِنْكُمْ يَقُولُ هَذَا الْجِيلُ الْجَدِيدُ وَالتَّعْلِيمُ

الْجَدِيدُ وَمَا هُوَ مِنَ الْخِصَالِ السَّامِجَةِ الذَّمِيمَةِ الَّتِي يَسْتَحِي مَنْ لَهُ أَدْنَى مَعْرِفَةٍ وَعَقْلٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ فِي ذَمِّ هَذَا الْجِيلِ وَفِعْلِهِمْ .

لَهَفِي عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ مُتَزَمِّتٍ
حَسِبَ الدِّيَانَةَ غَفْلَةً وَجُمُودًا
وَمِنْ شَبَابٍ جَاءَنَا مُتَأَخِّرًا
بِخَلَاعَةٍ يَدْعُونَهَا تَجْدِيدًا

فَذَهَبَ الْإِسْلَامُ وَانْفَصَمَتْ عُرَاهُ بَيْنَ الْمُتَشَدِّقِينَ وَأَهْلِ الْخَلَاعَةِ وَالْمُجُونِ الَّذِينَ هُمْ أَشْبَاهُ الْأَنْعَامِ فَمَا بَيْنَ مُقَلِّدٍ لَا يَدْرِي وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ لَا يَدْرِي يَتَّبِعُ كُلَّ نَاعِقٍ وَمَا بَيْنَ مُنَافِقٍ غَائِرٍ بَيْنَ غَنَمَيْنِ مُتَزَنْدِقٍ يَمِيلُ إِلَى الْحَقِّ مَرَّةً وَإِلَى الْبَاطِلِ أُخْرَى أَوْ مِنْ أَهْلِ الْمُجُونِ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ أَغْرَاضَهُمُ الدُّنْيَوِيَّةَ بِدِينِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ

وَأَحْسَابِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَسَمْتِهِمْ لِيَحْصُلَ لَهُمْ شَىْءٌ مِنَ الشَّهَوَاتِ
وَالْمَلْذُوذَاتِ وَالرِّيَاسَاتِ وَيَلْتَحِقُ بِهِمْ صِنْفٌ آخَرُ لَيْسَ لَهُمْ رِوَايَةٌ
وَلَا دِرَايَةٌ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَلَا يَتَعَلَّمُونَ بَلْ هَمَّتُهُمْ بُطُونُهُمْ وَفُرُوجُهُمْ
وَهَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ
أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) وَلِهَذَا لَمَّا تَعَاطَوْا
هَذِهِ الْأُمُورَ قَلَّ مَنْ يَدْعُوا إِلَى الْخَيْرِ وَكَثُرَ مَنْ يَدْعُوا إِلَى الشَّرِّ
وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ وَضَعُفَ الدِّينُ فِى قُلُوبِ الْخَلْقِ وَعَظُمَ ضِدُّهُ مِنْ
أَنْوَاعِ الشُّرُورِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ وَالْمَعَاصِى مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهَا فَاللهُ
الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِىِّ الْعَظِيمِ
وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذَا لِمَا رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا وَشَاهَدْنَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُنْكَرَةِ
مِنَ الْمَعَاصِى وَالْبِدَعِ وَالْمُحَرَّمَاتِ الَّتِى لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ
هَذِهِ الْأَحْرُفَ الْيَسِيرَةَ لِتَكُونَ تَذْكِرَةً لِلْقُلُوبِ الْمُنِيرَةِ وَأَمَّا مَنْ

لَيْسَ فِي قَلْبِهِ وَاعِظٌ فَلَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوَاعِظِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

إلى القارىء الكريم

المرجو ممن راى خللا ان لا يتعجل حتى
يتامل المعنى لعل الخلل يظهر صوابا والله أعلم

فهرست

دواء القلوب المقرب لحضرة علام الغيوب

تم بحمد الله وقوته طبع كتاب دواء القلوب وتجليده
فى غرة ذى الحجة لسنة ١٣٨١ بالمطبعة البهية المصرية
(مؤسسة المطبوعات الاسلامية بالقاهرة)
صندوق بريد رقم ٤٠٦ بالقاهرة

طبع
بمطابع مؤسسة المطبوعات الإسلامية
صندوق بريد رقم ٤٠٦ بالقاهرة
كطلب
الأستاذ عبد المحسن بن عثمان أبابطين
صاحب المكتبة الأهلية بالرياض

الشيخ الفقيه الواعظ والمعلم المربي

محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن عباد من آل عوسجة من بطن آل بدران من قبيلة الدواسر رحمه الله ولد عام 1331هـ في الصفرات من بلدان المحمل ، وفرّغ نفسه للعِلم والتعليم والتدريس منذ نشأته حتى وفاته ، رُشّح للقضاء لكنه امتنع تورعاً منه مع أن مؤهلات القضاء متوفرة فيه كالعلم الشرعي والرسوخ فيه والورع والديانة والأمانة والإخلاص وقوة الشخصية،

ولد في أسرة علمية حيث أن جد الأسرة الشيخ محمد بن حمد بن عباد الذي يُعد من مؤرخي نجد ومن الفقهاء القضاة تولى القضاء في بلدة ثرمداء ، ووالده عبدالرحمن من حفظة كتاب الله ومن طلبة العلم وقد تأثر به أبناؤه وتعلموا على يده فحفظوا القرآن الكريم وصاروا أئمة مساجد في المنطقة ومعلمين .

بداية طلبه للعلم

سكن حريملاء مع أخيه إبراهيم وفيها بدأت رحلته في طلب العلم. ومن أوائل مشايخه عبدالرحمن بن سعد –قاضي حريملاء– قرأ عليه في الفقه والتوحيد ، فتعلم التوحيد من رسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب ثم الفقه على مذهب الإمام أحمد، وكان زاد المستقنع هو المقرر حفظه مع شرح الروض المربع لشيخ المذهب منصور البهوتي، كذلك دراسة مبادئ اللغة العربية، وفي المثل "من حفظ الزاد قضى بين العباد"، كذلك درس الشيخ ابن عباد على العالم إبراهيم بن سليمان وهو قاضٍ حصيف قوي الشخصية،

هذان الشيخان استفاد منهما ونهل من علومهما في بداياته ، ثم رحل إلى المجمعة ، وكان فيها قاضي سدير الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العنقري الذي يلقب صاحب العمدتين أي عمدة الفقه وعمدة الأحكام، وكانت حلقة الشيخ العنقري زاخرة بالتلاميذ والطلاب، فأخذ عنه التوحيد والفقه والفرائض والتفسير.

ثم رحل إلى الرياض، وكان الشيخ محمد بن إبراهيم رأس العلم والعلماء فأخذ عنه وعن علماء آل الشيخ وعن غيرهم جملة من العلوم، فأخذ بعض المتون حفظاً وشرحاً على الشيخ محمد بن إبراهيم والشيخ عبداللطيف آل الشيخ

ثم جاور في مكة المكرمة، ونهل من بعض علماء الحرم

أكب على المطالعة حتى صار أهلاً للإفتاء والقضاء والتدريس، وكان إماماً فقيهاً حنبلياً لا يشق له غبار، ولديه مهارة في التدريس والوعظ ، وكان نبيهاً قوي الحفظ، سريع الفهم، واسع الاطلاع في الفقه والفرائض والحديث، رشح للقضاء في سدوس ولكنه اعتذر

أعماله

- تعين إماماً وخطيباً في جامع سدوس ورحل إليه من القرى المجاورة أناس لما سمعوا به، وعقد حلقات للتدريس في مبادئ العلوم الشرعية والعربية، فكان –رحمه الله– منارة علم ومعرفة في هذه البلدة، ونهض بها نهضة علمية، حتى أنه لما عينه سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم معلما في المعهد العلمي عام 1371هـ تأثر أهل المنطقة لرحيله .

- تعين إماماً بمسجد حي دخنة،
- ومشرفاً على مصلحة الزكاة،
- كما تولى الإشراف على الأئمة والخطباء في الرياض،
- وهذه الوظائف جاءت ثقة بعلمه من قبل الشيخ محمد بن إبراهيم
- ورُشّح أن يكون أستاذاً في كلية الشريعة لكن الظروف المرضية حالت بينه وبين التدريس فيها.
- كان محبا للقراءة والاطلاع، سيما في العلوم الشرعية، وكان لديه مكتبة ضخمة يقدر عدد الكتب فيها 15 ألف كتاب، وكانت تعليقاته وهوامشه وحواشيه تدل على سعة اطلاعه ودوام مطالعته .

وكتابنا هذا دواء القلوب المقرب لحضرة علام الغيوب

نشر بعد وفاته مباشرة وعرف به، وهو كتاب في الوعظ والتوجيه والإرشاد ، وهو من كتب الرقائق انتقاه من كتب ابن القيم وابن رجب وابن الجوزي ومن حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ومن إحياء علوم الدين للغزالي، وغيرها من الكتب، وجعله فصولا متنوعة فهي مختارات قيمة ونفيسة لمن أراد الذكرى والاعتبار بما يقرأ،

وفاته رحمه الله

كان سبب مرض الشيخ أنه فجع عندما سرق منزله ، حيث سرقت نقوده كلها ويقدر المبلغ بـ(15) ألف ريال أو أكثر، وفيها أمانات للناس . وكان ذلك في حدود عام 1379هـ وقد أورد قصة السرقة الشيخ محمد القاضي في كتابه (روضة الناظرين) ، فتأثر تأثراً بليغاً ومرض وتعب ثم سافر إلى لبنان للعلاج ولم يستفد شيئا فرجع إلى الرياض وساءت حالته ، وتوفي ودفن بتاريخ الثاني عشر من جمادى الأولى لعام 1380هـ، أسكنه الله الفردوس الأعلى ووالدينا وجميع المسلمين

وهذه الطبعة التي بين أيدينا **دواء القلوب** طبعت في منتصف عام 1381هـ

ونُشرت عن طريق ثلاث مكتبات مشهورة وهي :

- مكتبة التوفيق **لصاحبها حمد بن إبراهيم المهوس**
- مكتبة التقدم الثقافي **لصاحبها عبدالعزيز بن محمد الربيعة**
- المكتبة الأهلية بنجد **لصاحبها عبدالمحسن بن عثمان أبابطين**

مراجع الترجمة

١ – روضة الناظرين للشيخ محمد القاضي

٢ – موقع على الشبكة العنكبوتية عن البدارين الدواسر يشرف عليه الدكتور حمد العمران

٣ – الأستاذ صلاح الزامل

